إعداد
د. علي بن محمد العمران

صديق لا أتم النفس منه ... يزيدك رفعة تعلو السحابا
يضيء لك الدروب بكل حين ... فما خاب الذي صحب الكتابا



بأقلام كبار الكتاب



دار الحضارة للنشر والتوزيع

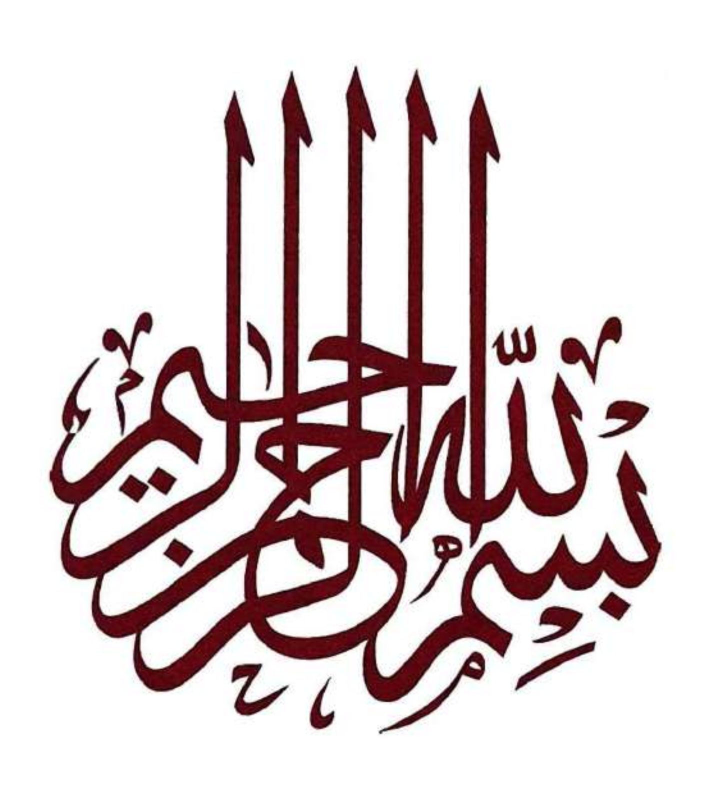
الطبعة الثانية

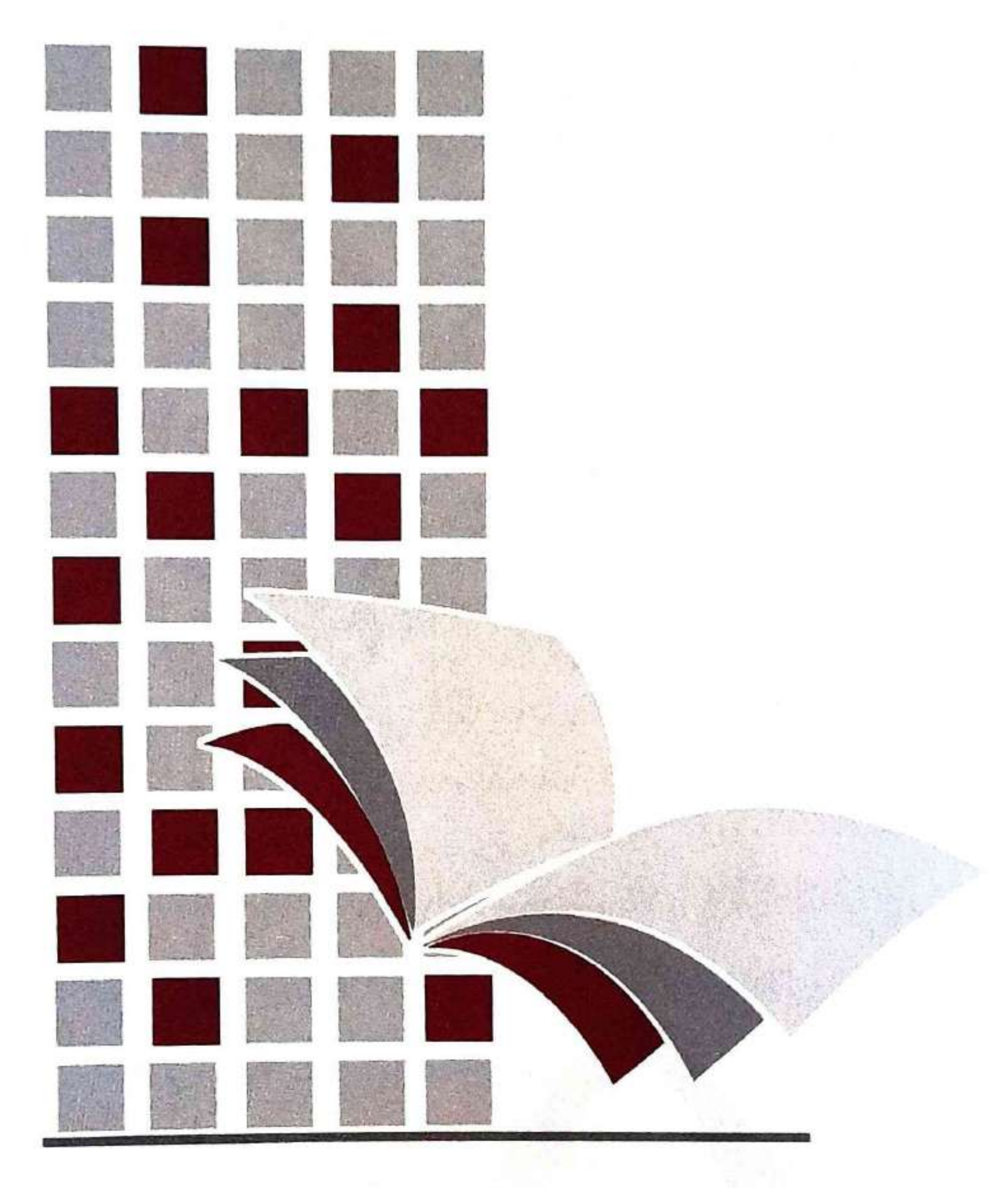
في محراب القراءة

بأقلام كبار الكتّاب

جمع وتقديم

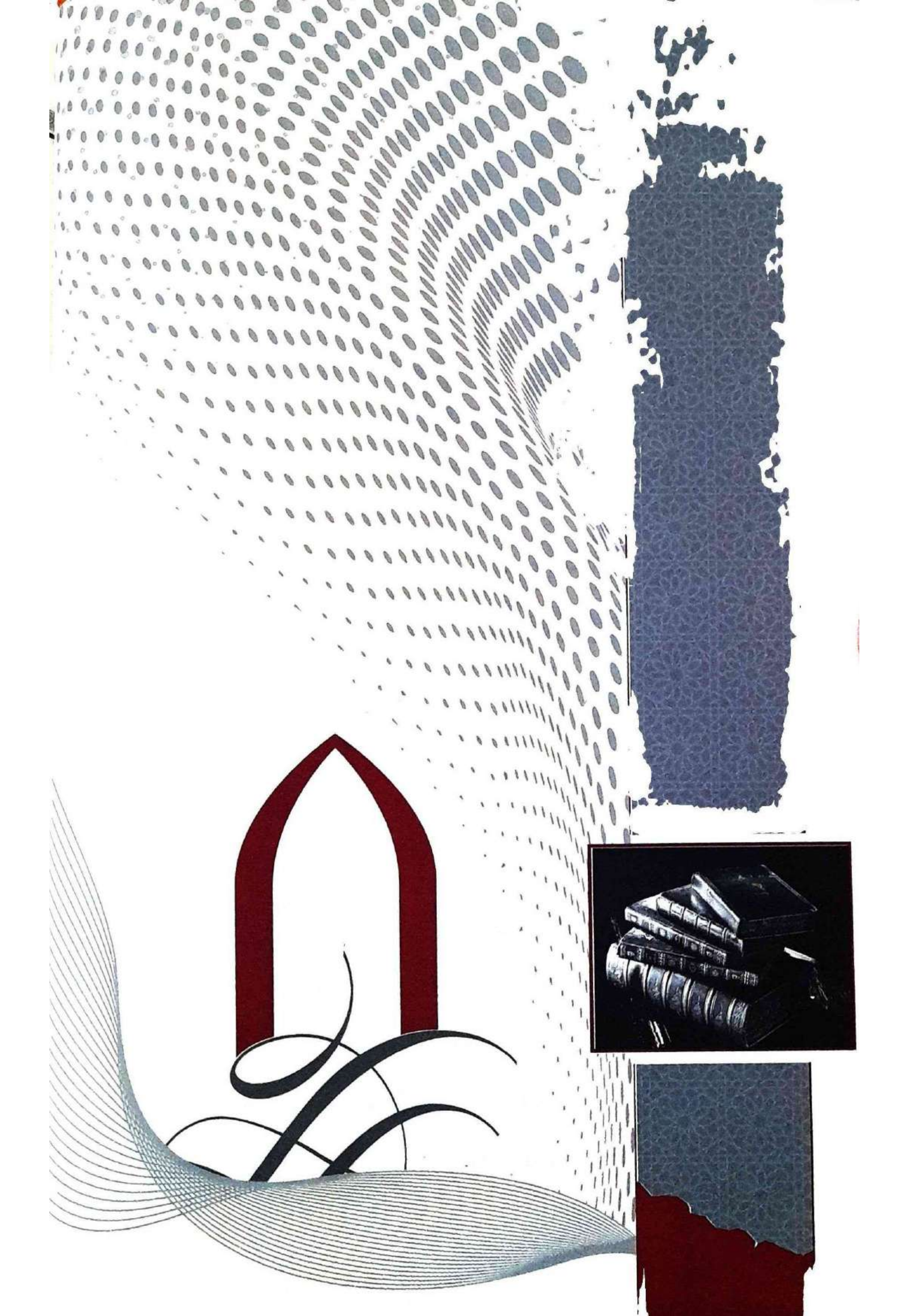
د. علي بن محمد العمران


بسم الله الرحمن الرحيم



(القراءة الآن وفي المستقبل،
من دون منازع، الوسيلة الأقوى
والأمتع لتحصيل المعرفة أولا،
ولإدراك الوضع البشري ثانيا،
ولإرضاء الذات ثالثا).

(مجلة المعرفة، عدد ٩٩٤)





بين يدي الطبعة الجديدة

(الكتب حظوظ ورزق)، كلمة صادقة في كثير من جوانبها، فقد يلقى الكتاب التافه رواجًا وانتشارًا لا يلقاه الكتاب الجيّد الرصين!

وأظن أن هذا الكتاب من الكتب التي لم تنل ما تستحقه من الاهتمام، ولم تنل حظها من التداول والعناية، ربما يكون للعنوان (الذي طبع به الكتاب سابقًا) دور في ذلك، أو لشكل الكتاب أو لغلافه أو لحَجْمه، أو لمؤلِّفه، أو لسبب آخر لا أعرفه ولا أتحقّقُه.

لا أقول هذا الكلام لأن الكتاب كتابي، ولا أقوله لأنه من إنشائي، أو من بنات أفكاري، كلا، فالكتاب كله لأصحابه من العلماء والأدباء والمفكرين، اعتصرَتْه أفكارُهم وخطّته أناملُهم وجادت به خواطرهم، ولم يكن لي فيه من جهد سوى الجمع والترتيب والاستخراج من بطون الكتب والمجلات!

فالكتاب بحق حصيلة حقب ممتدة من السنين، وخلاصة تجارب جماعات من كبار الكُتَّاب والمثقفين في شأن القراءة والكتاب وما إليها..

فحقيقٌ لمثله أن يُحتفَل به ويُقتنى، ويُقرأ ويعاد ويعتنى، وهو -صدقًا- خيرٌ من كثير من الكتابات المعاصرة (وأنا من بعضهم) في شأن القراءة، التي كُتب كثير منها بلغة ضعيفة، وتصورات مبتورة، وأفكار مقتبسة، وربما كتبها ناشئون في سلم القراءة والثقافة والاطلاع.

وفي هذه الطبعة الجديدة صنعت خمسة أشياء:

- صححت ما ندّ في سابقتها من تطبيعات وهي قليلة.
- أضفت للكتاب عدة مقالات لأحمد أمين والعقاد والميمني وعبد الله كنّون.
- غيّرت ترتيب المقالات بما أحسبه أكثر مناسبة وتشويقًا.
- غيرت عنوان الكتاب إلى ما تراه في صفحة عنوانه بدلا من العنوان السابق (مقالات كبار الكتاب عن القراءة والكتاب). ولستُ بِبِدْعٍ في هذا الصنيع فقد صنعه عشراتُ الكُتّاب المعاصرين لأسباب كثيرة أفصح بعضهم عنها في مقدماتهم (كما فعلتُ وهو الأفضل) وسكت بعضهم عنها. وقد سرد طائفة كبيرة منهم الصديق المؤرخ أحمد العلاونة في كتابه (الكتاب وأحواله ص١٣-٢٤). وذكر من أسباب تغيير التسمية: «كأن يستملح التسمية الجديدة ويراها أقرب إلى موضوع كتابه، أو يزيد فيه قليلا (وهذان السببان متوفران في كتابنا)، أو قد يجمع كتابين أو ثلاثة في كتاب واحد..».

وأرجو بهذا التنبيه أن أخرج من عتب من يظنه كتابًا آخر غير الأول. وعليه فمن أراد المقالات الزائدة فليصورها من هنا، وسأتيحها على الشابكة لمن أحب قراءتها.

- جعلت حجمه من القطع المتوسط بدلا من الكبير ليسهل حمله وتداوله.

إلى أشياء فنيّة أخرى يلمسها القارئ بالمقارنة.

والحمد لله حق حمده.

علي بن محمد العمران
aliomraan@hotmail.com



مقدمـــة

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، القائل في محكم التنزيل: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ١-٤]؛ فكان أول أمر في القرآن نزولًا. والقائل لنبيه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] فلم يأمره بالزيادة من شيء إلا من العلم.

والصلاة والسلام على مَن ابتعثه الله بالهدى والعلم والنور، وحثّه على الاستزادة منها، والدعوة إليها، والصبر عليها.

وقد أرسل الله رسولَه للعرب وهم في جهل مطبق، وضلال مبين، يندر فيهم مَن يعرف القراءةَ والكتابة؛ فما هو إلا أن انبثق نور الإسلام في أم القرى، وولدت الدولة في طيبة الطيبة= حتى طبّق العِلمُ الخافقين، وكثر العِلمُ والعلماء والقرّاء، وبدأت رحلة تدوين العلم، وتأسيس العلوم الإسلامية والتأليف فيها، وكثر التدوين والتأليف كثرةً بالغة، فألف علماء الإسلام في شتّى فنون المعرفة ما لا يحصيه إلا الله، وتنافسوا في ذلك، وراجت سوقُ العلم ومُتَعلّقاتُه، من التأليف والنسخ والوِراقة.

فأصبح لدى المسلمين أعظمُ ثروة تراثية على طول الثقافات والحضارات وعَرْضها، بما لا يقاس مع أيّ أمة من الأمم. وكانت لهم مظاهر شتّى في هذه النهضة الباهرة الـمُبهِرة.



صحيح أن حضارة الإسلام كأيّ حضارة تتقلّب عهودها قوةً وضعفًا؛ فقد مرّت على الحضارة الإسلامية عهود ذهبية في مجال العلم والتأليف والكتابة وما يتبعها، كما مرّت عليها نكبات وكوارث تَذْهل من هولها الولدان، ويكفي أن نتذكر كائنةَ بغداد المدمِّرة، وسقوطَ الأندلس!! لكنها بحمد الله حضارة قويّة متماسكة لا تسقط، إن قصّر مِصرٌ في حمل رايتها تلقّفها مصرٌ آخر فحمل اللواء وقام بالأمر.

ومهما يكن من أمر، فما بقي من تراث المسلمين، وما يُبعث كل يوم من تراثها ويُكتشف= يدلّ بعضُه على ما ذكرنا، فكيف به جميعه؟!

ولا أظن هذا الأمر يحتاج إلى دليل ولا شواهد، فقد صار من المعلوم المتواتر، وشهد به البعيد المناوئ قبل القريب[1]!

إلى ذلك، فقد شهدت أمّـتُنا (أمة اقرأ) على مدى تاريخها نهضةً موازية تتعلق بحبّ العلم والتفاني في طلبه، والشغف بالقراءة والكتب والبحث والتنقيب والتأليف. وفي صفحات تاريخنا نماذج كثيرة مُعجِبة تشهد لما كان للكتاب من مكانة[2]، ولما كان للعلم والثقافة والمعرفة من حضوة من لدن طبقات المجتمع على اختلافها= كان لها أعظم الأثر في نهضتهم العلمية والمعرفية، في وقت كانت أمم الأرض سادرة في ظلمات الجهل، تائهة في جهالة الظلمات!

فقبل أن «**تسطع شمس العرب على الغرب**» كانوا في ظلمات كثيفة من الجهل والخرافة والاستعباد، وما نهضوا حيث نهضوا إلا بقبس من علوم أجدادنا، ونَهَلٍ من معين تراثنا، وعبّ من بحر حضارتنا، في وقت أهملناه

---

(١) ينظر فصل في ضخامة المكتبة العربية في «التراتيب الإدارية»: (٢/ ٤٥٢-٤٦٢) للكتاني.

(٢) جمعتُ طائفة من أخبارهم في كتابي «المشوق إلى القراءة»، وينظر «الكتاب في الحضارة الإسلامية» للجبوري، ولعبد الله الحبشي كتاب لطيف بالعنوان نفسه.

نحن وتنكّرنا له، حتى خيّم علينا جهل مريع، وتخلف فضيع، فأصبحنا عبيدًا بعد سيادة، تابعين بعد قيادة، ذيولا بعد أن كنا رؤوسًا؟!

وهكذا؛ فإنّ مَن أخَذَ بأسباب الحضارة والتقدّم والمعرفة= قوِيَ ونهض وتقدّم و وصل، ومن فرّط في دينه وثقافته وتراثه وأسباب نهضته= ضَعُف وتأخّر وسقط.

وقد رأى كثير من الكُتّاب والمثقفين والعلماء -من أوائل القرن الرابع عشر- هذه الحال المزرية في عموم الجيل الذي عاصروه وما بعده، مع نظرتهم -بالمقابل- إلى اهتمام الغرب وتقدمهم ونهضتهم الحضارية الباهرة، فجاشت نفوسُهم ألمًا وحسرة على ماضٍ مشرّف وحاضرٍ متخلّف، فسنّوا أقلامَهم -من نحو مئة سنة أو تزيد- للكتابة حول القراءة وما لها من أهمية في نهضة الشعوب، وعن الكتاب وما للاهتمام به من قوة دافعة للإمساك بأهداب الحضارة؛ فسالت أَسَلاتُ أقلامهم بمحبّر المقالات عن القراءة والكتاب، فأبدعوا فيما طرحوا، وتفننوا فيما قدموا، وبسطوا العوائد والتجارب، وتكلموا عن الطرائق والسبل، وحلوا المشكلات العارضة، ونقلوا لنا قبسًا من تراثنا المجيد، وقبسًا من حضارة القوم أيضًا.

وهذه الكتابات الممتدة هذا الوقت الطويل لا أعلم كتابًا يجمع شتاتها ويلمّ شعثها، ويقرّبها إلى القراء والمثقفين.

وكنتُ في أثناء دأبي وشدة اهتمامي بالقراءة وشؤون الكتاب كلما رأيت مقالا لأحد هؤلاء الكتَبَة سجّلته، أو رأيت إشارة لمقال قيّدته. وما كان يدور في خلدي أن أجمعها في كتاب، إلى أن وجدتُ منها ما يصلح أن يُفرَد في كتاب، فكَرَرْتُ على جملة أخرى من المجلات جردًا لها من أولها إلى آخرها، وتقليبًا لفهارس

طائفة منها، ثم توجّهتُ للنظر إلى الكتب الجامعة لمقالات الأعلام، أو مقالات الكُتّاب المجموعة من المجلات وغيرها، أو الأعمال الكاملة للشخصيات، فضممت تيك المقالات إلى بعضها .

ولم يكن هدفي استقصاء جميع مقالات الكُتّاب، ولا جميع المجلات، فهي تزيد على ثلاثمائة مجلة عددًا، وبعض المجلات يزيد عددُ مجلداتها على الخمسين بل أكثر، ولكني كما أسلفت مررت بطائفة كبيرة منها، حتى اجتمع لديّ ما يصلح أن يخرج للناس فينفعهم في النهوض بالهمم وتصحيح منهاج القراءة، ووضع تجارب كبّار الكتاب والمهتمين بالقراءة بين أيدي الناشئة مذلّلة مجموعة.

وعدد مقالات هذه الضميمة أربعة وثلاثون مقالًا، تناوَلَتْ موضوعَ القراءة بشتّى صورِه ومتعلقاته، وهي متفاوتة طولًا وقصرًا، جِدّة وثمرةً وأثرًا، وكُتّابها من «**كبار الكتاب**» حقًّا، كالعقاد والمازني والزيات وطه حسين وأحمد أمين والظاهري وأحمد زكي وغيرهم، ومن هذا الوصف أخذتُ تسمية هذا المجموع بـ«**مقالات كبار الكُتّاب...**» وإن لم يكونوا كلهم كبارًا بالمعنى الدقيق للكلمة، وهذا من التوسع السائغ كما هو معروف في تسمية المصنفات وغيرها كـ «**سير أعلام النبلاء**» و«**تذكرة الحفاظ**» وغيرها.

وهذا الوصف أعني «**كبار الكتّاب**» ذائع معروف، استخدمه الجاحظ تنظر «**رسائله**»: ٣/ ١٣، والثعالبي في اليتيمة: ٤/ ٨٦١ مرة، وابن بسّام في الذخيرة: ٥/ ١٤، والذهبي في تاريخه في غير موضع: ٢١/ ٧٦٢، ٢١/ ٦٠٠١، ٣١/ ٢، ٣١/ ٣٣٢ وكذا في السير، و أكثر منه الزركليّ في الأعلام: ١/ ٩٤، ٢٧، ٦٩، ١٠١، ٢/ ٥٢١، ٨١٣ .. وغيرها. ومن الطريف أنه أطلقه على عدد من الكُـتّاب الذين أوردنا مقالاتهم هنا، كالمازني والزيات وأحمد زكي وغيرهم.

وننبه هنا إلى أمور تتعلق بهذه المقالات:

١- أن كُتّاب هذه المقالات من مشارب شتّى في طول البلاد العربية وعرضها، بل بعضهم من الغربيين أو نصارى العرب، فلهم نوازع متباينة في اهتماماتهم القرائية، والشخصيات التي يذكرونها ويوصون بالقراءة لها..

٢- أن هؤلاء الكتّاب لهم اتجاهات مختلفة مما كان سائدًا في ذلك العصر من مذاهب ونحل وتيارات، كالشيوعية والاشتراكية والديمقراطية، فتجد بعضهم ربما ربط القراءة والاهتمام بها بأن مذهبه ونحلته وطريقته تحثُ عليها، فأدْخَلوا الشأنَ السياسي في موضوع القراءة..!

وعليه فلا يلتفت القارئ إلى هذا المنحى، ولْيَكُن القارئ لهذه المقالات منه على ذُكْر. وهذا التنبيه يكفيكَ إن شاء الله، ويعفيني من التعليق على كل تلك الإشادات والإشارات، وإن كنت لن أخلي مواضع منها من تعليق أو تنبيه.

٣- المدة التي تستوعبها هذه المقالات هي نحو مئة سنة، فأقدم مقال كان سنة ١٨٩٧ م-١٣١٤ هـ، وأحدث مقال زمنًا كان سنة ١٩٨٠ م-١٤٠٠ هـ، ولا شكّ أنه في هذه المدة قد وقع اختلاف وتطوّر في طرائق القراءة وسبلها ووسائلها، وجمع هذه المقالات في هذا المدى الزمني الطويل= مهم للاطلاع على تطوّر هذه القضية، والاختلاف في طرقها ووسائلها، بما يعود على القارئ بالنفع وتوسّع المدارك وتعدد التجارب.

٤- في أثناء تصفحي للمجلات وجدت مقالات كثيرة تتعلق بالكتاب وصناعته وطباعته ومشكلات الطباعة وتحديات العصر وما إليها، فكنت في أول الأمر أدخلتها هنا، ثم رأيت أن يقتصر هذا الجمع على ما يتعلق

بقراءة الكتب وما يمتّ إليها بسبب، وسأفرد تيك المقالات بكتاب آخر إن شاء الله تعالى.

٥- سيلحظ القارئ لبعض مقالات الكتّاب نوعَ انبهار بالغرب وبحضارته وتقدمه، واستكثار من ذِكْر نماذج من أعلامه ومكتباته ومقولات علمائهم ومثقفيهم، وليس ذلك بغريب؛ إذا نظرنا إلى ظروف ذاك الجيل ودراسة كثير منهم في الغرب، أو ارتباطه بمؤسسات أو جامعات غربية، أو تأثره بثقافة الغرب من جهة التتلمذ أو الكتب أو الترجمات، وما إليها. ولو أنهم نقلوا لنا التجارب النافعة وسبل التطور دون انبهار لحُمِد لهم ذلك، ولسلمنا من غائلة التبعية، ونقل ثقافتهم بشوائبها وسوالبها.

وهذا التنبيه كافٍ إن شاء الله في التيقّظ لما في بعض هذه المقالات من هَنَاتٍ متعلّقة بما تقدمت الإشارة إليه.

٦- ترتيب هذه المقالات لا يخضع لاعتبار زمنيّ ولا موضوعيّ دقيق، لكني جعلت لها ترتيبًا مناسبا؛ فجعلت أوّلًا مقالات الحثّ على القراءة ومكانة الكتب وما إلى ذلك، ثم المقالات المتعلقة بطرائق القراءة والقراءة المفيدة، ثم في القراءة لدى الأطفال، وفي مشكلات القراءة ومعالجتها، ثم متفرقات ولطائف.

٧- ونلفت النظر هنا إلى أن هناك مقالات عديدة في المجلات قد يظهر من عنواناتها أن لها تعلقًا بموضوعنا، وهي عند الفحص لا علاقة لها بموضوع القراءة من الحيثية التي نطرقها منها، وبعضها ملخصات لمقال مترجم، وبعضها تتعلق بالقراءة الفلسفية أو سيكولوجية القراءة أو ميكانيكية القراءة، أو بالدعوى المتهافتة لإعادة قراءة النص ونقده! أو تكون عبارة

عن خاطرة قصيرة في صفحة أو دونها! ومن أمثلة ما سبق: مقال (إلا القراءة، ليحي حقّي) ومقال (القراءة والكتب، لمحمود شاكر وأميرة حلمي وغيرهما) ومقال (القراءة المدركة والدعاية) ومقال (القراءة والحياة في مجلة الثقافة السورية) و(القراءة الإبداعية، لعبد العزيز عرفة) و(القراءة العربية لأسعد داغر) وغيرها كثير. كما أني استثنيتُ مقالات عدة منشورة في «مجلة المعرفة» تتعلق بالقراءة لقرْبِ عهدها من جهة فغالبها كتبت قبل عشر سنوات تزيد أو تنقص، ولسهولة الوقوف عليها من جهة أخرى.

وهناك مقالات ذكرتها لطرافتها، كمقال طه حسين: (الكُتّاب والقرّاء) أو للإحماض بها، كمقال المازني: (مكتبتي)، و(طلاق الكتب) لعطّار.

٨- كل التعليقات في الهامش لي، وما كان لكاتب المقال أو المجلة ختمته بذلك بين معقوفين []. وقد أضيف بين معقوفين حرفًا أو كلمة لاستقامة السياق، وهو قليل.

وبعد، فهذا مزيج من الخبرات والنصائح والتجارب قيّدها كبار الكُتّاب لعصرهم ممن لهم قدَم راسخة في القراءة والاهتمام بالكتب، لممتُ شَتاتها من أماكن يصعب الوقوف عليها لآحاد القراء، فجمعتها وصححت نصوصها، وضبطت ما يحتاج لضبط، وعلقت على ما يحتاج إلى تعليق. فدونكها فانهل وعلّ.

وكتب
علي بن محمد العمران
تحريرا في ١/ ربيع الثاني/ ١٤٣٦هـ
بجوار حرم الله




لماذا نقرأ؟ وماذا نقرأ؟ وكيف نقرأ؟[1]

بقلم الدكتور: أحمد أمين بك

أسئلة على بساطتها، صعبة الجواب؛ تحتاج إلى دقة نظر وإمعان فكر.

أما لماذا نقرأ؟ ففي نظري أننا نقرأ لغرض من غرضين، أو هما معًا؛ فأحد الغرضين أن نتعرف العالم أو شيئًا عنه، فمَن قبلنا ومَن عاصرنا جربوا الحياة، واطلعوا على آراء مَن قبلهم، وبحثوا وفكروا، وأودعوا كل ذلك في كتبهم، وأوضحوا ما وصلوا إليه من حقائق -أو ما ظنوه حقائق- في كتاباتهم. وكل باحث وكل مفكر وكل فيلسوف نظر إلى العالم مِن زاويته، واختص بناحية مِن نواحي التجارب، تعمق فيها ووصل منها إلى نتائج سجلها في كتب ألفها.

فنحن إذا قرأنا هذه الكتب، وفرت علينا تجارب جديدة، وأزمانًا طويلة، قطعها المجربون قبلنا، وقربوها إلى أذهاننا، فنستطيع إذا نحن قرأناها أن نصل في زمن قريب إلى ما وصلوا إليه في عهد طويل، ثم نبني على ما قالوا ونكتشف ما جهلوا، والإنسان بطبيعته ميال إلى معرفة الكون الذي حوله، والوصول إلى كنهه، ثم استخدام هذه المعرفة في شئونه، وتوفير أسباب سعادته.

ولكن هذا الكون متعدد النواحي كثير المظاهر، لا يستطيع الفرد في عمره القصير أن يحيط بكنه كل مظاهره، وإدراك جميع نواحيه. فاقتصرت كل جماعة على ناحية منه وعلى مجموعة من ظواهره، فبحثتها ودرستها وألفت فيها، وجاء الآخرون يقرأون للأولين، كل حسب استعداده وميوله، وما تخصص فيه؛ فكانت القراءة، وهي قراءة للدرس والتحصيل والبحث عن الصواب والخطأ

---

(١) مجلة الهلال، سنة ١٩٤٨م.

والحق والباطل، حتى يصلح الأواخر ما أخطأ فيه الأوائل، ويبني الخلف على ما أسس السلف.

ونوع آخر من القراءة، هو القراءة للمتعة، وتغذية العواطف، على حين أن النوع الأول يغذي العقل، كأن يقرأ الإنسان ديوان شعر جميل، فيستمتع به، وتتفتح نفسه له؛ لأنه يرى أن الشاعر استطاع أن يعبر عن عواطف القارئ أحسن مما يعبر، وصور نفسه أحسن مما يصور، وقدر على التعبير الجميل عن مشاعره، حيث عجز هو عن التعبير عنها، فهو يقرأ ويلتذ القراءة كما يلتذ الظمآن الماء البارد الزلال. وكذلك الشأن في قراءة القصة الجميلة، والرواية الجيدة، وأنواع الأدب المختلفة.. فكلها ممتعة، تقرأ للذتها، وجمالها، وفنها بجانب ما يلذ من أفكارها.

وكلما كان الشاعر أو الروائي أقرب إلى نفس القارئ، وأكثر اتحادًا بعواطفه وملائمة له، كانت القطعة الأدبية أمتع والتلذذ بها أوفر.

ويختلف الاستمتاع بالنتاج الأدبي باختلاف الأديب وقارئه.. فإذا سما الأديب وسما القارئ؛ كانت اللذة بالنتاج الأدبي أسمى وأرقى، وإذا انحط الأديب انحط قارئه، وكانت اللذة بأدبه أوضع وأحط، كما هو الشأن في كل اللذائذ الحسية والمعنوية، وقد يجتمع الغرضان معًا، فمن أمعن في القراءة للدرس وجد لذته في ذلك، وكلما عمق البحث واستغرق فكر القارئ، ووافق عقله ونفسه واستعداده، كان القارئ أشد بدرسه شغفًا، وأكثر هيامًا، وأوفر متعة.

وأما ماذا نقرأ؟ فنستطيع أن نستنتج ذلك مِن الإجابة الأولى، فليقرأ كل ما يتفق ودراسته، ويتفق ونفسه، ويتفق وعواطفه، ولكن يجب أن يسمو عقله، فيدرس النافع المفيد لا السخيف الضار، فمن عكف على دراسة كتب التنجيم والخرافات والأوهام والسحر فعمره ضائع.

فإذا اجتنب هذا الباب، فكل فرع من فروع العلم الصحيح صالح للدرس والقراءة فيه والاستزادة منه. وكل ما نقوله في هذا الشأن، أن يدرس القارئ ميله واستعداده وملكاته وكفايته، ثم يتجه الجهة التي يحسنها وينصرف عما ليس أهلًا له، حتى تكون قراءته ودرسه أكثر فائدة وأتم نفعًا. وكذلك الشأن في القراءة للمتعة.. فهناك أدب رفيع تسمو به النفس وتسعد به العواطف وترقى به المشاعر، وهناك أدب وضيع رخيص تنحط به العواطف وتسفل به المشاعر.

فليجتهد القارئ أن يتسامى، لا أن يتضع، وأن يرتفع بالقراءة، لا أن ينحط، وأن يتخير غذاءه الروحي كما يتخير غذاءه المادي.

والقراءة في الحقيقة ظل للنفس والروح، فإذا انحطت النفس مالت إلى قراءة ما يثير الشهوات ويهيج الغرائز، وإذا سمت طلبت الفن الرفيع الذي يرقى بالروح ويحلق في السماء. والشأن في ذلك كالشأن في الإنسان، تدرج في الرقي منذ عهد الطفولة إلى أن صار رجلًا كاملًا، وكان في كل دور من أدوار عمره يقتني الكتب يقرأها.

فإذا أنت استعرضت مكتبته في أطوار عمره، رأيتها في كل طور أرقى مما كانت عليه من قبل. وهناك نوع من الناس تبقى نفوسهم على حال واحدة تلتصق بالأرض دائمًا، فمكتبتهم واحدة وإن تعددت أسماؤها.

وأما كيف نقرأ؟ فالحق أن القراءة فن لا يحسنه إلا القليل.. وفرق كبير بين من يزاول العمل حيثما اتفق وبين من يزاوله كفنّان. وليس فن القراءة يوزن بكثرتها، ولكن بدقتها، ولا بطول وقتها، ولكن بقيمتها.

فهناك من يقرأ صفحة قراءة فنية، فتدر عليه من الفائدة والخير ما لا تدره قراءة ألف صفحة قراءة غير فنية.

إن هؤلاء الكثيرين الذي يقرأون، كما يزعمون لقتل الوقت، مثلهم مثل من يتعاطى المخدر ليغيب عن الدنيا أو يسبح في الخيالات والأوهام. ولم تخلق القراءة لهذا، إنما خلقت للدرس، أو للاستمتاع الصحيح.

هناك من يقرأون كل ما تصل إليه أيديهم حسبما اتفق، فيقرأون الجرائد والمجلات والكتب من غير أن يكون لهم غرض معين، وغاية محدودة. فهذه القراءة لا تفيد درسًا ولا تسبب متعة، فهم كمن يتجول في الشوارع من غير غرض، أو يتسكع في الطرقات لغير غاية.

إنما القراءة الصحيحة قراءة حدد غرضها وغايتها، فيعرف القارئ ما يقرأ؟ ولماذا يقرأ؟ قراءة يشعر معها أن موقفه من الكتاب الذي يقرؤه موقف الصديق من الصديق، فلينظر الإنسان لمن يقرأ، كما ينظر مَن يصادق.

إن أهم شرط للقراءة الصحيحة أن تكون قراءة في دقة وإمعان، يستطعم فيها القارئ الجملة من الفصل، أو الفصل من الكتاب، كما يستطعم الأكل اللذيذ، يجيد مضغه ويجيد هضمه، ويسائل نفسه بعد القراءة الدقيقة لكل فصل: «ماذا يريد الكاتب؟ وهل أخطأ أو أصاب؟ وفيم أخطأ وفيم أصاب؟ وإذا كان قد أخطأ فما صواب ما أخطأ فيه؟». إن قراءة كتاب على هذا النهج خير من قراءة الكتب الكثيرة قراءة سطحية لا عمق فيها ولا تفكير.

وهذه القراءة تستلزم أن يهب القارئ عقله كله ونفسه كلها لما يقرأ، فلا يشغله شاغل آخر ولا تقطع تيار فكره العوارض.. فقديمًا قالوا: «إن العلم لا يعطيك بعضه، إلا إذا أعطيته كلك».

أحمد أمين





لماذا أهوى القراءة؟[1]

بقلم الأستاذ: عباس محمود العقاد

أول ما يخطر على البال -حين يوجه هذا السؤال إلى أحد مشتغل بالكتابة- أنه سيقول أنني أهوى القراءة لأنني أهوى الكتابة، ولكن الواقع أن الذي يقرأ ليكتب وكفى هو «**موصل رسائل**» ليس إلا، أو هو كاتب «بالتبعية» وليس كاتبًا بالأصالة. فلو لم يسبقه كتاب آخرون لما كان كاتبًا على الإطلاق، ولو لم يكن أحد قبله قد قال شيئًا لما كان عنده شيء يقوله للقراء.

وأنا أعلم فيما أعهده من تجاربي أنني قد أقرأ كتبا كثيرة لا أقصد الكتابة في موضوعاتها على الإطلاق، وأذكر من ذلك أن أديبًا زارني فوجد على مكتبي بعض المجلدات في غرائز الحشرات فقال مستغربًا: ومالك أنت وللحشرات؟ إنك تكتب في الأدب وما إليه، فأية علاقة للحشرات بالشعر والنقد والاجتماع؟

ولو شئت لأطلت في جوابه ولكنني أردت أن أقتضب الكلام بفكاهة تبدو كأنها جواب وليس فيها جواب.

فقلت: نسيت أنني أكتب أيضًا في السياسة!

قال نعم: نسيت، والحق معك! فما يستغني عن العلم بطبائع الحشرات رجل يكتب عن السياسة والسياسيين في هذه الأيام.

والحقيقة كما قلت مرارا أن الأحياء الدنيا هي «مسودات» الخلق التي تتراءى فيها نيات الخالق كما تتراءى في النسخة المنقحة، وقد تظهر من «المسودة» أكثر

(١) مجلة الهلال، سنة ١٩٤٨م.

ما تظهر بعد التنقيح. فإذا اطلع القارئ على كتاب في الحشرات، فليس من اللازم اللازب أن يطلع عليه ليكتب في موضوعه، ولكنه يطلع عليه لينفذ إلى بواطن الطبائع وأصولها الأولى، ويعرف من ثم كيف نشأ هذا الإحساس أو ذاك الإحساس فيقترب بذلك من صدق الحس وصدق التعبير ولو في غير هذا الموضوع.

كذلك لا أحب أن أجيب عن السؤال كما أجاب قارئ التاريخ في البيت المشهور: ومن وعى التاريخ في صدره أضاف أعمارًا إلى عمره، فليست إضافة أعمار إلى العمر بالشيء المهم إلا على اعتبار واحد وهو أن يكون العمر المضاف مقدارا من الحياة لا مقدارا من السنين، أو مقدارا من مادة الحس والفكر والخيال، لا مقدارا من أخبار الوقائع وعدد السنين التي وقعت فيها. فإن ساعة من الحس والفكر والخيال تساوي مائة سنة أو مئات من السنين، ليس فيها إلا أنها شريط تسجيل لطائفة من الأخبار وطائفة من الأرقام.

كلا لست أهوى القراءة لأكتب ولا أهوى القراءة لأزداد عمرا في تقدير الحساب.

وإنما أهوى القراءة؛ لأن عندي حياة واحدة في هذه الدنيا وحياة واحدة لا تكفيني ولا تحرك كل ما في ضميري من بواعث الحركة والقراءة دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في مدى عمر الإنسان الواحد، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق، وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب.

فكرتك أنت فكرة واحدة..

شعورك أنت شعور واحد..

خيالك أنت خيال فرد إذا قصرته عليك..

ولكنك إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى، أو لاقيت بشعورك شعور آخر أو لاقيت بخيالك خيال غيرك فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين أو أن الشعور يصبح شعورين أو أن الخيال يصبح خيالين ... كلا . وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقي مئات من الأفكار في القوة والعمق والامتداد.

والمثل الأعلى على ذلك محسوس في عالم الحس والمشاهدة ومحسوس في عالم العطف والشعور.

ففي عالم المشاهدة يجلس المرء بين مرآتين فلا يرى إنسانا واحدا أو إنسانين اثنين ولكنه يرى عشرات متلاحقين في نظره إلى غاية ما يبلغه النظر في كل اتجاه.

وفى عالم العطف والشعور نبحث عن أقوى عاطفه تحتويها نفس الإنسان فإذا هي عاطفة الحب المتبادل بين قلبين.. لماذا؟.. لأنهما لا يحسان بالشيء الواحد كما يحس به سائر الناس..

لا يحسان به شيئا ولا شيئين وإنما يحسان به أضعافا مضاعفه لاتزال تتجاوب وتنمو مع التجاوب إلى غايه ما تتسع له نفوس الأحياء.

هكذا يصنع التقاء مرآتين وهكذا يصنع التقاء قلبين. فكيف بالتقاء العشرات من المرائي النفسية في نطاق واحد؟

وكيف بالتقاء العشرات من الضمائر والأفكار؟

إن الفكرة الواحدة جدول منفصل.

أما الأفكار المتلاقية فهي المحيط الذي تتجمع فيه الجداول جميعا والفرق بينها وبين الفكرة المنفصلة كالفرق بين الأفق الواسع والتيار الجارف، وبين الشط الضيق والموج المحصور.

وقد تختلف الموضوعات ظاهرًا أو على حسب العناوين المصطلح عليها ولكنك إذا رددتها إلى هذا الأصل كان أبعد الموضوعات كأقرب الموضوعات من وراء العناوين.

اين غرائز الحشرات مثلا من فلسفه الأديان؟

وأين فلسفه الأديان من قصيدة غزل وقصيدة هجاء؟

وأين هذه القصيدة أو تلك من تاريخ نهضة أو ثورة؟

وأين ترجمة فرد من تاريخ أمة؟

ظاهر الأمر أنها موضوعات تفترق فيما بينهما افتراق الشرق من الغرب والشمال من الجنوب.

وحقيقه الأمر أنها كلها مادة حياة، وكلها جداول تنبثق من ينبوع واحد وتعود إليه.

غرائز الحشرات بحث في أوائل الحياة.

وفلسفه الأديان بحث في الحياة الخالدة الأبدية.

وقصيدة الغزل أو قصيدة الهجاء قبسان من حياة إنسان في حالي الحب والنقمة..

ونهضه الأمم أو ثورتها هما جيشان الحياة في نفوس الملايين وسيرة الفرد العظيم معرض لحياة إنسان ممتاز بين سائر الناس.

وكلها أمواج تتلاقى في بحر واحد، وتخرج بنا من الجداول إلى المحيط الكبير..



ولم أكن أعرف حين هويت القراءة أنني أبحث عن هذا كله، أو أن هذه الهواية تصدر من هذه الرغبة.

ولكنني هويتها ونظرت في موضوعات ما أقرأ فلم أجد بينها من صلة غير هذه الصلة الجامعة، وهي التي تتقارب بها القراءة عن فَراشة، والقراءة عن المعرّي وشكسبير.

لا أحب الكتب لأنني زاهد في الحياة، ولكنى أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفيني.. ومهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة، ومهما يلبس لن يلبس على غير جسد واحد، ومهما يتنقل في البلاد فانه لن يستطيع أن يحل في مكانين. ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات في عمر واحد، ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل، وتتضاعف الصورة بين مرآتين.



عباس محمود العقـاد



لو كنّا نقرأ [1]

للأستاذ أحمد حسن الزيات

في مصر تسعمائة وتسعون في كل ألف لا يقرأون، وتسعة من هذه العشرة الباقية ينتفون الأخبار من الصحف اليومية، ويقطفون النكت من المجلات الخفيفة؛ وواحد في الألف هو الذي يقرأ الكتاب المثقف ويطالع المجلة المهذَّبة.

وهذا الواحد الأحد يدركه في أكثر العام فتورُ الطبع أو عدوى البيئة أو فوضى النظام، فيعاف الكتابَ، ويجتوي الصحيفةَ، ثم يقعد في مشارب القهوة يتقمّع [2]، أو يسير في مجالي الطبيعة يتأمل، أو يضطجع في مراقد السكينة يستجم. ذلك تقدير مقارب تهجم به على (مصلحة الإِحصاء) وفي أيدينا استقرار متتبَّع لا يتهيأ لغير من قضى أكثر العمر في التعليم والتأليف والصحافة.

وتقدير المؤلفين والكُتّاب في هذا الباب هو الكاشف الحقّ عن مكان الأمة من التربية القويمة والثقافة الأصيلة والرقيّ الصحيح. أما قياس درجة الرقي على نسبة القارئين بالقوة لا بالفعل، فذلك عملٌ كلُّ ما يدلّ عليه أنه خانة في سجل التعداد.

ماذا يعود على العقلية المصرية إذا بلغ (فكَّاكو الخط) فينا مائة في المائة، مادام فكّ الخط لا يُطلِق عقلًا أسيرًا، ولا يجلو بصرًا حسيرًا، ولا يُذكي قريحة كابية؟

أوافق مصلحة الإِحصاء على أن في الخمسة عشر مليون نفس أكثر من مليوني

---

(١) وحي الرسالة: ١/ ٣٥١-٣٥٤.

(٢) يتقمّع: أي يطرد الذباب من فراغه، من قولهم: تقمع الحمار إذا حرك رأسه ليطرد القَمَع بالتحريك، وهو ذباب أزرق يدخل في أنفه. [الزيات].

قارئ، وأن في هذين المليونين ألوفا من ذوي الشهادات المدرسية والدرجات الجامعية يستطيعون أن يكشفوا للعقل آفاق المعرفة، وينهجوا للنفس طرائق الكمال؛ ولكنك إذا وازنت بين عدد المتعلمين وعدد ما يُطبَع من الكتاب وما يوزّع من الصحيفة خامرك الشكُّ في إحصاء المصلحة، أو في تعليم المدرسة، أو في عقلك أنت!

يُنشر في العام كلِّه بضعةٌ من الكتب يتراوح، ما يُطبع من كل واحد منها بين الألف والثلاثة الآلاف، ثم تُساق إلى قراءته بالطَبْل والزّمْر مصـرُ جمعاء، وفي معونتها العالم العربي أجمع، ومع ذلك لا تنفدُ طبعتُه المباركة بعد الإِغراء والإِهداء قبل خمس سنين[1]!

أليس معنى ذلك أن هذا الشعب أمّي وإن عَرَف حروف الهجاء؟ وعاميّ وإن تلقَّب بألقاب العلماء؟ نتبع الطالب من يوم دخوله روضة الأطفال إلى يوم خروجه من الجامعة، فهل تراه يقرأ - إن قرأَ - إلا كتب المدرسة أو ملخصات العلم أو فكاهات الصحف؟ إنك تراه ساعة الدرس وأذنه إلى فم الأستاذ، ويده على القلم، وعينه في الكراسة، يختصر ما اختصر، ويقتصر على ما اقتصر. ثم تراه ساعة الفراغ يحاول أن ينقشه بالتكرار على صفحة ذهنه، فيصدع رأسه بترديد ما لا يفهمه، ويغثى نفسه بإساغة مالا يهضمه. حتى إذا خرج من المدرسة خرج مكروبًا لا يتقارُّ من الكلال والسأم، فينفِّس عن نفسه بالفكاهة الرخيصة أو القراءة السهلة! فإذا نال الشهادة بالحفظ تبعه هذا النفور إلى ديوانه إذا كان عبد الوظيفة، أو إلى مكتبه إن كان حرَّ العمل، فيكره الأدب لأنه يتذكَّر دروس (المحفوظات)، ويعاف القراءة لأنه لم ينس درس (المطالعة).

---

(١) هذا المقال كُتب قبل نحو سبعين سنة، وقد تقدم نظير هذه الشكوى في مجلة المقتطف. ولا تزال هذه الظاهرة البائسة والشكوى المريرة ــ للأسف ــ حاضرة في المشهد الثقافي، وسَلِ الناشرين والمكتبات تنبئك بالأمر، ولا ينبئك مثل خبير!

وعمله وأمله لا يقتضيانه التعمُّق ولا المزيد؛ فيعود كما بدأه الله أميًّا يعمل بالإِرشاد، وفطريًّا يهتدي بالغريزة. والمعلم الذي يخرِّج التلميذ اليوم كان هذا التلميذ نفسه بالأمس.

أرسل إليَّ مدرّس الجغرافيا في كلية الآداب كتابًا يسألني فيه أن أقطع عنه (الرسالة) لأنه لا يجد وقتًا لقراءتها، وهو لا يلقاك إلا حدَّثك بما قالته المجلة الفلانية عن الفتاة فلانة، وما تهزأت به المجلة الآخرى من الأستاذ فلان. ثم سأله أحدُ طلابه يومًا عن مدينة (واسط) فقال له: أحسبها مكانًا في طريق (القصير)!

قرأتُ هذا الكتاب فعذرت وكيل المعرض الزارعي الصناعي وقد دخل عليه مندوب «**الرسالة**» يطلب منه «**تصريحًا صحفيًّا**» بدخول المعرض، فقال له - وأمارات التعجب الساخر تتخايل على جبينه العريض؛ ولكنني لم أر هذه (الرسالة) قط! فلم يجبه مندوبنا وإنما أجابه حاجبه هو بقوله: لا، يا بك! هذه مجلة صفتُها كيتَ وكيتَ؛ وأنا وابنتي نقرأها كل أسبوع، ونجلِّدها كل سنة!

سمعتُ هذا الخبر فعذرت ذلك الباشا القاروني الذي أهديتُ إليه «**الرسالة**» لصلة بين أسرتي وبينه، فردَّها عليَّ وقد كتب على غلافها الأبيض بالقلم الغليظ (مرفود)! فوقع في نفسي أن الباشا يتشبَّه بالملوك والخلفاء، في رفد المُعوِزين من الأدباء والشعراء؛ فهممت أن أكتب إليه أشكره وأستعفيه لولا أن نبهني صديق ممن أوتي «**منطق الناس**» **أن (مرفود) معناها (مرفوض). ولا أريد الترسّل في هذا الحديث**، ففي ذاكرة كل صحافي من بابه طرائف وأعاجيب!

الحقُّ أننا أمة أمية تنظر إلى الكتاب نظر المتعظم الخائف، أو المتقنع العازف. وما دمنا لا نرى الكتاب ضرورةً للروح، كما نرى الرغيفَ ضرورةً للبدن، فنحن مع الخليقة الدنيا على هامش العيش أو على سطح الوجود.



تتطور المذاهب والآراءُ، كما تتطور الحلي والأزياء. فإذا لم تتقصَّ بالقراءة المتجدّدة أخبار هذا التطوُّر من أطراف الأرض عشت في عمرك غريب العقل أجنبيّ الشعور وحشيّ الثقافة، كالذي يلبس في الناس زيًّا مضى بدل زي حضر.

إن من وظائف المدرسة أن تعوّدك القراءة وتعلمك كيف تقرأ. وإن من وظائفك أن تقرأ وأن تعرف ماذا تقرأ. فإذا لم تفعل هي فقد قصرت عن رسالة، وإن لم تفعل أنت فقد فرطت في واجب.

ليت الذين يطلبون من الأدباء أن ينتجوا ويجيدوا الإنتاج، يطلبون من القراء أن يقرأوا ويحسنوا القراءة. فلو كنا نقرأُ لخلقنا الكاتبَ والكتابَ. ولو كنا نقرأ لأخصبنا حقول المعرفة فازدهَرَت في كل مكان وأثمرت في كل نفس. ولو كنا نقرأ لما كان بيننا هذا التفاوت الغريب الذي تتذبذب فيه الأفكار بين عقلية بدائية وعقلية نهائية. ولو كان العالم العربي يقرأ لنشر من الكتاب زهاء مائة ألف، ووزع من الصحيفة قرابة المليون. وإذن تستطيع أنت أن تتصور كيف تزدهر الثقافة وتنتشر الصحافة ويتنوع الأدب ويرقى الأديب!





الكتب غذاءُ النفوس[1]

«الكتب غذاءُ النفوس» عبارة وجيزة اللفظ كبيرة المعنى كتبها المصريون الأقدمون على باب أول دار جمعوا فيها الكتب، وأرسلوها بين الملأ حكمةً رائعة، دلُّوا بها على أن النفوسَ تجوع كالأبدان والعلومُ والمعارف طعامُها وشرابها.

هذا سرُّ نجاحهم في تلك العصور الخوالي، وبهِ صارت مصر مقصدًا لفلاسفة اليونان يرحلون إليها في طلب العلم والحكمة من شاسع الأقطار. قال دبودورس المؤَرّخ: بل إنهم كتبوا على باب المكتبة الأولى **«هنا طبُّ العقول»**. وهو قول لا يقلُّ عن القول الأول بلاغة ولعلهم كتبوا القولين في جهتين مختلفتين.

وغنيٌّ عن البيان أن العلْم قوام العالَم وعماد العمران، وهو الكنز الثمين والذخر الذي لا يفنى، وعليه المعتمد في تذليل الصعاب وتوفير الراحة والرفاهة لنوع الإنسان.

والعلماءُ الراسخون والحكماءُ المجرِّبون قليل عددهم، ولا يتيسر لكل أحد أن يصل إليهم ويأخذ عنهم. وهم فانون كسائر ما في هذه الدنيا، فإذا بقي علمهم في صدورهم ضاع ولم يستفد منه الأَبعَدون ولا الذين يأْتون بعدهم إلَّا بالنقل والتواتر وهما مطيَّة التحريف، لذلك قيل: كلُّ علم ليس في القرطاس ضاع،

---

(١) مجلة المقتطف، سنة ١٨٩٤م-١٣١٢هـ، الجزء الثاني ص ٧٩٣-٧٩٧. ولم يذكر من هو صاحب المقال، فالظاهر أنه لأحد أعضاء تحريرها بدليل آخر المقال.



وما بنته الأقلامُ لا تستطيع على درسه الأيامُ. وعظَّم المتقدِّمون والمتأَخرون شأْن الذين استنبطوا الكتابة والطباعة لنشر العلوم وحفظها، وحسبوهم أكبر المتفضّلين على نوع الإنسان والموطّدين لدعائم العمران.

وقد وُضعت الكتب والجرائد ونخصُّ منها العلميَّ والأدبيَّ لغايتين ساميتين:

الأولى: حفظ العلوم والمعارف من النسيان والضياع، ومن تطرُّق الخلل إليها إذا بقيت في صدور الحفَّاظ أو تداولها الناس خلفًا عن سَلَف. فإنك إذا ألقيتَ خطبةً علميَّة على مئة نفس أو قصصت عليهم خبرًا من الأخبار، ثم سأَلتهم بعد ساعة عمَّا أخبرتهم لا ترى اثنين منهم يتفقان في كل ما يذكرانه. وإذا نقلوا عنك ما أخبرتهم به وأذاعوه بين أقرانهم ثم استقصيتَه بين الذين أخذوه عنهم رأَيت أنه تحرَّف على ضروب شتّى، وألبسَتْه عقولُـهم وأميالهم حللًا لم تلبسه إيَّاها أنت ولا خطرت على بالك، حتى لقد ينقلب عن وضعه الأصلي وغايته الأولى تمام الانقلاب.

وإذا مضى عليه شهر أو سنة فقلَّ أن تجد له إلَّا أثرًا طفيفًا في ذاكرتهم، ولا سيما إذا كثرت شواغلهم ولم يكن حادثًا غريبًا في نفسه يؤَثّر في النفوس تأْثيرًا عميقًا، أو لم يُنظَم شعرًا منسجمًا يحفظ سريعًا ويتغنَّى به القوم خلفًا عن سلف. لذلك ترى أن طوائف الناس لم تتناقل زمانًا طويلًا إلا الحوادثَ العظيمة كحادثة (الطوفان) والأخبار الَّتِي نُظمت شعرًا كأخبار (ترووادة)[1]، وحالما تيسر لهم حفظها في بطون القرطاس لم يتأَخروا عن نقلها إليه. فالغاية الأولى من الكتب حفظ العلوم والمعارف من النسيان والتحريف.

(١) لعله يريد مدينة (طروادة) المدينة اليونانية الشهيرة من قبل أكثر من ألفي سنة قبل الميلاد، وما جرى فيها من أحداث. وقد خلّد ما جرى فيها الشاعرُ الإغريقي هوميروس في إلياذته. ينظر «الموسوعة العربية»

والغاية الثانية منها: نشر العلوم وتعميم نفعها. قلنا: إن العلماء قلائل وقلَّ مَنْ يتيسر له أن يأْخذ عنهم مباشرةً، فالكتب والجرائد العلميَّة الَّتِي بمثابة الكتب تحمل علومهم ومعارفهم وتذيعها في الخافقين وتقرّبِها من طلَّابها دانيةَ القطوف قريبةَ الجنى.

والمرءُ يفخر وينافس أقرانه إذا لقي رجلًا من كبار العلماءِ وحادَثَه ساعةً من الزمان، لكنه يستطيع أن يقيم في دارِهِ ويجلس في غرفتِهِ ويحادث ابن سينا وابن رشد والغزالي والفارابي وأرسطوطاليس وأفلاطون ونيوتن وهرشل وده كارت وبسكال وليبنتز وهلمهلتز وفرنكلين وكنت وسبنسر وغيرهم من علماءِ المشرق والمغرب المتقدمين والمتأَخرين، ويسمع منهم لا حديثًا مبتذلًا يحادثون به كلَّ مَن جالسهم، بل أقوالًا جمعوا فيها غايةَ ما بلغت إليه عقولُهم من العلم والحكمة، وما أرادوا أن يخلّدوا به ذكرَهم على مدى الأدهار.

بل يستطيع أن يحادث رعمسيس والاسكندر وقيصر وتيمور وبونابرت وكل القُوّاد العِظام الذين قادوا الجحافل ودوَّخوا الممالك، ويسير معهم في غزواتهم ويرى عِددهم وجنودهم وحروبهم وإِثخانهم في الأعداء، ويقف بجانبهم تحت الإعلام والبنود ويرى تتويجهم بتيجان المجد والظفر.

بل يستطيع أن يحادث الأنبياءَ والشهداءَ والذين سنُّوا الشرائع ووضعوا النواميس وبُنيت لهم المناسك والمزارات تبرُّكًا بهم وتعظيمًا لقدرهم. بل أن يشاهد المسكونة[1] كلها وهو في بيتِهِ، ويرى عواصمها ومدنها وملوكها وملكاتها وأشكال أهلها وأزياءَهم ويسمع ما يقولون ويرى ما يكتبون.

بل يرى أهل العصور الخوالي إلى خمسة آلاف عام ويطَّلع على أخبارهم

(١) أي: الأرض.

وأطوارهم كما لو ساكَنهم وشافههم وعاشرهم. ذلك قريب ميسور لمن يطالع الكتب العلميَّة والتاريخيَّة، بل لمن يطالع هذه الجريدة التي نزفّها إليه في غرّة كلّ شهر.

قيل: أرسل بعض الخلفاء يطلب أحد العلماءِ ليسامره فلما جاءَه الخادم وجده جالسًا وحواليه الكتب وهو يطالع فيها فقال له: إن أمير المؤْمنين يستدعيك فقال: قُلْ له: عندي قوم من الحكماءِ أحادِثُهم فإذا فرغتُ منهم حضرتُ. فلما عاد الخادم إلى الخليفة وأخبره بذلك قال له: ويحك مَن هؤُلاء الحكماءُ الذين كانوا عنده؟ قال: والله يا أمير المؤْمنين ما كان عنده أحد. قال: فأحْضِرْهُ الساعةَ كيف كان. فلما حضر قال له الخليفة: مَن هؤُلاءِ الحكماءُ الذين كانوا عندك؟ فقال:

لنا جلساءُ لا نملُّ حديثَهم
أَلِبَّاءُ مأْمونون غيبًا ومشهدا

يفيدوننا من علمهم علمَ ما مضى
ورأْيًا وتأْديبًا ومجدًا وسؤْددا

فإن قلتَ أموات فلم تعدُ أمرهم
وإن قلت: أحياءٌ فلست مفنَّدا

وقد تكون هذه القصة موضوعة لكنَّ مغزاها صحيح[1]، وهي تدلُّ على

(١) ذكر ياقوت القصة بإسناده في معجم الأدباء: (٦/ ٢٥٣٣) عن ابن الأعرابي، وذكرها الخطيب في تقييد العلم ص١٤٢ ، وابن عبدالبر في بهجة المجالس: (١/ ٥١)، والقفطي في إنباه الرواة: (٣/ ١٢٩) عنه لكن دون ذكر القصة.
وذكر بعضها النهرواني في الجليس الصالح: (١/ ١٦٣)، والتوحيدي في البصائر والذخائر: (٣/ ١٦٤) وغيرهم دون نسبة. وقول صاحب المقال: «إنها قد تكون موضوعة» بعيد من

اعتبار الأولين لكتب العلم والأدب. ولا يخفى أن العلم ضرب أطنابَه في بلاد المغرب في أوربا وأميركا منذ مئة عام فأكثر، وأن العلماءَ والفلاسفة والحكماءَ والأدباءَ والمخترعين والمستنبطين يكتبون علومهم ومعارفهم باللغات الأوربيَّة، ولا سبيل لنا إلى الاطلاع عليها إلا بتعلُّم تلك اللغات أو بترجمة تلك الكتب إلى لغتنا العربيَّة. والأمران بعيدا المنال؛ أَمَّا الأول فإن استطاعه بعضُ الخاصَّة فلا يستطيعه كلّهم وقلما يستطيعه أحد من العامة. وأما الثاني فإن نفقاته الكثيرة تحول دون الجري فيه على ما ينبغي، ولاسيَّما في العلوم الطبيعيَّة التي تتغير كتبها كل بضع سنوات بحسب تقدُّم العلوم واتساعها.

والأوربيون أنفسهم على كثرة المتعلمين منهم ورواج الكتب العلميَّة عندهم رأَوا أن لابدَّ لهم من إنشاء جرائد علميَّة تذيع المعارف بين الخاصة والعامة، وتنشر أخبار العلماء وتحقيقاتهم حال حدوثها، ليقف عليها الطلَّاب في حينها وينتفع بها أهل الصناعة والزراعة.

وقد اقتدينا بهم في ذلك منذ تسع عشرة سنة فأنشأْنا «المقتطف» واعتنينا اعتناءً خاصًّا بنشر ما ليس في كتبنا العربيَّة، لأن الغرض الأول نشر العلوم الحديثة وإيقاف الطلاَّب على ما لا يجدونه في الكتب التي بين أيديهم. فتجد في كل جزءٍ منه شيئًا من نتائج ما حصَّلناه بالدرس والتدريس مدة سنين كثيرة، وما حصَّله أشهر علماء الأرض في آسيا وأوربا وأميركا، وما كتبوه وخلَّدوا به ذكرهم في أشهر الكتب والجرائد العلميَّة.

فبعضه ثمرات درسنا بعد أن قرنَّا العلم بالعمل بضع عشرة سنة، وأكثره ثمرات عقول الفلاسفة العظام والعلماء الفخام الذين أوصلوا العمران إلى

الصواب.



درجته الحاضرة، وهم الذين نعتمد عليهم في شرح القضايا العلميَّة وتحقيق المسائل التاريخيَّة، وفي أكثر ما نطرقه من سبل البحث والتنقيب. وهذا يجب أن يكون شأن كل كتاب يعرضه مؤَلفه لانتقاد العقول مدى الأدهار. لا نقول ذلك تعظيمًا لشأن «المقتطف» بل إظهارًا للحقيقة التي لا مراء فيها وهي: أننا نبذل في إنشائه غاية ما يُبذَل في إنشاءِ الجرائد الأوربيَّة التي من نوعه، ونجمع فيه زبدة ما ينشر في كثير منها.

ومن يطالع «**المقتطف**» وهو جالس في بيته وبين أهله يجد فيه مقالات غلادستون التاريخيَّة ثمرة ذلك العقل العظيم الذي يدير الربَّان السفينة وقد أفرغ فيها نتائج درسه وبحثه مدة سبعين عامًا. ومقالات سبنسر الفيلسوف الكبير الذي أجمع فلاسفة هذا العصر على أنه زعيمهم ورئيسهم. ويجد فصولًا كثيرة من إنشاء برتلو الكيماوي الفرنسوي، وغيكي الجيولوجي الانكليزي، وورخوف الطبيب الألماني، وشبارلّي الفلكي الإيطالي، وبكته الطبيعي السويسري، ومارش البلينتولوجي الأميركي، وغيرهم من أشهر علماء الأرض، مثل كلفن وهكسلي وتندل ولبك وريلي ولكير ومكس ملر وسدجوك وسايس وبتري وبريس وولس وروشار وجنه ورنان وفلامريون وماري وهرز ووسمن. ومن إنشاء أكثر الذين امتازوا بالعلم والعرفان بين ظهرانينا. وإن كان له مزيَّة أو فائدة فيكون بها نثبته فيه من أقوال هؤلاء العلماء وتحقيقاتهم.

هذا هو الكتاب الذي نزفّه إلى القراء الكرام في غرة كل شهر مقابل ما ينقدوننا إياه من المال الذي نستعين به على جمع موادهِ وطبعها ونشرها. وغاية ما نطلبه منهم أمران:

الأول: أن يوفوا «**المقتطف**» حقَّه من المطالعة والتروّي. فإن الرغبة في

المطالعة من أكبر النعم التي خصَّ بها نوع الإنسان. قال هرشل الفلكي الشهير: **«إنني إذا طلبت من الله ما يبقى معي في السراءِ والضراءِ جنةً في الأفراح وملاذًا من الأتراح فذلك هو الرغبة في المطالعة، فإذا أُعطي المرءُ هذه الرغبة ووجد الكتب المفيدة فهو سعيد لا محالة»**.

والمطالعة البسيطة لا تغني عن الدرس والتدقيق بل الإِكثار منها من غير تدقيق وتروّ يُسْقِم العقلَ ويُضعف الذاكرةَ. فترى مَن يطالع كتابًا كاملًا في يومه ينساه في اليوم التالي ولا يستفيد منه شيئًا.

يُذكَر عن الفارابي الفيلسوف الشهير أنه قال: **«قرأْت كتاب السماع لأرسطو أربعين مرة وأَرى أني محتاج إلى معاودته»**.

وعن ابن سينا الطبيب الشهير أنه قال: قرأْت كتاب **«ما بعد الطبيعة»** فما كنت أفهم ما فيه والتبس عليَّ غرض واضعه، ثم أعدت قراءَته أربعين مرة وصار لي محفوظًا، وأنا مع ذلك لا أفهمه وأَيست من نفسي وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه، وإذا أنه يومًا حضرت وقت العصر في سوق الوراقين وبيد دلَّال مجلد ينادي عليه، فعرضه عليَّ فرددته ردّ متبرِّم معتقد أن لا فائدة في هذا العلم، فقال لي: اشتر مني هذا الكتاب فإنه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج إلى ثمنه، فاشتريته فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب «ما بعد الطبيعة» فرجعت إلى بيتي وأسرعت إلى قراءَته فانفتح عليَّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه قد صار على ظهر القلب».

وقال واصفًا كيفيَّة انكبابه على الدرس: **«كنت أرجع بالليل إلى داري وأضع السراج بين يديَّ وأشتغل بالقراءَة والكتابة حتى إذا غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إليَّ قوتي، ومتى أخذني النوم**



أحلم بتلك المسائل بأعيانها، حتى إن كثيرًا منها انفتح عليَّ وجوهُها في المنام».

وقلما تجد أحدًا استفاد ممَّا قرأه إلَّا إذا قرأه بالتأني والتروّي وإمعان النظر، لذلك لا يُرجى من «**المقتطف**» كبير فائدة ولاسيما من مقالاته العلميَّة والفلسفيَّة إلَّا إذا أُمعن النظر فيها.

والأمر الثاني: الذي نطلبه من القراءِ الكرام هو أن يرغِّبوا أقرانهم وعشراءَهم في مطالعته، فإنه إذا كثر قراؤه سهل علينا أن نكثِّر موادَه ونزيده إتقانًا لما يقتضيه ذلك من زيادة النفقات. وقد عقدنا النيَّة على أن نزيده إتقانًا في السنة المقبلة، ونضيف إليه بابًا يصير به تاريخًا عامًّا لكل الحوادث الشهيرة التي تحدث في المسكونة. وهذا الجزءُ مثال لما سيكون عليه بعد الآن، فعسى أن يَرضى القرّاءُ الكرام بعملنا ويساعدونا في تعميم فوائده. والله نسأَل أن يعصم أقلامَنا ويرشدنا إلى ما به النفع في الحال والمال.






فضل القراءة[1]

إرنست لافيس

خطب «**إرنست لافيس**» عالم الفرنسيس ومؤرِّخهم في إحدى مدارس القرى في فرنسا خطبة على مَن أتمّوا دروسهم من أبناء الفلاحين قال: يا أولادي الأعزة! أخاف أن يكون بين من يغادرون منكم المدرسة الآن أناس يقولون في أنفسهم: «**لا دروس ولا فروض ولا دفاتر ولا كتب، خلصت من كل هذا**». فإلى أمثال هؤلاء أوجِّه كلامي، أريد أن أزيل عنهم ما انخدعوا به.

كلا أيها الأصحاب الصغار ليس الأمر كذلك ولم يقف عند هذا الحد، فإن زمان الدراسة قصير لا يتأتى تخريج رجل في خلاله، فالواجب أن تظلوا على طلب الاستفادة والتعلّم، ولكنكم ستقولون: إننا مضطرون أن نعمل لنتعلم كيف نعيش. أَعرف هذا، وثقوا بأني لا أرغب في أن يقضي جماع الفرنسيس حياتهم على نحو ما يقضيها أهل صناعتي في القراءة والكتابة جالسين على الكراسي. فسترون الآن بأني لا أطالبكم بما يشقّ عليكم القيام به مهما كان نوع الحرفة التي تحترفون بها.

يجب عليكم أن لا تتوقعوا من أساتذتكم كلَّ تهذيبكم، وأن تتعلموا أن تكونوا أساتذةَ أنفسكم، فأنتم لا تدركون كم يعمل المرء في إنهاض نفسه إذا أراد. وما من امرئٍ ينهض بكم أكثر من نهوضكم بأنفسكم. إني آمل بادئ بدء منكم أن تُبقوا كتبَكم المدرسيةِ عندكم، وربما لم تكن تروقكم مطالعتها

(١) مجلة المقتبس ١٣٣٠، المجلد السابع، ص ٧١٥-٧١٨. وصاحب الخطبة إرنست لافيس، مؤرخ فرنسي، كان استاذًا في السربون. حاصل على جائزة نوبل في الآداب (ت١٩٢٢).



واستظهارها واللعب يشغلكم، ولكنكم الآن لستم مضطرين إلى تلاوتها لاستظهارها، بل تَتْلونها متى راقكم وعلى النحو الذي يروقكم.

بعد أيام قليلة إذا أمطرت السماء ذات يوم أو كان اليوم يوما واحدًا تذكَّروا بأن الصفحات الفلانية من الكتاب الفلاني قد أعجبتكم فأعيدوا قراءتها، وإني لأَعجب إذا لم ترقكم أكثر من ذي قبل لأنكم تفهمونها أحسن لسببين:

الأول: لأنكم في سنّ النموّ العقلي.

والثاني: لأنكم تقرأون لا لتسمعون بل للتلذّذ.

في كل مديرية من مديرياتنا دروس ومحاضرات تُلقى على الكبار في الأعمار فاحضروها، وفي كل مدرسة مكتبة، فاستعيروا من كتبها، وابتاعوا كل مدة كتابًا، ولا تكثروا بل اكتفوا بثلاثة أو أربعة كتب في السنة، فالكتب اليوم رخيصة وبضعة فرنكات تكفي لأن تؤلفوا منها مكتبة حافلة بالجملة، وتصبحون مثالًا لأبناء الطبقة الوسطى ممن لا تحدثهم أنفسهم أن يبتاعوا كتابًا.

واعتنوا مهما كان نوع المسكن الذي تسكنون فيه أن تنصبوا لكم لوحَ خشبٍ تضعون عليه كتبكم، وغطوها لتأمن من الغبار واللوثات. ومن اللائق أن تكون الكتب مغطاة أحسن تغطية. وإذا تقدمتم قليلًا في السن عوّدوا أنفسكم تلاوة الجرائد فتجدون في «**جرائد الشعب**»[1] مادةً تُنيرون بها عقولَكم في الحوادث العظمى التي تجري في بلادكم وجميع بلاد العالم.

أنتم هنا من أبناء المزارعين وستكونون كذلك في مستقبلكم، والشتاء والليالي طويلة في المزرعة، فالأولاد يرقدون في فُرُشهم والحيوانات في حظائرها

(١) نعم، إن كان يقوده رجالاته، أما جرائد بيع الكلام و تغفيل العقول والأحلام فلا!

ولا شيء يشغلكم في الليل، فكيف بقضاء الوقت في النافع.

وقد كان الزارع في القديم يحيك كزوجته جوارب وغيرها وقد أهملت هذه العادة. وقيل لي: إن عادة قضاء السهرات والزيارات بين الجيران قد بطلت أيضًا.

دقّاق الساعة يروح ويجيء في السكون، فكأنه يعدُّ الحياةَ قطرةً قطرةً ويقول عند كل دقة: ها قد سقطت نقطة أخرى، والمرء من وراء ذلك يكتئب ويملّ. ولكلِّ حِرْفة ساعات مِن الملل تُشبه هذه.

افزعوا إذا انقطعتم عن العمل لتلاوة كتاب، واقرأوا بصوت جهوري، وكرِّروا ما تقرأونه؛ فقد كان خالي في هذه القرية عشّابًا فلّاحًا وهو يتلو قصص لافونتين آونةَ فراغه، لم يُبْقِ على غيرها من كتبه المدرسية، فكان يتلوها بتدبر في خلواته وجلواته بصوت عالٍ، وبأَدبها تأدَّب وبحكمتها قضى حياة طيبة أوقات الفراغ فدفعت عنه الملل.

أما أنتم فعصركم عصر لا يجوز فيه اللغو؛ فقد طويت المساوف[1] في الأرض، وكانت من قبل واسعة الأطراف، بحيث تكفي المرء الآن بضعةُ أسابيع ليطوفها، وبعض الثواني لنبعث بفكرنا بل بصوتنا إلى بُعْد ألوف من الكيلو مترات[2]. وقد قَرُبنا من السماء والنجوم قريبة من مجهر الراصد، والتبحّر بما فيها من الأودية والجبال المرسومة على خارطة كأَنها تشير وتنادي ببحّاثة يبحث فيها. وقرب ما بين القطبين الشمالي والجنوبي وأرباب الرحلات

---

(١) جمع مسافة.

(٢) هذا الكلام قبل أكثر من مئة عام، فماذا نقول الآن؟! فبمجرّد ضغطة على زرّ من أي مكان يمكنك أن توصل رسالتك ورأيك إلى جميع أنحاء العالم، فهل نستغلّها هذه التقانة لنشر الخير والحق والجمال؟!



اقتربوا منهما، والجبال قد خُرِقت وجُعِلت في بطونها الأنفاق، والطيارات تحوم من فوق قممها والثلوج تُرى عليها مِن فَرْقها إلى قدمها، والترع تحيط بالأرض وقد فتحت والصحاري بعدت إلا بالحديد الذي يخرقها، وهاهم الآن يخططون سكة حديدية بين المحيط الاتلانتيكي والبحر الهندي والبحر الرومي والبحر الجنوبي.

وممالك أوربا القديمة تنشئ ممالك في القارة السوداء، وسيكون من هذا الاختلاط أجناس جديد ة وأُمم لا يعلم مستقبلها كما لم يكن يعلم مستقبل أوربا منذ خمسة آلاف سنة حكماء مصر ولا بلاد كنعان. لم تكن أوربا في عصر من العصور أعمل منها الآن، أخذت شعوبُها تتحابّ، وما قط أحبّ أحدٌ وطنه حبَّه له الآن، والحروب وإن انتشبت فسيأتي يوم تقدِّس كلُّ الأمم معبد إلهاي أو قصر السلام الذي يؤمِّل دعاته أن تبث كلمتهم في الشعوب فتبطل الحروب.

الأمم تطمع في الحرية أكثر من قبل، وبهاءُ التيجان قد اصفرّ، وفي كل مكان انتشر الفكر الديمقراطي، واضطر الحكومات إلى العناية بكل ما يجعل الحياة موطّدةَ الأركان. والعلم لا يزال يرتقي في المكاتب والمعامل الكيماوية والصناعية، وفي كل يوم خبر عظيم.

أول أمس بلغنا أن يابانيًّا من تلامذة باستو اكتشف في معمل كيماوي في أميركا ميكروب الكَلَب، وأمس وصل علم الطيارات في الهواء إلى ما وصل، فماذا نعلم غدًا؟!

ولذا أوصيكم أن لا تبقوا منعزلين عن هذه الحركة وجاهلين بزمانكم وبلادكم، أي أناسًا بدون تاريخ ولا وطن. أنكم بذلك تنحطّون ولا يكون لكم ما تفاخرون به، فعليكم أن تتعلموا بكل الطرق: بإطالة المكث في المدرسة،

بالقراءة، بإطالة الرّوِيّة في تجارب الحياة. تقومون اليوم بشيء وغدًا بآخر، ولا تزالون على التدريج تزداد معلوماتكم وتُنْسَق في رؤُوسكم، وتنشأ مادتكم من الأفكار والعواطف، فتعرفون زمانكم وتحسنون كيف تعيشون.

وأختم كلامي بتوصيتكم باقتناء لوحٍ خشب تضعون عليه كتبكم، وأعِدُكم بأني أعطي لوحًا لمن يطلبه مني، وهو مدهون وملمّع أيضًا. اهـ.





فنّ القراءة (١)[1]

للأديب نصري عطا الله سوس

القراءة فنّ له قواعد وأصول. ومهما جدَّ القارئ واجتهد فلن يحصل على ثمرة مجهوده إلا إذا اتبع تلك القواعد والأصول اتباعًا دقيقًا. وكلامنا هذا لا ينصبّ على كلّ ما يُقرأ، بل على الأدب وحده باعتباره أثمن وأرفع أنواع القراءة؛ ولا على كلّ مَن يقرأ، بل على من يعتبر الكتاب صديقًا ومرشدًا ومعلمًا، ومن تضطرم في قلبه جذوة الشوق إلى المعرفة وفهم الحياة والتمتع بها إلى أقصى حدٍّ ممكن، واكتناه أسرارها.

ينبع الأدب من قدس أقداس النفس، يضمِّنه الأديب زبدة حياته، وصفوة اختياراته، وما يضطرم في قلبه من آلام وآمال، وما يصطرع في ذهنه من آراء عن حقيقة الحياة والموت، والقدر واللذة، والألم والطبيعة والخالق وغيرها من مشكلات الحياة التي لن تحل أبدًا.

والأديب هو ذلك الشخص الدقيق الإحساس الرقيق الشعور، الذي يتأثر بكل عوامل الحياة أتمّ التأثير وأقواه، والذي منحته الطبيعةُ[2] القدرةَ على التعبير عن آرائه وإحساساته التي دنت به إلى الكتابة.

والكتاب الجيّد من أثمن النعم التي تتيحها الحياة لمن حبَتْه الذوقَ والفهمَ، لأنه خلاصة حياة عظيمة غنية واسعة الآفاق بعيدة الغور؛ وهو ينبوع عذب،

(١) مجلة الرسالة، مجلد١١، العدد٢٨١ سنة ١٣٥٧هـ، ص ١٨٩٢-١٨٩٤ .
(٢) الطبيعة مخلوق لا تمنح ولا تمنع، فالصواب أن يقال: «منحه الله».

فيه رِيّ وفيه حياة لأثمن وأرفع ناحية من نواحي الطبيعة الإنسانية.

فالكتاب الجيّد يعمّق ويهذّب شعورنا، ويوسّع آفاق نفوسنا، ويقوّي قدرتنا على التفكير، ويفتح أعيننا على أنواعٍ من الجمال لم نكن نعرفها أو نحس بها.

والإنسانُ منهومٌ بحبّ الحياة، ودّ لو عاش أعمارًا مضاعفة وتذوّق كل ما تفيض به الحياة من لذات وآلام، ولكن العمر شحيح.

ومن جهة أخرى فالحياة بخيلة لا تتيح أو تسمح لكل إنسان أن يقلِّب أبصارَه بين آفاقها ويخوض بحارها باحثًا عن دررها. لم تتح الطبيعة هذا إلا لأشخاص معدودين جعلت كلَّ واحدٍ منهم أشبه بقيثارة تستنطقها كل أنغامها، وهم الأدباء والشعراء. وبقراءة ما خلّف هؤلاء نُشبع حبَّ الحياة في نفوسنا. فالكتب تضيف أعمارًا إلى أعمارنا، وهي سياحة في المكان والزمان. فالقارئ الجالس على كرسيّه في غرفة ضيقة يطوف بذهنه في فِجاج الأرض كلها، بل يرقى إلى السماء ويتملّـى أنوارَها، ويرتدّ إلى الماضي السحيق يحدِّق في كهوفه وظلماته، ويتقدم إلى المستقبل البعيد يتملى بهاءَه وجلاله. فإذا كان الأدب على هذه القيمة والأهمية فكيف نقرأه؟

١- **أول شروط القراءة هو**: حُسن اختيار الكتاب، فالعمر لا يتسع لقراءة كلّ ما كُتب في لغة واحدة -ناهيك بأدب أمّتين أو ثلاث- ولا كل ما كُتِب يستحق القراءة. والملاحظ أن الأدباء -وهم أحسن من يجيدون القراءة- لا يعيرون أهمية كبيرة لما يُكتَب في عصرهم، بل يوجهون كل اهتمامهم إلى الكتب التي أثبت الزمن قوّتَها وحيويتَها وقدرتَها على البقاء.

والزمن وحده هو الذي يحكم للكتاب أو عليه؛ والزمن وحده هو الذي

حفظ لنا هوميروس وأفلاطون وشكسبير وأضرابهم"[1]، لأن أدبهم يشتمل على عناصر الحياة الجوهرية التي لا حياة بدونها. وكم من أديبٍ عاش ومات في غمرة النسيان! وكم من أديب تألق ثم خبا! وكم من أديب يعيش على فضول الكتاب والقراء. علينا أن نهمل كل هؤلاء وأمثالهم وأن ننتخب ما نقرأ من بين أحسن ما كُتب. هذا إذا أردنا أن نحيا حياة ذات قيمة.

٢- **العامل الثاني هو**: إجادة القراءة. فهناك قرّاء يوجّهون كلّ همهم إلى الإحاطة (noisneherpmoc) وينسون الإجادة (noisneherppa)، والعنصران قلما يجتمعان إلا في القليل النادر. وقراءةُ كتابٍ واحد قراءةَ تفهّم وإمعان أجدى من قراءة عشرة كتب قراءة سطحية.

إن الكتاب -كما قلنا- هو زبدة حياة المؤلف، والقارئ النابه لا يتجه إلى مجرد القراءة العابرة، بل إلى تكوين صلات وعلاقات مع المؤلف. فلنجعل نُصب أعيننا صداقة المؤلف، يجب أن نفهم الكاتب كما نفهم صديقًا: نحيط بظروف حياته: آماله وآلامه، وأحلامه وهمومه، فَكِهًا أو وقورًا، متفائلًا أو متشائمًا، وهكذا... والخلاصة أنه يجب أن نفتح قلوبنا ليصبّ الكاتبُ فيها دمَه ونترك ذلك الدم يجري حارًّا في عروقنا"[2].

٣- **العامل الثالث هو**: نظام القراءة، فكثير من القرّاء يتبعون في مطالعاتهم سبيلًا ملتوية: كتاب من الشرق وآخر من الغرب؛ كتاب حديث وآخر

---

(١) من المعتاد عليه أن أهل كل صنعةٍ يبالغون في مدح صناعتهم، وكاتب المقال أديبٌ فلا غرابة أن يكيل المديح لأهل صناعته وكتبهم، وإلا فأين هو من نسخ كتب التفسير والحديث والفقه؛ فمن كتاب البخاري -مثلا- أكثر من ثلاثة آلاف نسخة في مكتبات العالم، فهل يدانيه كتاب؟! وقل مثل ذلك في صحيح مسلم وكتب السنن والتفاسير ومدوّنات الفقه على المذاهب الأربع.

(٢) حتى وإن انتقينا ما نقرأ فليس شأن عموم الكتب أن نتعامل معها بهذه الطريقة.

قديم؛ وهكذا دون ضابط ولا نظام. وهذا المسلك قلما يثمر، بل الواجب أن نختار كاتبًا معينًا ونقرأ كلّ ما كَتب[1]، لأنّ كتب الكاتب ما هي إلا جوانب متعددة لشخصية واحدة، ولا حق لنا أن نتحدث عن كاتب أو نصدر عنه حكمًا إلا إذا درسنا أدبه دراسة وافية كاملة.

ويجب أن نتبع في هذه الدراسة نظامًا خاصًّا، فيجب أن ندرس كتبه حسب ترتيب كتابتها، فلا نتناول إنتاجه في أوان شيخوخته، ثم في أوان شبابه الأول، ثم في أوان نضجه، بل يجب أن نبدأه بقراءة باكورة إنتاجه، ثم ما تبعه، ثم ثالث كتاب أخرجه، وهكذا... وبهذا فقط يتاح لنا أن نعرف تأثير الحياة والتجارب في تطور شخصية الكاتب: كيف شقَّ لنفسه طريقًا إلى فلسفته؟ وكيف خلص إلى آرائه عن مشكلات الكون؟ هل ابتلته الحياة بالفتور واليأس؟ هل شكَّ في عدالة الكون وعافَ الحياة؟ أم هل انجلت عن ناظريه عمايات الصبا وغواياته ودعا إلى الحياة الفاضلة مؤمنًا بالله مبررًا سلوكه مع الإنسان؟ هل بقي ساخرًا لا يعرف لنفسه فلسفة ولا يخلص إلى عقيدة حتى ذهب في طريق من ذهب؟ وما أثر ظروف حياته من فقر وغنى وصحة ومرض في نفسه؟ هل تغلّب عليها واحتفظ بنضارة قلبه وسلامة روحه؟ أم تركها تتسرّب إلى أدبه وتُكسبه لونَها الخاص؟ هل تأثر بروح عصره وجارى سلفه ومعاصريه أم أثر هو في روح العصر ووجّه الأدبَ في طرق جديدة وتناول بالنقد والتفنيد ما استهجنه ودعا إلى مُثُلٍ جديدة؟ وما أسباب كل هذه المسائل ودواعيها...؟

هذه كلها موضوعات يهتم بها القارئ الحصيف، ولكن لا يمكنه أن يكوّن

(١) ليس ذلك ضروريًّا إلا إذا أردنا أن ندرس شخصيّة هذا الكاتب دراسة شاملة مستوفاة، وكثير من المؤلفين له كتب كثيرة في فنون متعددة، وقد يصل بعض كتبه إلى مجلدات كثيرة، وهي متفاوتة أيضًا في القوة والمتانة وفي مناسبتها لقارئ دون آخر.



رأيًا عادلًا عنها إلا إذا قرأ بنظام. بهذا فقط يتأتّى لنا دراسة الحياة نفسها دراسة شاملة تفهمنا روحها وطبيعتها وفلسفتها. إن التفكير المجرد قلما يخلص بالمرء إلى نتائج سليمة، وعلماء النفس في الوقت الحاضر يدرسون مخلفات الأدباء بهذه الطريقة التي أسلفنا، ويكوِّنون نظرياتهم على هدى تلك الكتب، ذلك لأنها تنبع من صميم الحياة الواقعية، والحياة أعمق وأشمل من أن يحكم المرء عليها وليس وراءه إلا تجاربه؛ والفلسفة قلما تسعف الإنسان بعقيدة تغيّر حياتَه وتجمّلها، بل هي غالبًا تبتليه بضروب الشك في قيمة الحياة والحيرة في معناها. ولكن الأدب وحده ينبع من أعماق الحياة ويصور ما نعانيه ونحسّه من آلام وآمال، وهو الصورة الحقيقية الصادقة للحياة كما هي. بعكس الفلسفة فهي سياحات «فكرية» في عالم المجهول، وما من مذهب فلسفي إلا ومذهب آخر يناقضه، وكل له دعائمه وبراهينه؛ فلا عجب إذًا أن يترك علماء النفس كتب الفلسفة إلى الأدب يهتدون بهديه في تكوين نظرياتهم.

٤- **العامل الرابع هو:** المقارنة كيف يمكننا بعد ذلك أن نقدِّر الأديب تقديرًا صادقًا ونصدر حكمنا له أو عليه؟ لا يمكننا أن نفعل ذلك إلا إذا درسنا معاصريه وتبينا أين يتفق معهم وأين يختلف عنهم، لأن ظروف الحياة التي أثرت فيهم واحدة لأنهم أبناء عصر واحد، ولكنها أثرت فيهم تأثيرًا مختلفًا، وسبب هذا الاختلاف هو تباين طبائعهم ومشاربهم، وبالمقارنة والموازنة بين المعاصرين يتسنّى لنا أن نميّز الأديب الكبير من غيره. فدراسة معاصري شكسبير مثل بن جونسون ومارلو وبوينت وفلنشر، توضح لنا عظمته وجلاله. وإذا درسنا بوروبيد سوسوفو كاس ألقى كل منهما نورًا ساطعًا على شخصية الآخر. وكذلك إذا درسنا شارلس دكنز مع

وليم ثاكري، وتنسون مع بروننج، والأخطل وجرير والفرزدق، وبشار وأبو نُوَاس، وأبو تمام والبحتري، وهكذا...

٥- **بقى أن نشير إلى عنصر هام** من أهم العناصر التي تمكِّن القارئ من الاستفادة التامة مما يقرأ وهو الصبر والتجاوب مع الكاتب. وكم من قارئ يترك الكتاب بعد قراءة صفحة أو اثنتين لأن الكاتب يختلف عنه ميولا ومشربًا، وليس أخطر على القارئ من اقتصاره على قراءة ما يتفق ونظرته إلى الحياة.

ومن ملاحظات الكاتب الألماني أميل لدفيج أن القرّاء في العصر الحاضر يطالعون الكثير من القصص لا لغاية إلا تبرير آثامهم وزلاتهم بحجة أن أبطال القصة سلكوا نفس المسلك، وهذا جُبن وخَوَر. والواقع أن الكتاب الذي يهاجم أفكارنا وعقائدنا يفيدنا أكثر من غيره[1]. والمعركة بين الكتاب والقارئ ليست بأقل متعة أو جدوى من معركة شريفة بين شخصين إذ يجتهد كل في تبرير رأيه بإظهار براهينه وأدلته، ويحاول إفحام خصمه بتفنيد مستنداته، وفي ذلك ما فيه من إذكاء الفكر وشحذ الذهن ومعاودة النظر في الآراء والأفكار والمعتقدات، وتبديلها أو تعديلها على هدى نتيجة المعركة. فلم لا نسلك المسلك نفسه مع الكتب؟ ولعل هذا يجدي مع الكتب أكثر مما يجدي مع الأشخاص، لأن النفس الإنسانية مزيج من الخير والشر، وقد يعمد الانسان إلى هزيمة خصمه بأي ثمن -حتى التضحية بالحق- مدفوعًا بالأَثَـرة وحبّ النصر والفخر، ولكنه لا يسلك هذا السبيل مع الكتب خصوصًا إذا كان أصحابها قد ماتوا من زمن.

(١) لو حملنا هذه العبارة على محمل صحيح إنما يكون الأمر كذلك إذا كان القارئ لهذا النوع من الكتب ممن بلغ في العلم مبلغًا يعلم به الحقّ بدلائله، والشّبه ونَقْضَها، أما المبتدئ الشادي فإن اطلاعه على هذه الكتب من أضرّ شيء وأفسده عليه.



يقول الفيلسوف الإنكليزي «**باكون**»:

«لا تقرأ كي تناقض أو تفنّد، ولا كي تؤمن وتسلم جُزافًا، ولا كي تجد موضوعًا للحديث والمناقشة، بل كي تتبصر وتتأمل».

والتأمل ضربٌ من الصلاة... والصلاة جنة الروح!





فنّ القراءة (٢)[1]

للأستاذ إيليا حليم حنّا

القراءة فن له أصوله وقواعده كأيّ فنّ آخر، وهي أداة تثقيف واستزادة في كل الفنون المنوّعة الأخرى. وقد أصبح لها الآن عيادات ملحقة بالجامعات في أمريكا اسمها (**عيادات المطالعة**)[2] غرضها إصلاح عيوب القراءة والإرشاد إلى أصولها وقواعدها.

هذا بالإضافة إلى آلاف الكتب والمقالات التي عالجت هذا الفن، وما زالت تمدّنا بخبرة رجال التربية وعلم النفس وتجاريبهم في ضبط أصول هذا الموضوع الحيوي الذي لم يُكْتَب عنه في العربية إلا القليل من المقالات التي لا تتعدّى أصابع اليدين.

إننا ما زلنا لا نولي درس المطالعة العناية الكافية في مدارسنا. والذين يقومون بتدريس هذه المادة المهمة يرون أنها فرع تافه من فروع اللغة العربية، ولذا تراهم كثيرًا ما يشغلون وقتها بقواعد اللغة أو التطبيق، وذلك لأننا لا نعدّ مدرسَ اللغة الإعداد الكافي لتدريس هذه المادة المهمة، وإننا نجهل حتى الآن أن القراءة فن يجب أن يُدَرَّس على الأقل للذين نُعِدّهم للتدريس، فيعرف المعلم كيف يعلّم الطفل القراءة في مراحل نموه العقلي، ومتى يقوم بتعليم القراءة الجهرية والقراءة السرية، والقراءة البطيئة والقراءة السريعة، ويعرف أن الغرض من المطالعة تعويد الأطفال على حبِّ القراءة، وتربية مَلَكة الانتباه وسرعة الإدراك، وإنماء قوة التفكير والقوة المتخيلة.

(١) مجلة الرسالة، مجلد ٣٣، العدد ٨٤٣، سنة ١٣٦٨هـ، ص ١٣٦٤-١٣٦٧.
(٢) سيأتي مقال بهذا العنوان (عيادة المطالعة) للكاتب نفسه.

ويتكلم (**الدكتور نيل رايت**) رئيس قسم علم النفس بكلية (**جور دانهل**) عن أهمية درس المطالعة في حياة الطالب فيقول: «**تعليم الطفل القراءة مهمة ذات مسؤولية خطيرة تتطلب درجة عالية من المهارة في فن التدريس والثقافة**».

إننا لا نشترط في مدرِّس المطالعة إلا أن يكون ملمًّا بفنون اللغة، فيرهق التلاميذ الصغار بضبط أواخر الكلمات والكبار بالإعراب، فيرى كل منهما درس المطالعة عبئًا ثقيلًا لا لذة فيه، وهي الطريقة العتيقة المسؤولة عن تنفيرنا من القراءة وكراهيتنا لها أثناء مرحلتنا الدراسية وبعدها.

القراءة الناطقة:

القراءة قد تكون ناطقة ولكنها غير مسموعة، وإليك ما قالته الدكتورة (ستلا سنتر) رئيسة عيادة المطالعة بجامعة نيويورك: «**إذا أردت أن تعرف هل تقرأ بصوت أو لا فالمس شفتيك بخفّة وأنت تقرأ، فإذا كانتا لا تتحركان فالمس عنقك عند أوتار الصوت، فإن وجدتها تختلج قليلا فأنت تقرأ بصوت**».

ويلذّ الطفل حتى سن الثامنة أو التاسعة أن يقرأ قراءة منطوقة جهرية؛ لأنه يدرك أثناءها نبرات صوته ويتذوقها، ولذا يجب أن نستغل حبه هذا للقراءة.

وفي هذه القراءة المنطوقة يستعمل الطفل عضلات النطق ويحرك شفتيه ويتوقف لفهم المنطوق، وبوساطتها يكوِّن معجمه اللغوي. وهذه القراءة لازمة لتعليم الطفل في مراحل نموّه الأولى لإتقان النطق وإخراج الألفاظ من مخارجها وضبطها بالشكل وجودة الإلقاء، كما أنها تساعده في تلك المرحلة على محاولة فهم ما يقرأ، لأن استعمال حاستين في القراءة أقوى من استعمال حاسة واحدة؛ ففي القراءة الناطقة تصل رسالتين إلى الدماغ في وقت واحد فتصبح العبارة أقرب للفهم وأثبت في الذهن، أي أنها تترك أثرًا أعمق في طيات المخ.

وهي تخلق الجرأة في الطفل وتعوّده على الخطابة والتكلّم في الجماعات.

ولكن القراءة الصامتة تفضلها في هجاء الكلمات لأنه فيها يكون غير مقيّد بمستلزمات المطالعة الجهرية من جودة النطق وتنويع الصوت حسب المناسبات.

والتلميذ في المطالعة الجهرية قد يخشى النقد فيقرأ دون أن يعي ما يقرأه.

والقراءة الناطقة المسموعة فنٌّ لازم لبعض الناس؛ فهي وسيلة لإسماع الغير ما نقول بصوت عال واضح، ونبرات تتمثّل فيها إحساساتُنا وشعورنا. ويحتاج إليها الزعماء والخطباء والمحامون والمعلِّمون وأعضاء المجالس النيابية. ولكن هؤلاء لا يحتاجون إليها مطلقًا في قراءاتهم الخاصة.

إننا إذا أردنا الاطلاع على التقدم العلمي والثقافات المختلفة لنُجاري في التفكير العصرَ الذي نعيش فيه وننتفع بما نقرأ في حياتنا العلمية، فإننا نستعمل القراءة الصامتة، لأن القراءة الناطقة قراءة بطيئة لا تُستعمَل بعد التاسعة إلا فيما نرغب أن نُسمعه لغيرنا. والسبب في هذا البطء أنها تتقيد بالسرعة التي تنتج بها عضلاتُنا الصوتية الصوتَ. ومعدَّل القراءة بها ١٢٠ كلمة في الدقيقة للشخص العادي الكبير.

ولا يخفى أن القراءة الجهرية تُجهِد العضلات الصوتية، ويشعر بهذا كل من يستمرّ نصف ساعة يقرأ بصوت مرتفع، ويعجز الشخص عن القراءة بصوت عال مدةً تزيد على الساعة مع أنه يستطيع مواصلة القراءة الصامتة ساعات متوالية.

القراءة الصامتة:

القراءة الصامتة قراءة بصرية دون نطق، تتعطل فيها وظيفة الأوتار الصوتية والشّفاه، ومدارها البصر والتركيز الذهني. وهي قراءة سريعة لأننا لا نتقيَّد

فيها إلا بالسرعة التي يعي بها العقلُ معنى ما نقرأه. وقد دلت تجارب الدكتور استارك) على أن سرعة القراءة الصامتة للطفل الذي في الثامنة من عمره كلمة أو كلمتان في الثانية، أو ١٢٦ كلمة في الدقيقة، أي أنه يكون أسرع من الشخص الكبير الذي يقرأ قراءة منطوقة. والطفل الذي في الثالثة عشرة من عمره يقرأ قراءة صامتة بمعدّل أربع كلمات في الثانية أي ٢٤٠ كلمة في الدقيقة.

والقراءةُ الصامتة أكبر مُعين على فهم العبارات التي تُقرأ والإلمام السريع بما تنطوي عليه من الآراء، لأنه فيها ينطوي الإنسان على نفسه ويتجرّد عن عالمه الخارجي، ويكون مخُّه مصدرًا للنشاط لا يشغله سماع اللفظ ورنين الصوت ومحاولة ضبط الكلمات بالشكل، بل يشعر بحماسة ولذة لأن ما يقرأه يملأ عقلَه وشعورَه وحسَّه.

والقارئ الصامت يقتنص المعاني مِن أطراف الألفاظ، ويلتقطها من خلال السطور، ويقفز ببصره قفزًا فوق حروف الجر والعطف... والأفكار السهلة المعروفة لديه من قبل. وهو لا يرى الكلمات مركَّبة من حروف بل يراها صورًا يعرفها من مظهرها العام. وهو أثناء القراءة لا يحمل الكلمات إلى مخِّه بل يمرّ عليها بنظره فيقفز معناها إلى عقله.

وتتوقف سرعةُ استيعاب معاني الألفاظ على مبلغ تمكّن الشخص مِن لغته ومن الموضوع الذي يقرأه. وهو عندما يقرأ الجُمَل تتحوّل بسرعة إلى صور في عقله. فمثلًا عندما يقرأ هذه الجملة (أسرع الأسد خلف الرجل فأدركه وألقى به على الأرض وأخذ يمزقه بأنيابه ومخالبه) يراها بعين عقله صورًا لا ألفاظًا؛ يرى ثلاث صور متلاحقة تمرُّ مرورًا خاطفًا في مخيلته؛ يرى صورةَ الأسد يعدو مسرعًا وراء الرجل، ثم الأسد يلقي بالرجل على الأرض، ثم الأسد وقد جثم فوق الرجل يمزقه بأنيابه ومخالبه.

وعندما يجول القارئ الصامت بين بدائع الفن وآيات الأدب وحقائق العلم تنتقل نفسه لحظات إلى ما وراء عالم الحس، وينكبّ على الفكرة انكباب العالم في معمله على أدواته، يرصدُ الحقائقَ العارضة وتستيقظ فيه خصائص المخيّلة ووظائف التفكير، ونراه في نوبة توقُّد يحس بمعاني الكاتِب حسًّا ويشعر بالحياة والحرارة في أفكاره.

ويتعوَّد الطفل القراءة الصامتة إليه إن وضعنا بين يديه الكتب التي تُـمِدّه بغذاء عقلي لا يثقل عليه هضمَه، ويتمشَّى مع معجمه اللغوي في مرحلة النمو التي يمر بها، ويثير ميولَه ورغباته، ويُشبع غريزة حبّ الاستطلاع فيه. كما يجب أن نعطيه الكتب الصغيرة التي لا تستغرق وقتًا طويلًا في القراءة، حتى لا يسئمه طولُ الوقت وطول الموضوع فيلجأ إلى القراءة الجهرية ليتخلص مِن سأمه بسماع صوته الذي يساعده على التركيز الذهني الذي أوشك أن يفقده بطول مدة القراءة.

القراءة البطيئة:

(أ) تطوّر السرعة في القراءة:

يتدرّج الطفل في القراءة من بطيء إلى سريع ومن سريع إلى أسرع تبعًا لربط الكلمات بمدلولاتها؛ وحينئذ يتمكن من أن يقرأ الكلمة بدون أن يقطعها إلى حروف ويفهم معناها بدون تفكير. وتزداد سرعته في القراءة بوفرة محصوله اللغوي والذهني. ونحن الكبار تزداد سرعتنا أيضًا بنضوجنا الذهني، وسعة اطلاعنا، و وفرة معلوماتنا، وتمكّننا من اللغة ومفرداتها، ومدى اطلاعنا في الموضوع الذي نقرأه؛ لذا نرى المبتدئين في بعض العلوم لا يسرعون في قراءتها لأن عدم الإلمام بها يلزمهم التوقف.

(ب) متى يلزم البطء في القراءة:

لا تدل القراءة البطيئة على شيء إلا على قلة المحصول اللغوي للفرد وعدم نضوجه الذهني. والقارئ البطيء غالبًا ما يكون آليًا يحرِّك شفتيه عند القراءة أو سماعيًا يقرأ بصوت مسموع لتنتقل الألفاظ من أوتار صوته إلى أذنيه.

والقراءة البطيئة من أكبر عيوب فنّ القراءة، ولكنها تكون ضرورة لازمة في الحالات الآتية:

١- عند القراءة التي يُقْصَد بها التحليل والنقد.

٢- في الكتب العلمية الدقيقة ككتب الطبيعة والفلك وعلم النفس[١].

٣- في الكتب التي تُقرأ لإشباع لذة وجدانية كالشعر والنثر الفني والأدب الراقي، وكل ما يُقرأ للتذوّق.

والقارئ في هذه الحالات قد يقرأ بصوت مسموع بعض الفقرات أو الأبيات للاستمتاع بها، وقد يعيد قراءتها عدة مرات للتمعّن فيها أو استيعابها، ولكنه يقرأ كلّ ما يراه مفهومًا قراءة سريعة خاطفة ليوفر الوقت لكل ما هو معقَّد يحتاج إلى الروية في التفكير والاستيعاب.

(جـ) القارئ الضعيف (البطيء):

١- يقرأ كتابًا سهلًا بسرعة تتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ كلمة في الدقيقة.

٢- يقرأ كلمة ويقف عند كل لفظ تقريبًا لأنه ضيق المعرفة، كما أن محصوله اللغوي ضئيل.

(١) وكتب العلوم الشرعية، سواء أكانت من علوم المقاصد أو من علوم الآلة.

٣- يقرأ الكلمة أو الجملة مرات حتى يفهمها جيدًا باستجماع كل مدلولاتها في ذهنه.

٤- يقرأ بعينه وشفتيه ولسانه وحنجرته وأوتاره الصوتية.

لا يركز تفكيره تركيزًا كاملًا بل ينشغل كثيرًا بالعالم الخارجي من ضوضاء ومناظر وحوادث، لأنه يتلكّأ ويتباطأ في الوقوف عند كل كلمة.

غالبًا ما يترك ما يقرأه دون أن يتم قراءته، وأقصى ما يستطيع أن يقرأه في المرة الواحدة لا يزيد على اثنتي عشرة صفحة.

(د) القارئ العادي:

أما القارئ الوسط البالغ الذي يقرأ ٢٢٥ كلمة في الدقيقة في الكتب فهو قارئ عادي في حاجة أن يدرِّب نفسَه ليزيد سرعته، ومعدّل سرعة القارئ العادي في المدارس الثانوية ٣٠٠ كلمة في الدقيقة، وفي المدارس العليا ٣٥٠ كلمة في الدقيقة..

القراءة السريعة:

(أ) متى يمكننا القراءة بسرعة:

كلما زاد عدد المفردات التي يفهم الفرد معناها الحقيقي المقصود منها، ازدادت قدرته على التفكير والفهم بسرعة.

عندما يزيد النضوج الذهني للشخص بوفرة المعلومات وسعة الاطلاع، يكون أقْدَر على التفكير الهادئ السريع.

(ب) القارئ السريع:

١- يقرأ بسرعة لأنه يفكِّر بسرعة نتيجةً لمحصوله اللغوي الوافي ومعلوماته الواسعة وقوة بصره.

٢- يقرأ ٦٠٠ كلمة أو أكثر في الدقيقة في المجلات أو القصص ومن ٤٠٠ إلى ٥٠٠ كلمة في الأبحاث العلمية الدقيقة.

٣- يلتقط المعنى الكامل للجملة من نظرة واحدة ولا يقرأ كلمات منفردة، ويتخطّى الكلمات التي لا أهمية لها مثل حروف الجر وأدوات التعريف وحروف العطف والضمائر... الخ.

٤- يستطيع قراءة الكتاب في جلسة واحدة.

٥- يتجّه كلّ وعيه إلى ما يقرأ ولا يشغله عن ذلك مؤثر خارجي، بل يركز فهمه ويحصر ذهنه، ويشعر بلذة وحماسة تجعلانه يلتهم ما يقرأ التهامًا.

٦- يفهم ما يقرأ ويتمشّى تفكيره مع المؤلف ويوافقه أو يخالفه بسرعة.

٧- يستوعب السطر العادي المطبوع في حركتين أو ثلاث حركات للعين.

٨- يمكنه أن يقرأ كتابًا أسبوعيًا ما عدا ما يقرأ من الكتب التي تتعلق بمهنته، والمجلات الأسبوعية والشهرية والدورية والصحف اليومية والنشرات.

(جـ) القراءة السريعة ضرورة لازمة:

إنها ضرورة ماسَّة لجميع رجال الفكر والأعمال لمجاراة العصر في تفكيره، خاصة وأنّ الإنتاج العقلي لا يحدّه حصر، وأعمالنا وواجباتنا لا تتيح لنا وقتًا

كافيًا للقراءة. وهي أشدّ ما تكون لزومًا في الأحوال الآتية:

عندما يكون أمامك مراجع كثيرة للبحث عن نقطة معينة.

عند قراءة الصحف اليومية والمجلات، لأنك في مثل هذه القراءات تريد الفكرة العامة بالإضافة إلى كون الأسلوب الصحافي في غاية السهولة يفهم بدون بطء.

عند قراءة الأجزاء المعروفة لديك في كتاب جديد أو مقال.

عندما تريد اكتساب نظرة طائرة عن الموضوع.

عندما تكون راسخًا في الفن الذي تقرأه أو ملمًّا به ولست مبتدئًا فيه.

(د) اختبر سرعتك:

اختر صفحة من كتاب لم تكن قد قرأتها من قبل، بحيث لا تكون معقَّدة لغويًّا ولا تحوي أفكارًا بعيدة عن مجرى تفكيرك اليومي ومحصولك الثقافي، ثم اقرأها بسرعة كما تقرأ في مجلة للتسلية وليس للفحص والتدقيق، ثم وَقِّت ما تفعل بدقة، ثم اقسم عدد كلمات الصفحة على عدد الدقائق التي استغرقتها في قراءتها فتعرف سرعتك في الوقت الحاضر.

لو وجدْتَ أنك تقرأ ٣٠٠ كلمة في الدقيقة فأنت في حاجة إلى أن تزيد سرعتك. تمرّن لمدة شهر واختبر مقدار سرعتك يوميًا في مذكرتك فتجد أنك في نهاية الشهر تقرأ من ٤٠٠ إلى ٦٠٠ كلمة في الدقيقة، فإنه من الممكن أن تمرِّن نفسَك على السرعة حتى تقرأ صامتًا ثلاثة أو أربعة أضعاف ما تقرأ الآن.

(هـ) كيف تحسِّن القراءة:

دلّت التجاربُ على أن سرعة الفرد في القراءة تزداد بمقدار ٥٣٪ بالتمرين اليومي. فاحمل نفسك على أن تقرأ ربع ساعة يوميًا بأسرع ما يمكنك، حاصِرًا كلَّ ذهنك وانتباهك فيما تقرأ، ثم سجل عدد الكلمات التي أمكنك قراءتها كل يوم. قد تجد أول الأمر أن السرعة تحول بينك وبين الفهم، ولكن لا تلبث بعد التدريب اليومي أن تجد أنك تستوعب من المعاني أكثر فأكثر.

زد عدد الكلمات التي تقرأها كل يوم عن سابقه بالتدريج بحيث تفهم ما تقرأ. لا تقرأ كلمة كلمة واعتد قراءة الجُمَل. وإذا كنت ترجع نظرك بين الفينة والفينة إلى كلمة أو كلمتين تريد استيعاب المعنى فاقض على عادة الرجوع هذه واستمر حتى تنتهي من الجملة على الأقل. ويمكنك تجنب إعادة القراءة بأن تجعل بالك إلى فكرة الكاتب.

تعلَّم أن تَثِبَ وثبًا حكيما لتقبض على الفكرة الرئيسية، ولكن لا تتجاوز الكلام بل اعبره بأن تمرّ عليه بلَحْظِك مرًّا سريعًا والتقط الألفاظ الرئيسية.

بعد قراءتك التدريبية يوميًّا لخِّص الأفكار الرئيسية التي خرجْتَ بها من قراءتك السريعة ثم عُدْ وتمعَّن في قراءة نفس القطعة، ولخص في أثناء قراءتك هذه المعاني الرئيسية والفكرات الأساسية واعمل نسبة مئوية لمقدار استيعابك ما قرأت بسرعة.

وفِّق بين سرعتك والمادة التي تقرأها، فمثلًا في قراءة الصحف والمجلات يمكنك أن تمرّ مرًّا خاطفًا على الأخبار مستوعبًا معنى فقرة بأكملها في نظرة واحدة، وبعد ذلك تتمكّن من أن تمر مرًّا خاطفًا بارعًا على الصفحة كلها مختارًا

الفقرات والأفكار الدالة، وفي الإمكان أن تصل إلى سرعة من ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ كلمة في الدقيقة في القراءة الخاطفة في الموضوعات البسيطة التي لا تحتاج إلى دراسة عميقة وإمعان كالقراءة في الصحف اليومية.

ويدهشك أن توماس كارليل وثيودور روزفلت كان لهما قدرة عجيبة على قراءة صفحة بأكملها بنظرة واحدة. ويدهشك أكثر عندما تعرف أن السر في إنتاج البروفسور لاسكي الإنجليزي في عالم التأليف يرجع إلى قوته الغريبة وسرعته في القراءة التي لا تفوقها سرعة، إذ يستطيع أن يتصفح مجلدًا ضخمًا ويستوعب كل ما يستحق الاستيعاب بسرعة ٢٦٠ صفحة في الساعة.





فنّ القراءة (٣)[1]

للأستاذ حسن محمد حسين

لعلك أيها القارئ الكريم، مثلي ومثل بعض زملائي الأعزاء، تشعر أحيانًا بكثير من التبرُّم، لأنك لا تستطيع أن تحقق أمنيتك من تتبُّع كلّ ما يلذّ لك أن تتبَّعه من علمٍ جديد وفكرٍ حديث. فأنت تتوق إلى أن تضيف جديدًا إلى معلوماتك عن هذا أو ذاك، وتودّ لو أنك تمكَّنت من تسلية نفسك بقراءة هذا أو ذاك، ثم تراك مضطرًّا في سبيل عملك اليومي وتحت ضغط شؤون الحياة إلى عمل هذا أو ذاك. وكل هذا أحيانًا متضارب متعارض، أو على الأقل يضيق عنه الوقت فتضيق بذلك النفس. بل إن التبرُّم لينقلب أحيانًا إلى شعور بالحسرة على الوقت المضيَّع هباءً رغم أنفك.

والعلم -في رأيي- كالماء المثلّج اللذيذ في يوم صيف مرتفع الحرارة شديد الجفاف، كلما شربت منه تلذذت، ولكن ازددت عطشًا وطلبت المزيد. فإذا عكفتَ تعبُّ الماء عبًّا دون حساب أو تبصّر بالعواقب، فإنك لا شك هالك، أو على الأقل مصاب بما تكره أن يصيبك. كذلك العلم قد يصاب الإنسان بِشَرَهٍ إليه. إن لم يحسن تنظيمه ويمسك بزمام نفسه انقلب ما حسبه خيرًا عليه وبالًا.

وإني أعيذك أيها القارئ الكريم من هذا الشَّرَه أن يحيل عقلك إلى دُكان عطار من الطراز العتيق، يحوي جميع أنواع العطارة ولكنها مكدّسة بغير نظام، فلا يستطيع العطّار نفسه الوصول إلى ما يريد إلا بشقِّ الأنفس. وأخشى ما يُخْشَى من هذه الفوضى وعدم الترتيب أن يختلط الملح بالسكر، أو يختلط الصمغ باللبان، والشبة بالسكر النبات، فيفسد كل شيء وتنقلب المنفعة ضررًا.

---

(١) مجلة الثقافة، العدد ٥٤٦، سنة ١٣٦٨هـ، ص ٢٩-٣١.

لكني لا أظنك تنكر أن هذا العطار لو شاء أن ينسق محتويات دكانه لاستطاع ذلك بقليل من العناء، فيضع كل ما عنده، بل وأكثر منه، في نفس الحيّز بل أقل، بحيث يبدو كلّ شيء مرتبًا نظيفًا، ويجعل من السهل له ولغيره أن يصل إلى ما يريد دون أن يقلب كل شيء رأسًا على عقب.

فالـمهمّ في القراءة إذًا الترتيب والتنسيق مع تحاشي الحشر والتكديس. أما إذا قصدت من القراءة أن تحفظ كلّ ما في بطون الكتب حفظًا جيدًا عن ظهر قلب، فما زدت على أن أتعبتَ نفسَك ولم تفد بذلك أحدًا. فاقرأ إذًا ما شئت ما دمت تعرف جيدًا أين تضعه من سابق علمك وكيف تستفيد منه.

أي أنك إذا قرأت فعليك أن تهضم عقليًّا ما قرأتَ ثم تقوم بتمثيله عقليًّا أيضًا، بحيث يندمج مع معلوماتك الأخرى مكوِّنًا وحدة متماسكة منسجمة، وإياك أن تسمح للمعلومات بالاستقرار في ذهنك أجزاء متناثرة مستقلة متنافرة. فالقارئ قد يُفني عمرَه في القراءة لتحصيل العلم دون أن يحصل علمًا بالمعنى الحقيقي، بل يظل ما بقي من أنصاف المتعلمين، ومثل هذا قد يكون ضرره أكثر من نفعه.

ومهما حدّدتْ موضوعَ قراءتك وضيَّقت مجال اطلاعك فإنك لابدّ واجد صعوبات شديدة في إشباع رغباتك. فهناك عدد من الكتب لا ينتهي عن أيّ موضوع تحبّ، وهناك المجلات، وهناك المراجع والموسوعات، وهناك الجرائد والنشرات. هناك مما يُقرأ الشيء الكثير، ولكن أين الوقت الكافي لكل ذلك؟

في إمكانك أن تساعد نفسك في هذا إذا تعلمتَ كيف تقرأ بسرعة. فإنك قد تكون قارئًا بطيئًا برغم تمتعك بقسط وافر من الثقافة. فقد أثبتت التجارب في أمريكا أن الكثير من خريجي الجامعات الأذكياء لا تزيد سرعتهم في القراءة على سرعة طالب ثانوي متوسط، وهذا البطء في القراءة يعوقهم بلا شك عن



الوصول إلى مستوى عال كان يصبح في متناولهم بسهولة لولا هذا البطء. لذلك يقوم الآن كثير من الجامعات الأمريكية وما في مستواها من المعاهد العالية بتعليم الطلبة القراءة السريعة. وقد وجد مثلًا جامعة تتخصص في إعداد رجال الطيران في «ألا باما» أنه في الإمكان الارتفاع بسرعة القراءة من ٢٥٠ كلمة في الدقيقة إلى ٦٠٠ كلمة في الدقيقة، مع الاحتفاظ بنفس القدرة على إدراك المعاني، أي أن سرعة القراءة تتضاعف أكثر من مرتين. ويمكنك أن تتصور مدى ما يجنيه الشخص من فائدة من جراء هذا التقدم.

وقد يتوهّم البعضُ أن القارئ البطيء هو القارئ المدقق، والقارئ السريع هو المستهتر، ولكن هذا خلاف الواقع. بل إنه قد وجد أن القارئ السريع يفهم دائمًا مما يقرأه أكثر مما يفهم القارئ البطيء. فالبطء في القراءة لا يرجع دائمًا إلى التدقيق في الفهم، وإنما سببه عادة عدم التفرقة بين أسلوب القراءة الصامتة والقراءة العادية. فتجد القارئ البطيء في قراءته الصامتة يحرِّك شفتيه، أو أن مخارج الحروف في حنجرته تهتزّ كما لو كان يقرأ بصوت مسموع، أو أنه على الأقل ترتسم في ذهنه صور صوتية لما يقرأ.

ومن أهم أسباب البطء في القراءة عدم تركيز الانتباه على المقروء بحيث يضطر القارئ إلى العودة لما قرأه كي يستوعبه قبل الانتقال إلى غيره؛ وينشأ هذا عادة عما يسمى «بالسَّرَحان». فإذا كنت مثلًا تقرأ الجملة الآتية:

«ضعف الانتباه يؤدي إلى البطء في القراءة، مع ضرورة إعادة القراءة كثيرًا لضمان حُسْن فهم المادة».

في القراءة العادية تحصل فترات تثبيت على كل كلمة واحدة أو بضع كلمات

مرتبطة يدركها البصر ثم يترجمها العقل ويفهمها. فإذا كنت قارئًا بطيئًا حدث هذا التثبيت على كل كلمة، فيحدث في هذه الجملة ست عشرة مرة، وفي نهايتها يضطر العقل إلى فهم الكلمات الست عشرة دفعة واحدة؛ وهذا قدر كبير يؤدي إلى التشتت. في حين أن القارئ السريع لا يقف عند كلِّ كلمة فيحدث عنده عددٌ أقلّ من عمليات التثبيت، ويكون الفهم بالنسبة إليه أسهل. هذا إذا لم يضطر القارئ إلى إعادة قراءة بعض الأجزاء في كلتا الحالتين.

أما إذا أعاد قراءة بعض الأجزاء، وهو ما يحدث كثيرًا، فإن قراءته تكون شبيهة بما يأتي: «**ضعف الانتباه يؤدي إلى ضعف الانتباه يؤدي إلى البطء في القراءة، مع ضرورة ضرورة إعادة القراءة كثيرًا لضمان حسن فهم حسن فهم المادة**».

وفي هذه الحالة يزيد عدد عمليات التثبيت كثيرًا وتزداد عملية الفهم صعوبة وتضيع اللذة من القراءة.

وتقوم الآن معاهد خاصة في أمريكا بتعليم من يشاء القراءة السريعة، وتعليم هذه القراءة السريعة ليس بالعملية الهينة، فالعلاج الذي يفيد شخصًا قد لا ينفع في علاج شخص آخر. ويبدأ المعهد أولًا بمحاولة تشخيص أسباب بطء الشخص في القراءة بوسائل علمية عملية، ثم يأخذ في علاج المتعلم حسب نتيجة هذا التشخيص. وتتناول عملية التعلم عادة تقوية المتعلم في مهارة أو أكثر من المهارات الآتية:

التعرف على الكلمات وتحليلها، تنمية المفردات التي يحفظها ومعانيها، إدراك المعاني، والسرعة.

ولتنمية الإدراك يجب على المتعلم أن يتبع الخطوات الآتية:

١- يبحث عن النقط الأساسية في الموضوع.

٢- يقوم بتعيين التفاصيل الهامة.

٣- يتتبع المقدمات محاولًا استخلاص النتائج منها.

والقراءة الصامتة على أنواع بحسب الغرض منها؛ فقد يكون المقصود منها مجرد تصفح واطلاع، أو شغل وقت فراغ، أو استخلاص الفكرة الأساسية في الموضوع، أو دراسة الموضوع دراسة عميقة. وكل نوع من هذه الأنواع يتطلب سرعة معينة. ولكن على كل حال متى تمكّن الإنسانُ من التغلب على العوائق التي تبطئ قراءته تمكّنَ من زيادة سرعته في جميع أنواع القراءة السابقة، أي أن القارئ السريع يتمتع بسرعة مرنة تتغير وَفْقًا للغرض الذي يبغيه من وراء قراءته، أما القارئ البطيء فيقرأ كل شيء بنفس السرعة لأنه عبدٌ للعادة.





فنّ القراءة (٤)[1]

للأستاذ بهيج عثمان

قليل أولئك القراء الذين يجلسون أمام ما يقرأون جلسة صادقة وصفاء ليمتعوا أنفسهم بالقراءة متعة حلوة ويحسوا بتجاوب لذيذ مع تلك السطور التي تنوب عن كاتبها في هذه العزلة، فقد تعوّد القارئ أن يؤدي واجبًا، وهذا الواجب هو اجتياز المسافة بين دفتي الكتاب بأقصر ما يمكن من وقت، واستيعاب المعاني الظاهرة والأفكار العامة بدون عناء أو تأمل. وهل القراءة إلا فن جميل يحتاج إلى ما تحتاجه الفنون الجميلة من مران وتذوق؟ وهل القراءة إلا فن جميل، لا يتذوق جماله ولا يعجب بروعته، إلا من راض نفسه على تذوق ذلك الجمال وهذّب شعوره للانسجام الوثيق مع ذلك الفن؟ وما الفرق بين من يتغنى بالموسيقى وبين من يتمتع بالكتاب؟ هذا لا يستطيع الفهم، ولا يدرك الإحساس بجمال ما يقرأ إلا بعد أن يتعود القراءة.. القراءة الهادئة اللذيذة الفنية.. وليس قراءة الكتاب الذي تفرضه المدرسة على الطالب وترغمه على الامتحان في صفحاته إذا ما جاء وقت الامتحان..

وذلك لا يردد الموسيقى ولا يستعذبها إلا إذا فهم معانيها التي تحمل، وألحانها التي منها تتكوّن، وإلا إذا أخذ نفسه على هذا النحو من اللذة الفنية. وبالرغم من أن الأمية التي تنتشر في بلادنا العربية تمنع فريقًا كبيرًا عن الاستفادة بالقراءة فإنه ما يزال أمام الذين يستطيعون القراءة موانع تدفعهم عنها:

فمنهم من لا يكاد يحس بحرارة النجاح التي تبثها في نفسه تلك الشهادة

(١) مجلة الأديب، سنة ١٩٤٣م، عدد رقم ١، ص١٧-١٨.



التي نالها حتى يطوي كتابه ويودعه وداعًا ليس بعده لقاء.. ومنهم من استهواه نوع خاص من القراءة الرخيصة فيتسلى بأخبار الصحف اليومية، وصور المجلات. فإذا أراد أن يشغل وقت فراغه بالقراءة فليس يختار إلا الروايات التي تثير نزعات دنيا في الإنسان، أو التي تصور مفاجآت بوليسية. ومنهم من رأى في »الراديو« خير خلف لتلك الصحيفة لما فيه من جدة وتنوع وتشويق.

ثم فريق ضئيل لا يزال يؤثر القراءة الهادئة على كل منافساتها أو ــ قل يشاركها مع منافساتها. فهل يستفيد هذا النفر القليل من قراءتهم وهل يعالجون فن القراءة ويفهمونه كما ينبغي أن يعالج ويُفهم؟

أول ما يعترض القارئ العربي هو اختيار ما يقرأ. فمما لا شك فيه أن عمر الإنسان أقصر من أن يسمح لصاحبه بقراءة الروائع من المؤلفات. وإذًا لابدّ من الانتخاب وهنا مجال واسع أمام القارئ . ففي لغات العالم الأخرى يستطيع القارئ أن يستهدي بأقوال النقاد وتوجيه المفكرين، أما قارئ العربية فعليه أن يقوم بنفسه بمهمة الناقد، لأن الناقد الهادي الذي يستطيع القارئ أن يعتمد عليه لم يوجد بعد... فإلى أن يوجد نقاد يقدمون للقراء في كل أسبوع خير ما أنتجه الفكر، لابد للقارئ أن يجازف فيستعين باسم الكاتب الذي يزين صفحات الكتاب الأولى أو يستعين بجمال العنوان وإغرائه.. فأما أن يخيب الاسم المشهور أمله بعد ذلك أولا، وأما أن يجد ما يدل عليه العنوان الضخم أو لا يجد. وهكذا فرض على القارئ أن يضيع وقته بقراءة كل ما يقع بين يديه من كتب لفلان المؤلف، أو في ذلك الموضوع المرغوب، سواء كان قيمًا أو غير قيم.. وهذا حسن إذا حاول القارئ أن يحصر نفسه في طبقة معينة من المؤلفين، أو في موضوعات خاصة تعنيه. فإن في هذه المحاولة نوعًا من الضمان وإن لم يكن ضمانًا مؤكدًا. ولكنني ما سمعت شخصًا يطلب من مكتبة آخر كتابًا، أي

كتاب لا يحدد ولا يخصص، إلا جزعت، كأن هذا القارئ ليس لقراءته هدف، إنما هي قراءة وحسب... أليست تقتل الوقت أو تملأ فراغه؟

وبعد أن يقطع القارئ طور اختيار ما يقرأ، عليه أن يهيئ الجوّ المناسب مع الموضوع الذي يتناوله بالقراءة. فمن الموضوعات الخفيفة المرحة التي لا تلذ قراءتها ولا تستساغ إلا في أجواء مرحة منطلقة، ومن الموضوعات ما هو متزمت يحتاج إلى تأمل فإذا لم يعد له جو يساعده على التأمل والتفكير فإن القارئ يظلم موضوع قراءته ويضيع وقته معًا. وأن من الموضوعات ما يقرأ وأنت راكب في القطار تمتع نظرك في مقطع من الكتاب تارة وتمتع نظرك في مقطع من الأرض من نافذة القطار تارة ثانية. ومنها ما يقرأ وأنت مستلق في الفراش أو على مقعد وثير، ومنها ما يطالع في الحديقة بين الأشجار الوارفة حيث هدوء الطبيعة وجمالها، ومنها ما لا يهضم إلا في مكتبك بين الكتب المكدسة وبعد إغلاق باب الغرفة.

وطبيعي أن من لا يهتم بأدوات القراءة الخارجية هذه، إنما يساعد على خنق الموضوع الذي يقرأ ويبتعد عن الاستمتاع به استمتاعًا كاملًا. وأنت تستطيع أن تتصور إلى أي مدى يبلغ الاضطراب بالقارئ إذا طالع كتابًا يبعث اللذة والبهجة في بيئة طرأ عليها طارئ محزن كئيب، أو إذا طالع كتابًا دقيقًا وهو في نزهة يقوم بها في القطار.

وقد يوجد قارئ لا يتأثر بالجو الذي حوله إذا ما فتح كتابًا، ويستطيع أن يملك نفسه عن أن تتصل بمن يجاوره من الناس، فيغيب عن عالمه، وينسجم مع ما يقرأ انسجامًا كاملًا، فيقرأ كتابًا تدور موضوعاته عما وراء الطبيعة في مقهى يشتد فيه الصخب والضجيج، ولكن هذا ذو مزاج خاص نادر.

فإذا ما انتهى القارئ من تهيئة الأدوات الخارجية وفتح كتابه فإما أن يسرع في قراءته أسرع متسابق، وإما أن يتمهل ويبطئ. والإسراع نوع خطير من الكسل

الذي يعتري القارئ لأنه يظن أن أمامه هدفًا واحدًا هو الوصول إلى آخر كلمة من كلمات الكتاب. فيقلب الصفحات سريعًا ويتناول خطوط الأفكار الكبرى بدون ترتيب أو من نظام.

ويبدو لي أن أكثر أمراض القراءة إنما تنشأ عن الرغبة في السـرعة. فمن السرعة ينشأ مرض كثرة القراءة والكثرة المضطربة التي لا يقيدها نظام، بل قراءة كيفما اتفق، قراءة فلسفية مرة، وقراءة تسلية مرة، وقراءة في علم الاقتصاد مرة ثالثة، يقرأها القارئ كلها ولكنه لا يخرج منها بشيء ناضج.

وهكذا يتولد عند البعض شره في القراءة لعله أشد خطرًا من عدم القراءة. وهذا الشَّرَه يصبح مهنة لا يستطيع صاحبها أن ينظمها ويستغلها استغلالًا مفيدًا، بل التهام سريع لما تقدمه إليه مائدة الكتاب، فلا يستطيع له هضمًا ولا تمثلًا.

وهنا ينشأ مرض آخر هو الغاء عقل القارئ عند القراءة، فإن السـرعة والشره يتطلبان من العقل أن يسرع، ولكن العقل لا يستطيع أن يرافق هذه السرعة دائمًا، بل طبيعته الهدوء والاتزان والحكمة، فيضطر إلى أن يختلف عن متابعة القارئ المسرع الجامح، وإذا القارئ بعد قليل يقرأ بدون تفكير، وإذا هو آلة صماء لا تدرك ما تفعل ولا تفهم ما تنقل، وإذا المعاني تخطر عليه خطورًا رفيقًا كما تخطر الأحلام على النائم لا تلبث أن تزول وتتلاشى. وفي هذا الكسل العقلي والاستسلام الغامض شيء من الراحة يطمئن بها الإنسان ويميل إليها.

وما الكتاب إلا صديق يجلس إليه القارئ يبغي عنده المتعة الفنية، والترف العقلي، فيأخذ منه القارئ عندما يريد، ويرد إليه ما لا يقبل منه، على نحو من الفهم الصادق والمناقشة البريئة، ويصحبه ساعة أو ساعات صحبة لا تكلف فيها ولا ملل منها رفع فيها ستار المجاملة، وتناجي القارئ مع كتابه مناجاة

صافية مفيدة؛ فلا الكتاب يفرض آراءه على القارئ فرضًا، ولا القارئ مرغم على قبول شيء مما يعرض عليه فإذا ما انتهى القارئ من صحبته فعليه أن لا ينسى هذه الساعات وما أثارت فيه من أفكار. صحيح أنه أغلق الكتاب ولكن آثار القراءة يجب أن يمتد وقتها إلى أقصى ما يمكن، فتحيا فيه ويحيا فيها فترة من الزمن: يناقشها في هدوء ويفيد منها ما يفيد، وتثير في نفسه حياة فكرية نشيطة. وإن الكتاب الذي لا يدع قارئه يفكر فيه بعد فراقه، ليس بكتاب قيم، كما أن الصديق الذي يُنسى بسهولة ليس صديقًا. وإن الكتاب الذي لا يسمح لقارئه أن يولد أفكارًا من فكرته وآراء من رأيه لا يفيد قارئه فائدة واسعة. والقارئ أخيرًا يستطيع أن يستغل هذا القسم الذي يتركه له الكتاب فيولد من أفكار الكتاب ويخترع. وما أكثر ما تهدي لمحة عابرة في كتاب إلى إنتاج تحفة خالدة. فإذا كان القارئ في قراءته فاعلًا لا منفعلًا ومؤثرًا مع تأثره فقد تخلص من تقييد العقل وتوسيع خزانة الذاكرة ومن تكديس لآراء الآخرين فيها. والقارئ أمام كتاب قديم شخصية جديدة أشد تعقدًا، فعندما يقرأ القارئ شعرًا قديمًا عليه أن يقرأ بعقله الحديث الذي يحتفظ بكل الخصائص التي أتيحت له من ثقافات مختلفة، ولكن على أن لا ينسى أن ينتقل بكل هذه الخصائص إلى البيئة القديمة التي عاش فيها ذلك الشاعر وأن يعيش معه، وبذلك يشعر بلذة مزدوجة. وإذا فلابد لقارئ الأثر القديم من شيئين يبدو عليهما التناقض، أن يقرأ بعقله الحديث لا بعقل القدماء، على ألّا يكلف القدماء بما لا يسمح لهم عصرهم أن يتحملوه.

فهذه القدرة على أن ننتقل ونبقى، وأن نعيش في الزمن القديم ونحن نعيش في العصر الحديث وأن نمحو الزمن ونلغي الفروق مع احتفاظنا بها، كل ذلك شرط أساسي في قراءتنا للآداب القديمة ينقص الكثيرين من الذين يقرأون هذه الآداب ويحاولون عرضها. وأحسن من يعرض الأدب اليوناني والأدب



اللاتيني من المحدَثين هم أولئك الذين يقرأون بعقولهم المعاصرة ويجتهدون في نفس الوقت أن يحيطوا أنفسهم بالبيئة التي عاش خلالها الشاعر اليوناني أو اللاتيني، فهم قد أحدثوا لأنفسهم لذة القارئ الحديث بأن نقلوا القديم إليهم، وأحدثوا لأنفسهم لذة القديم لأنهم وضعوا أنفسهم في بيئات غريبة عنهم.

إن القراءة عنصر مهم من العناصر التي تؤلف حياة المثقف اليوم وإن الإفادة منها -مهما كان نوع هذه الإفادة- تقوم على تنظيمها تنظيمًا يختلف حسب شخصية القارئ وطبيعة الموضوع.



كيف تقرأ كتابا؟[1]

للأستاذ إيليا حليم حنّا

كيف أقرأ كتابًا؟!

نعم كيف تقرأ كتابًا تنغمس فيه فيستغرقك ويستولي عليك فتعيش في عالم كاتبه وتحيط نفسك بجوِّه، تشعر بإحساساته وشعوره وخوالجه التي هي عُصارة عقله وقلبه، وتحلِّق بروحك وفكرك في عالم عُلْوي ساحر متجرِّدًا عن الزمن والمكان وكل ما يدور في محيطك المادي، سائرًا في دروب التفكير العميق، منسجمًا مع الكاتب تحادثه وتناقشه بصوت عقلك.

في هذا العالم الفكري المهيمن الأخّاذ تستشف ما وراء الكلمات والسطور، وترى غير ما يراه الناس، وتحكم غير حكمهم وتحسّ إحساسًا خاصًا بك، وتصل إلى نتائج قد تكون مكملة لما قصد إليه الكاتب، وهذه ناحية من نواحي الإبداع والتوليد لا تُظهرها إلا الحميةُ الذهنية والتركيز الفكري والاندماج في جوّ الكاتب.

هذه هي القراءة التي أعنيها، والتي توسّع الفكر وتصقل المَلَكات وتغني النفوس وتظهر ما تنطوي عليه من قُوى الخلق والابتكار الكامنة، وتخلق من الفرد العادي شخصًا ممتازًا متفوقًا يمثل أرقى طبقات الذهن البشري.

والنقاط الآتية هي دستور القارئ الذي يرى في القراءة نموَّه الفكري وزاده النفسي، ويسعى إليها يقضي فيها أهنأ أوقاته وأحبها إلى قلبه كلما أراد الاستزادة والاستلهام.

---

(١) مجلة الرسالة، مجلد ٣٢، العدد ٨٢٨ سنة ١٣٦٨هـ، ص ٨٦٥-٨٦٦.

١- لا تستفيد مما تقرأ إن لم يكن لك غرضٌ من قراءتك؛ فلا تدع الكتاب يكون لذة عابرة، بل اخزن من ثروته وأضف جديدًا إلى معلوماتك وحياتك.

٢- يجب أن تقرن القراءة بالتفكير التمثيلي) الذي يرمي فيه القارئ إلى فهم ما يقرأ وحِذْقه وهضمه، ولا يتأتّى هذا إلا بالتجرد عن العالم الخارجي، وحصر كلّ انتباهه وتفكيره وانطوائه على نفسه وهو يقرأ صامتًا.

٣- اقرأ بسرعة متفاوتة، فالعسير من الأفكار والآراء يحتاج إلى تأنٍّ حتى تنفذ إليه. والسهل اقرأه بأقصى سرعتك في القراءة.

٤- إلى جانب الكتاب الذي تقرأه جهِّز كراسة تُقيِّد فيها سوانحك الطارئة كما هي بغير تهذيب أو صقل حتى تفرغ من قراءة الكتاب، فتعود إليها تصوغها صوغًا مناسبًا. ولكن لا تدع هذه الخاطرة تفلت وتطير.

٥- إذا أتتك فكرة تجلو غوامض موضوع سبق قراءته فبادر بكتابتها حتى لا تضيع في ضباب الذاكرة المطبق، لئلا تفرّ وينقطع أثرها.

٦- إذا عرضت لك فكرة وسلكت بك طريقًا جديدة من التفكير، فدع عقلك يسبح طليقًا مسجلًا تفكيرك حتى تفرغ منه ثم تعود إلى الكتاب.

٧- اكتب ملاحظاتك واستنتاجاتك التي تعنّ لك على هامش الكتاب ــ إذا كان ملكك ــ وضع الخطوط تحت الأفكار والقطع التي ترغب في تذكرها بصفة خاصة.

٨- لاحظ كيف تسير النقاط الفرعية ومقدار انسجامها مع الغرض الرئيسي، ثم سجل الفكرة الرئيسية في كل جزء مما تقرأ وضع علامةَ استفهام أمام النقاط التي صعب عليك فهمها أو التي تريد أن تتوسع فيها، واكتب

ملخَّص الفكرة التي استخلصتها من الجزء الذي تقرأه، وسجِّل كلّ ما يخطر ببالك من الأسئلة والأفكار.

سجِّل الآراء الجديدة التي هي نِتاج تفكيرك وضع تحتها الحرف الأول من اسمك أو علامة تدل على أنها لك.

٩- لا تنتقل من فكرة إلى فكرة دون غاية ودون رابطة معقولة بين الأفكار حتى تشعر بلذة التفكير وتنساق مع الكتاب في عالم فكري جميل وقد حصرت كلَّ انتباهك وتأملك دون أن تشعر.

١٠- لا تأخذ كل ما تقرأ قضيةً مسلّمة، بل زِنْ أهم الآراء وانقدها نقدًا بريئًا، ثم احكم على كل منها حكمًا مجردًا عن الأهواء على ضوء معلوماتك السابقة، واربط الماضي بالحديث فيتحول إلى فكرة جديدة مستقلة بعد أن تُعمِل فيها تفاعلاتك الذهنية وتجاربك. قف عند هذه الفكرة متسائلا (ماذا عسانا أن نستخلص منها لأنفسنا وللإنسانية من فائدة عملية؟).

١١- بعد الفراغ من قراءة الكتاب حاول في اليوم التالي أن تكتب بإيجاز رأيك عنه وما يعن لك من آراء حرة في الموضوع، وسيدهشك أنك تكتب عنه أكثر مما قرأت فيه؛ وتنساب الأفكار على القرطاس سلسلة طيِّعَة لا التواءَ ولا صعوبةَ في تسلسلها، كأنك تنقل من صفحة أمامك بل أسهل؛ ذلك لأن العقل الباطن يشتغل بالموضوع في الوقت الذي يبدو لنا فيه أن عقلنا الظاهر في دعة وخمول.

١٢- إذا كان موضوع الكتاب قد أثار اهتمامك فاجعل هذا حافزًا للاستزادة من نفس الموضوع في كتب أخرى.

١٣- إذا كنت لا تعرف شيئًا عن الكتاب الذي تريد قراءته فاقرأه بسرعة



لتكون لك فكرة إجمالية عنه، ثم بعد ذلك انتقل إلى دراسة التفاصيل فيه إن أعجبك موضوعُه.

١٤- ليكن رائدك «**اقرأ، وفكر، واعمل**» فإن أجمل صيغ الحياة وأجلها وأنفعها هي التي يمتزج فيها نبل المثل الأعلى وجدوى العمل المحكم، والعمل بغير ثقافة حركة بصيرة[1]، والثقافة بدون عمل بصيرة مشلولة.



(١) أي: عمياء.

القراءة المفيدة[1]

قيل: أرسل أحدُ الخلفاءِ يطلبُ أحدَ العلماء ليسامره. فلما جاءَه الرسول وَجده جالسًا وحواليه الكتب يقرأ فيها، فقال له: إن أمير المؤمنين يستدعيك. فقال قل له: عندي قوم من الحكماء أحادثهم. فإذا فرغتُ منهم حضرت. فلما عاد الخادم إلى الخليفة وأفضى إليه بذلك قال: ويحكُ من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده. قال والله يا أمير المؤمنين ما كان عنده أحد. قال: فأحْضِرْه الساعة كيف كان. فلما حضر العالم قال له الخليفة: مَن هؤلاءِ الحكماء الذين كانوا عندك فأنشد:

لنا جلساءٌ لا نملُّ حديثهم
ألبّاءُ مأمونون غيبًا ومشهدا

يفيدوننا مِن علمهم علمَ ما مضى
ورأيًا وتأديبًا ومجدًا وسؤددا

فإن قلتَ: أموات فلم تعدُ أمرَهم
وإن قلتَ: أحياء فلست مفنَّدا

وقال شيشرون الخطيب الروماني المفوّه: الكتب غذاءُ الشباب وبهجة الشيخوخة. هي الزينة في أيام الإقبال والرجاءُ والملجأُ في الساعات السود. رفاق لا تملّهم في الليل أو في أثناءِ السفر أو في الريف.

---

(١) مجلة المقتطف، الجزء الأول، سنة ١٩٣٢م-١٣٥١هـ، ص ٥٢٠-٥٢٦. لعل كاتب المقال أحد محرري المقتطف ولم يذكر اسمه.

وقال شكسبير على لسان أحد أبطاله: هذه مكتبتي وأيـّة دوقية[1] تساويها.

وقال أولفر غولد سمث: إذا قرأت كتابًا نفيسًا للمرة الأولى شعرت أنني كسبت صديقًا جديدًا. فإذا قرأتهُ ثانية شعرت بأني أقابل صديقًا قديمًا.

وقال بيتشز الواعظ الأميركي الشهير: إن مكتبة تتعهدها كلَّ سنة بإضافة شيءٍ إليها ناحية نبيلة من حياة كل إنسان. ويجب على الإنسان أن يقتني كتبًا. فالمكتبة الخاصة ليست من كماليات الحياة بل من الضرورات التي لا يستغني عنها.

وقال جون رسكن: الحياة قصيرة وساعاتها الهادئة نادرة فلا تضيعها سدًى في قراءَة كتاب سخيف. أما الكتب النفيسة فيجب أن تكون في كل بلاد متمدينة في متناوَل كلّ إنسان.

ولو شئت لمضيت أعدد أقوال العلماءِ والحكماءِ والشعراءِ والفلاسفة في مقام الكتاب من الحضارة بوجهٍ عام ومن الثقافة الفردية بوجهٍ خاص، وما في القراءَة من النشوة دونها نشوة الراح، والفائدة التي لا توزن بالدرهم والدينار.

والواقع أن القراءَة سياحة العقل بين آثار الفكر الإنساني. فهي آنًا في رياض من هذه الآثار فواحة العبير ـ هنا الأشعار الغنائية والقصص التي لا تبلي جدّتها السنون. وهي آنـًا بين أمجادٍ كأنها أطلال الحضارات القديمة فخمة كالكرنك راسخة كالأهرام ـ هنا الملاحم الشعرية وكتب التاريخ والحكمة والعلم يلتمس فيها الإنسان أشعة النور من خلال الظلمات المطبقة على الذهن الإنساني. وهي آنًا آخر في معترك العزائم والإرادات والمطامع والعواطف – هنا سير العظام والعظيمات من الناس وما تخلل سطور حياتهم من دموع وآهات وطمع

(١) الدوقية: إقطاع أو ولاية يسمّى حاكمها دوقًا أو دوقة.

وطموح وحبٍّ وانتقام. فأنت في كل هذا كأن مواكب الإنسانية تمرُّ أمامك وقد لبسَتْ من النثر والشعر حلّة الجمال الأسنى.

وحبُّ القراءَة ثمرة الثقافة الصحيحة بل هي مقياسها الذي لا يخطئُ. وقد قال أحد الحكماءِ: قل لي ما تقرأ من الكتب أقلْ لك مَنْ أنت.

لماذا تقرأ؟

قد يقرأ الإنسان ليوسّع نطاق خبرتهِ. فالحياة قصيرة محدودة، وفي قرارة النفس نزوع إلى التملّص من قيودها وحدودها، فنعمد إلى ميادين الخيال ومروج الفكر، نجول في جنباتها لنجني منها أدب الذاهبين ومعرفتهم وحكمتهم.

ثم إن بعض الناس يقرأُ مدفوعًا بحبّ الاستطلاع، فلا يقرّ له قرارٌ إلاّ باستكشاف الأسرار واستجلاءِ الخفايا.

ومنهم من يقرأُ رواية أو قصيدة أو رسالة لأنه في أثناء قراءَتها يُسبغ عليها لونًا من شعورهِ فيحسُّ أن ثمّة صلة بين صور هذه الرواية وصور خياله واعية أو غير واعية، فكأنهُ عائش في عالمها، وهذه ناحية من نواحي ملَكَة الإبداع أو التوليد، لأن الذي يطالع على هذه الطريقة يحسُّ في الغالب إحساسًا خاصًّا به، أو يصل إلى نتائج غير النتائج التي يقصد إليها الكاتب، فكأن القراءَةَ حافزٌ نفسيّ يحفزه إلى الكشف عن الأحاسيس والآراءِ الكامنة فيه كالجمر تحت الرماد.

وبعضهم يقرأ ليفرّ من عالم الحقيقة إلى عالم الخيال، وغيره على الضدّ من ذلك يقرأ ليرهف إحساسهُ بما يقع حولهُ ويصقلُ حكمهُ في حوادث يومه.

وثمة طائفة تقرأُ لأن الحركة والمغامرة والإقدام والنضال في ما تطالعه

تستهويها. تقابلها طائفة أخرى تنأى في مطالعتها عن ميادين العمل العنيف، إلى سهول التأمل الهادئ الرصين.

وقد يُؤخذ قارئٌ مّا بسيَر الرجال، ويفتتنُ آخر بسيرة الحياة خلال العصور من النطفة الأولى إلى يومنا هذا. وقد يُعنى أحدُهم بصور العاطفة ولا يهتم غيره إلّا بارتقاءِ الفكر. وقد يرى أحد القراءِ أن عصـرًا ما، ليس إلا مسرحًا للرجال والنساء الذين ظهروا فيه وبرزوا، وأنهم في نظرهِ جلُّ ما يستحق العناية والدرس. ولكن رجلًا آخر قد يرى أن الشخصيات الكبيرة ليست إلّا طريقة من الطرق التي يُفصِح بها عصرٌ من العصور عن ذات نفسه. وقد يرغب الواحد في الأسلوب البليغ الجَزْل، ويتجاهله آخر، لأن عنايته موجَّهة إلى تبيُّن البراعة في تحليل الأشخاص وترتيب الوقائع وسرد الأدلة مثلًا.

هذه طائفة قليلة من البواعث التي تبعثنا على المطالعة. وهي تختلف باختلاف الناس، بل هي تختلف في الإنسان الواحد باختلاف ساعات النهار والحالة العقلية والنفسية السائدة في ساعة ما، والباعث السائد في ساعة القراءة هو الذي يعيّن موضوعها، وإليه يكون مردّ الاختيار.

الغرض من اقتناء الكتب:

والواقع أننا نقتني الكتب لغرضٍ من ثلاثة أغراضٍ بوجهٍ عام؛ يقتنيها بعضُ الناس للزينة. فهم يعلمون قيمة العلم، وأن العلماء والحكماء لهم صدر النادي من أقدم العصور إلى يومنا هذا، وأن المؤلفات النفيسة تأتي بعد الكتب المنزّلة في اعتبار الناس واحترامهم، فيرون أن اقتناء الكتب من أدوات الزينة والمباهاة التي يزدان بها البيت، ويغالي بعضُهم في ذلك فيحتم أن تجلَّد تجليدًا فاخرًا، لتسبغ هي والستائر الحريرية الكثيفة والصحاف الخزفية القديمة والأدوات

الفضية الثمينة، على البيت صفةَ المحْتِد النبيل والحاضر الكريم.

وقد قرأت أن أحد أثرياء الأميركيين بنى قصرًا فخمًا، والقصر لا يكون كاملًا في نظره من دون غرفة خاصة بالكتب. فأمر المهندسَ بتوجيه العناية الخاصة إلى تلك الغرفة، فلما تمَّ بناء القصر، أخذ الثريُّ يجمع من الكتب النفيسة ما كان أجودها طبعًا وأغلاها ورقًا وأفخرها تجليدًا، وجاء بيتَه، وأمر برصف الكتب على الرفوف، فوجد أن عرض الكتب أكبر من عمق الرفوف فتظهر فيها الكتب بارزة كأنها قذى في العين. فعرض عليه المهندس أن يزيد عمق الرفوف ولو تأخر إعداد هذه الغرفة، فأبى الثريُّ وقال: إنه يفضّل أن تُقطع مقدار بوصة من الكتب وتُترَك الرفوف كما هي!!

قد تكون هذه القصة نادرة «**كاريكاتورية**» موضوعة لبيان التطرّف والمغالاة في اقتناءِ الكتب للزينة فقط. وأن الثريَّ لم يحفل بالكتب وإنما حفل بمنظرها وجلودها الفاخرة المذهّبة، ولكنني أؤكد لكم أنني إذا دخلت دارًا مهما تكن صغيرة، ولم أجد فيها كتابًا أو مجلة، تدلُّ على حياة النفس في تلك الدار= شعرتُ أنني في أرضٍ قفرٍ خال من الخضرة والماء، فأسأل نفسي كيف يقضي أصحاب هذا البيت ساعة من ساعات الفراغ؟!

ومع ذلك أفضّل بيتًا خاليًا من الكتب على بيت يباهي بها ولا يقرأها. فأصحاب البيت الأول على الأقل يتصفون بالصراحة بأن القراءة لا تهمهم، وأما أصحاب البيت الثاني فيرغبون في المباهاة بصفة لا يتصفون بها، وهو من عيوب الخلق.

ويقتنيها بعضهم أداةً للعمل كالمشرط للجرَّاح، والزاوية للمهندس. ويغلب أن تكون الكتب التي من هذا القبيل كتبًا فنية. فالطبيب يجب أن يقتني الكتب

الطبية الحديثة والمجلات الطبية السائرة في الفرع الذي انقطع له، وعليه أن يدمن مطالعتها ليجاري سير الاكتشاف والاستنباط. وهذه المطالعة أمانة في عنقه للجمهور الذي يعهد إليه في كشف غمّة المرض بالتشخيص الصحيح والعلاج الموفق. فالكتب الطبية أداة من أدوات عمله كالمشرط والمجهر. وعلى المحامي أن يقتني كتب القانون والتاريخ وعلم النفس التي يرجع إليها ويستشهد بأقوال شرّاحها، للوقوف على حكمة السابقين قضاةً وأساتذةً ومحامين. ولكن الكتب التي من هذا القبيل لا تَخْلَق الرجل، وإنما هي تُمكّنه من العمل.

ولا بدَّ لكل بيت من أن يضمَّ بين جدرانه كتبًا من هذا القبيل، ويجب علينا أن نعلّم أبناءَنا تناولها. ولا بدَّ لكل بيت من أن يحتوي على مصوّر جغرافي ومعجم صغير ودائرة معارف مبسّطة وكتب في الأوليات والمبادئ. فإذا كان حديث اليوم[1] يدور حول حرب في البلقان جلس الأولاد إلى والدهم فيفتح أمامهم المصوّر الجغرافيَّ، ويريهم أين تقع الأستانة وبلاد اليونان وبلاد البلغار ومضايق الدردنيل. وإذا عرضت للولد القارئ في صحيفة لفظة لم يدرك معناها هداه والده، أو هدته والدته، إلى المعجم ليبحث عن معناها فيه، وإذا جاءَ ذكر رجل من مشهوري رجال السياسة أو العلم، فتح دائرة المعارف أو ما يقابلها للبحث عن عصر الرجل وآثاره.

إن مطالعة نصف ساعة بهذه الطريقة، تعلِّم الولدَ من الجغرافية أو اللغة أو التاريخ أكثر مما يتعلمه خلال أيام دراسة الكتب المعيّنة له في المدرسة، فهو ينفر من هذه لأنها تمثّل في نظره ما يجب عليه لا ما يتوق إليه ويرغب فيه من تلقاءِ نفسه.

---

(١) في عام ١٣٥١ هـ.

وقد تقتني الكتب، كما تمكّن أواصر الصداقة مع الصحاب، ورحم الله شوقي حيث قال:

أنــا مــن بــدلّ بالكــتب الصحابــا
لــم أجـــد لي وافــيًا إلاّ الكــتابا

أتيحت لي زيارة إحدى كليّات البنات في أميركا سنة ١٩٢٤ وقد خصصت الكلية أحدَ مبانيها دارًا للكتب. وفي هذه الدار غرفتان استرعتا نظري، الأولى عاطلة من الزينة، نظمت في باحتها رفوف الكتب والموائد والكراسي من الخشب الصلب. وفيها تجد الطالبات مُكبّات على البحث والموازنة والتحقيق، يعددن فيها دروسهنّ أو امتحاناتهن أو رسائلهن. وكل العيون متجهات إلى العمل الخاص الذي يشغل الذهنَ، فلا تكاد ترتفع عينان لرؤية الداخل. وثمّة غرفةٌ أخرى فيها الطنافس الوثيرة، ورفوف الكتب قريبة المنال، وفي الموقد نار مشبوبة. هنا تجلس الفتيات وقد مضت فترة العمل والبحث، ينصتن إلى أصواتٍ تتحدث معهن من خلال العصور في صفحات الكتب الخالدة. الكتب في الغرفة الأولى تستعمل أدوات للعمل. وأما الكتب في الغرفة الثانية فتتخذ أصحابًا، يرشدون بحكمتهم، ويؤدّبون بآدابهم، ويحفزون الملكات بعرض صور الإنسانية في أحوالها المتباينة، وهي تسير، آنًا تقدم وآنًا تتعثر، في طريقها نحو المثل الأعلى.

وهنيئًا للبيت الذي لا يخلو من كتبٍ هذه صفتُها! يؤوب الرجلُ من

عمله الجاهد، أو تخلد السيدةُ إلى راحتها بعد جهد النهار المضني، فيجلس في كرسي مريح وإلى يسارهِ مصباح متألق، فيختار من الكتب، الصديق الذي يلائم حالته النفسية الخاصة. فقد يختار «**ديوان المتنبي**» فيقرأ فيه قصيدة من قصائده الخالدات، يرى في خلالها عِثْيَر[1] الحرب وبريق الأسنة وصليل السيوف ويسمع عبارات الفخر. أو مجلدًا من «**الأغاني**» في طبعتها الجديدة التي أخرجتها دار الكتب، فيطالع من نوادر الأقدمين وآدابهم ما يروق النفس ويبهج الخاطر. أو قد يختار قطعة من كارليل[2] فيرتدّ بها على أجنحة الخيال إلى عهد الثورة الفرنسية، أو صفحة من برستد[3] ينفذ منها إلى أمجاد المماليك المصرية القديمة، أو رواية لأناتول فرانس[4] فيجد فيها الحكمة النادرة والنقد اللاذع في نثر مشعشع كالخمور المعتّقة، أو نسخة من كتاب علميّ بليغ فيتعرَّف إلى أسرار الأحياء وطبائعها، أو يرود مع أحد أساطين العلم رحاب الفضاء.

كيف تقرأ:

النظام هو أساس القراءة المفيدة. والقراءة المفيدة ركناها الاستزادة أو الاستلهام. فإذا كنتَ ترمي إلى الاستزادة أي إلى توسيع نطاق معارفك بالاطلاع على مباحث الكتّاب والعلماء والفلاسفة= وجب أن تجري على الطريقة الآتية:

خذ كتابًا يروقك. واقرأه على مهلٍ. وبعد أن تأتي على فصل فيه، أو على فقرةٍ من فصل، أطبق كتابك، وأغمض عينيك، وحاول أن تلخّص في ذهنك

---

(١) أي: غباره.
(٢) توماس كارليل، كاتب إسكتلندي ناقد ومؤرخ (ت ١٨٨١).
(٣) برستد: عالم آثار أمريكي (ت ١٩٣٥) من أشهر المهتمين بالآثار المصرية، وله فيها اكتشافات كثيرة، من أهم كتبه في ذلك «فجر الضمير».
(٤) روائيّ فرنسي، حائز على جائز نوبل في الآداب (ت ١٩٢٤).

ما فهمتَه من معنى ما قرأت. وإذا كان لك غرض خاص من المطالعة، فيجب أن تدوّن ما فهمت. ثم سِرْ في مطالعة الكتاب على هذا النمط. ثم أترك الكتاب سنة أو سنتين أو عشر سنوات ـ فأعمار الكتب الخالدة لا تقاس بالسنين ـ وأعد الكَرّة عليه= تجد أن فهمك له قد تحوّل بتحول نظرك إلى الحياة وتفتح مغاليق ذهنك واتساع نطاق خبرتك. فإذا فعلتَ ذلك، فقد أضفتَ إلى حكمتك حكمةَ رجل آخر.

وأذكرُ أن حكيمًا أميركيًّا قال: إنه أخذ أحد مؤلفات كارليل وهو في العشرين فقرأه وخرج منه صفر اليدين، فأعاد الكَرّةَ عليه وهو في الخامسة والثلاثين، فبداله فيه من المعاني ما أسبغ على الكتاب حُلّة الإعظام. وكان وهو يروي لي هذه الحكاية، في الخامسة والخمسين من العمر، يقضي ساعات الفراغ في مطالعة ذلك الكتاب للمرة الثالثة. وقد قرأت بعض الفصول في كتاب أمرسن «**ممثلو الرجال**» عشر مرات على الأقل. وكلما شعرت بتعب أو مرارة أو خيبة أعود إليه فأقرأ رسالته في «**منافع الرجال العظام**».

أما القراءَة للاستلهام فسِرُّها أن عبارة واحدة في فصل لكاتب، أو صورة فردة أو رأيًا سيق في معرض الكلام، قد يحفزك إلى التفكير والتصوّر، فتصرف النظر عما تقرأ حينًا لكي تسترسل مع صور خيالك أو أفكارك المتداعية. وفي هذه الحال يصح أن تدوّن على هامش الكتاب هذه الصور أو الأفكار الشاردة، لأن اقتناصها بعد مرورها في تيار الوعي متعذّر.

واحذر تعوُّد قراءَة النُتَف. فقد شاعت في هذا العصر، عصر السرعة[1]، صحف ومجلّات تجمع من العلم والأدب والتاريخ نتفًا يتسلى بها القراءُ،

(١) هذا قبل خمس وثمانين سنة، فماذا نقول الآن عن عصرنا؟! لم تعد عبارة «عصر السرعة» كافية ولا صادقة في وصفه في ظل هذه الثورة العلمية والتكنلوجية!

فيكتفون بها عن قراءَة المقالات الوافية والكتب الممتعة التي تقتضي مطالعتها حصر الفكر وكدَّ الذهن. أما القارئ للنتَف فيتسلى بها مهلة ما يقرأها ثم ينساها في الغالب، وهو يظن أنه وعى العلمَ والأدب والتاريخ باطلاعه عليها، وإذا واظب على ذلك ضعفت ذاكرتُه وخلطت بين الحقائق خلطًا شائنًا.

وقد كنت أودُّ أن أتناول موضوع ماذا تقرأ، ولكنني أخشى الإطالة فينالكم السأم، فتوصدون دوني آلاتكم اللاقطة وأبقى هنا وحدي «**أتكلم في الهواءِ**» أو كما يقول المثل العربي «**أصرخ في وادٍ**».

على أن المسألة التي لا أستطيع التجاوز عنها هي النقص المعيب في المكتبة العربية، وفي استطاعتنا تلافيه. ذلك أن علماءَ الغرب وكبار كُتَّابه لا يأنفون من الاشتراك مع أصحاب بيوت النشر في وضع سلاسل من الكتب التي تتناول أصول المعرفة البشرية بأسلوب قريب التناول، فتخرجها بيوت النشر في طبعات رخيصة الثمن يسهل على كل راغب اقتناؤها والتمتع بما تحتوي عليه من درر العرفان.

وإذا أشرتُ في بدءِ كلمتي إلى المصوّر الجغرافي ودائرة المعارف وما إليها من الكتب التي يجب أن تكون في كل بيت؛ فعلتُ وفي النفس حسرة؛ لأن بعضَ ما أريده من هذه الكتب غير متاح لنا الآن بالشكل الذي يُغري بالقراءَة ويحبّبها إلى الصغار.

ولكنّ الأمرَ ليس متعذرًا. فعندنا في نواحي العلم والأدب والفلسفة رجال يستطيعون أن يضعوا ـ تأليفًا واقتباسًا وترجمة ـ هذه الكتب على ما نريدها.

ولكن الناشرين ومن يتصل بهم من الكتَّاب يَشْكُون عدم الإقبال على ما

يُنشر من الكتب، إقبالًا يغري الناشرَ والمؤلفَ على السواءِ بالإقدام على التوسع في التأليف والنشر، وهي شكوى صحيحة إلى حدٍّ بعيد[1]. إذ يندر بين الكتب العربية كتابٌ يطبع منه ثلاثة آلاف نسخة وتنفد في سنة أو سنتين أو ثلاث سنوات[2] -أستثني من ذلك الكتب المدرسية فإن الطلاَّب يبتاعونها للدراسة- ومع ذلك فالأقوام الناطقة باللغة العربية يبلغون سبعين مليونًا وتسري في عروق أبنائهم ثورة تدفعهم إلى طلب العلم والاستزادة من الحكمة، والمدارس تخرِّج كلَّ سنة ألوفًا من الطلّاب المطلعين على أصول العلم والتاريخ والأدب. فلماذا لا يقرأون؟ ولست أطلق على هذا الحكم عليهم جميعًا فإنني أعرف أن طائفة ممتازة منهم تقرأ وتحسن اختيار الكتب والصحف التي تقرأها. ولكن جلّهم لا يقرأ ما يجب عليه أن يقرأ. وإلاّ لما كنّا نشهد هذا الركود في ميدان التأليف. والواقع أن المسألة خطيرة كلَّ الخطورة، تتصل بالأركان التي يقوم عليها التعليم وهل يؤتي الثمار أو لا يؤتيها؟

ولا يخفى إن الشيء الثمين الأساسي في العلم والتعليم إنما هو الانطباع بروح العلم وأسلوبه. وتشرُّب الطالب حبّ البحث عن الحقائق والاستزادة منها. وحفز ملكات العقل إلى النشاط الذي يمكّن الرجلَ من تكوين رأي مستقبل أو إبداع شيء جديد. وواضح إن الاكتفاء بالكتب الدراسية ليس السبيل القويم المفضي إلى هذه الغاية النبيلة، التي لا مندوحة عنها في كل تعليم وارتقاءٍ صحيح، وأرى أن وزارة معارفنا الجليلة تملك علاج هذا الضعف في ناحية من أهم نواحيه.

---

(١) لا ريب أن الناشرين لم يتوسّلوا بكل ما يصح التوسل به لطبع الكتب النفيسة وترويجها، وهذا يستحق بحثًا على حِدَة. [المجلة].

(٢) تكررت هذه الشكوى على لسان عدد من الكتّاب والناشرين، وهي باقية إلى اليوم، وقد تجاوز عدد الناطقين بالعربية خمسمائة مليون!!

وقد أنعمتُ النظرَ في طريقة هذا العلاج، فرأيت أن أقترح على وزارتنا الجليلة تعيين لجنة من بعض رجال الوزارة وبعض الأدباء والنقاد المعروفين بحصافة الرأي واستقلاله لاختيار اثني عشر كتابًا كل سنة -أو أكثر أو أقل- من نفيس المطبوعات العربية الحديثة تفرض مطالعة ستة منها على مدرّسي المدارس بإشراف الناظر، والستة الأخرى تفرض مطالعتها على طلبة الفرق المتقدمة في المدارس الثانوية في فرقها بإشراف المدرسين.

وليس هذا العمل بدعةً. فقد جرت جامعات الغرب على تكوين حلقات للطلاّب والأساتذة، تجتمع اجتماعات دورية. وهي من الوسائل الفعالة لأحْكام الصِّلَة بين المدرّسين وتيارات الفكر الحديث من ناحية ولتثبيت عادة القراءة المفيدة في الموضوعات الخارجة عن نظام الدراسة في نفوس الطلاّب. ولنفرض أن الحلقة ستة من المدرسين -أو الطلاّب- تجتمع مرةً في الأسبوع أو مرة في الأسبوعين. فيفرض على أحد أعضائها أن يقرأ كتابًا معينًا فيقرأه ويلخصه في رسالة يتلوها في الاجتماع المعيّن له. وفي الاجتماع التالي يفعل مدرس آخر ما فعله زميله ولكن في كتاب آخر. وبعد تلاوة الرسالة يتناقش الحاضرون في موضوعاتها ومعانيها ويتحاورون. وهذه الطريقة تحْـفِز ملكات التفكير والنقد العلمي المنزّه إلى النشاط.

ثم هي تغنيهم عن وجوب الإنفاق منفردين على بعض الكتب التي يرغبون في مطالعتها، ولكن غلاء ثمنها يحول دون اقتنائهم لها. فإذا تمكنت وزارة المعارف الجليلة من وضع نظام مبني على مثل هذه المبادئ فإنها تؤدي لنشر الثقافة الصحيحة خدمة جُلّـى.

فأولا: تُحكِم الصلة بين المدرسين ومؤلفي اللغة العربية المعاصرين.

وثانيًا: تخلق في نفوس الطلاّب رغبة في القراءة المفيدة التي لا معنى للثقافة من دونها.

وثالثًا: يشجع المؤلفون والمترجمون على إتقان ما يكتبون وينشرون، إذ يعرفون أن كتبهم قد تختار للمطالعة والمناقشة في الاجتماعات المدرسية المذكورة.

رابعًا: تخلق لنا جيلًا يتوق إلى القراءة المفيدة ويُقْبِل عليها. وهذا من أقوى البواعث للمفكر على التفكير، وللمؤلف على التأليف، وللناشر على النشر.

وكل هذا لا يكلف الوزارة أكثر من ثلاثة آلاف جنيه في السنة أو أربعة آلاف على الأكثر. لأنه إذا افترضنا أنها قررت أن تبتاع من كل كتاب تختاره اللجنة ألفي نسخة ـ لتوزعها على المدارس ـ بلغ عدد النسخ التي تبتاعها ٢٤ ألف نسخة متوسط ثمن النسخة منها قد لا يزيد على ١٥ غرشًا، فالمبلغ لا يزيد على ٣٦٠٠ جنيه. وهي تنفق أضعاف هذا المبلغ في إعانة المعاهد والمدارس والجمعيات، فأحْرِ بها أن تنفقه في سبيل تشجيع التأليف وتربية ملَكَة القراءة المفيدة في نفوس الشبّان والشابّات.






كتب أعجبتني[1]

للعلامة المحقق عبدالعزيز الميمني الراجكوتي

لما جئتُ لأول مرة من «كاتهياوار» إلى مدينة «دهلي» بدأت أدرس الصرف والنحو على الطريقة التقليدية، وكنت لا أعرف الفارسية والأردية، وقد ضيّعتُ ثلاث سنوات حتى وصلت إلى مرحلة «شرح الجامي [على الكافية]». ثم وفّقني الله الطريق السوي، وعرفت أني كنت أمشي على غير هُدًى، فتركت الطريقة التقليدية، ولم أكلّف الأساتذة إلا قليلًا، واعتمدت على جهودي الشخصية، ودرست هذه الكتب مع شروحها بإمعان النظر فيها:

في الصرف: شروح الشافية.

في النحو: شروح الألفية، والمفصل، والأشباه والنظائر، وبعض المتون الخطية، مثل لب الألباب للإسفراييني، وتسهيل الفوائد، وغير ذلك.

وبهذه الطريقة استرحتُ من نحو الفقهاء والمناطقة. وقد نفّرتني من النحو بعض المسائل الخاطئة في «الكافية»، منها: «لا يضاف موصوف إلى صفته، ولا صفة إلى موصوفها «وجامع الغربي» ونحوه شاذ»، والحقيقة أن اللغة العربية مليئة بمثل هذه الإضافات؛ وهناك بعض المسائل الأخرى التي فتحوا فيها باب التأويل، وأوقعوا طالب النحو في مشكلة الخصام والدفاع عن رأيٍ أو ضده، يبذل فيها جهوده بدون جدوى. هذه الأمور دفعتني إلى سوء الظن بهذه

---

(١) بحوث ومقالات ١/ ٢٥. قال معدّه الصديق البحّاثة محمد عزير شمس: (نشر هذا المقال بالأردية في مجلة «الندوة» الصادرة بلكنو، عدد نوفمبر ١٩٤١م. ثم أدرج في كتاب «مشاهير أهل علم كي محسن كتابي» (ص ١٠٤ – ١٠٩) نقلاً عن المجلة. وقام بتعريبه محمد عزير شمس وعلق عليه في مواضع). فالتعليقات في الهوامش له.

الكتب، فإن الطالب يقصد إصلاح لغته لا أن ينحاز إلى فريق دون فريق.

ثم أرشدتني دراسة «المفصل» و«كتاب سيبويه» إلى الأدب، والبحث عن الشواهد النحوية هداني إلى الدواوين وشروحها. ثم عرفت أني قد ضلِلْتُ الطريق في دراسة الأدب. يجب أن نحفظ أولًا مفردات اللغة. بل نحفظ قبل ذلك أبواب الثلاثي المجرد، وهذا من أصعب الأمور، لأن القياس لا يفيد شيئاً في هذه الأبواب؛ ثم نظرت في الكتب التالية وحفظتها من أجل معرفة المفردات اللغوية:

- كفاية المتحفّظ.
- فقه اللغة للثعالبي.
- الألفاظ الكتابية للهمَذاني.
- نظام الغريب ... وغير ذلك، ثم بعدها:
- إصلاح المنطق.
- تهذيب الألفاظ ... وغيرهما.

وقد حفظت في تلك الأيام المعلقات العشر وعدة قصائد أخرى تعدّ من أجود القصائد العربية وتبلغ في رتبتها مرتبة المعلقات، أما المجاميع الأدبية والدواوين الشعرية التي حفظت معظمها فهي:

- ديوان المتنبي.
- ديوان الحماسة (كلاهما كاملًا).
- جمهرة أشعار العرب.

- المفضليات.
- نوادر أبي زيد.
- الكامل للمبرد.
- البيان والتبيين.
- أدب الكتاب (مع شرحه «الاقتضاب»).

كنت درست الحماسة وديوان المتنبي ومقامات الحريري وسقط الزند على الأستاذ المرحوم الشيخ نذير أحمد الدهلوي، ومن خصائصه أنه كان يترجم النصوص العربية إلى اللغة الأردية بأسلوب جميل يَجِلّ عن الوصف، وكان قادرًا على نظم الشعر العربي بارعاً فيه، وأظن أن مقدرته الأدبية كانت موهبة من الله ولم تكن مَدِينةَ للكتب، وكان متواضعاً معي إلى حد كبير، والأسف أنه كانت المفارقة بيني وبينه بسبب بيت من أبيات «سقط الزند». توجد في «سقط الزند» ثلاثة أبيات[1]:

وعلى الدهر من دماء الشهيديـ
ـن عليٍّ ونَجلِهِ شاهدانِ

فهما في أواخر الليل فجرا
نِ وفي أوليَاتِه شَفَقَان

ثبتا في قميصه ليجيء الـ
ـحشر مستعدياً إلى الرحمنِ

قرأ الشيخ نذير أحمد «ثبتاً» -على أنه مصدر- بدلًا من «ثبتا» (فعل ماضٍ،

(١) سقط الزند ٩٦ (ط، بيروت ١٩٦٣م).

صيغة مثنى المذكر الغائب)، فقلت له: إذن يصير هذا البيت نثرًا، ثم بينت مرادي بتقطيع الشعر حسب قواعد العروض، فقال الشيخ:

شــعر مـي كويـم بــه از آب حيـات
مــن نـدانــم فـاعـلاتـن فـاعــلات

(أنا أقول الشعر أحسن من ماء الحياة، ولا أعرف فاعلاتن فاعلات)، فقلت:

«ولكني أعرف «فاعلاتن فاعلات» هذه، فماذا أفعل»؟

حدثت هذه الواقعة سنة ١٩٠٦ - ١٩٠٧، ثم لم أذهب إليه، وإن كنت أتوقع من كرمه وتواضعه أن لا يبخل عليَّ في إعطائي الفرصة للاستفادة منه.

ومما يدلّ على قدرة الشيخ نذير أحمد على نظم الشعر العربي أنه تقرر في كلية سينت استيفنس (بدلهي) مرةً أن يزورها الأمير حبيب الله خان، فوقع الاختيار على قصيدة من ديوان أبي العتاهية - الذي كان مقررًا آنذاك في الدراسة بمرحلة الكلية المتوسطة - لتنشد أمام الأمير، مطلعها[1]:

لَا يَـــذهــبـنَّ بـــك الأَمَـــلْ
حـــتـى تـقـصَّـــر فـــي الأَجَـــلْ

فقال الطالب -الذي تقرر أنه سينشدها في الحفل- للشيخ نذير أحمد: «أنا أنتهي من إنشاد هذه الأبيات خلال ثلاث دقائق، زد عليها بعض الأبيات من عندك». فقال الشيخ في نفس البحر والقافية وأجاد:

اللهُ قـــدَّر فـــي الأزّل
أن لا نـــجـاة بـــلا عمـــلْ

(١) انظر ديوانه ٣١٤ (تحقيق شكري فيصل).

النصح ليس بنافعٍ
والسيف قد سبق العذل

والمرء ليس بخالدٍ
والعيش أمر محتمل

كن حيث شئتَ من السهو
لِ وفي البروج وفي القلل

يُدركْكَ موتٌ في الزما
نِ ولا يزيد في الأجل

لذّات دُنيا كلها
سَمٌّ مَشوبٌ بالعسل

العمر فانٍ فالنجا
والموت آتٍ فالعجل

حتَّامَ تقليد الهوى
وإلامَ تجديد الحِيَل

المبتلى بعلائق الـ
ـدنيا حمارٌ في الوَحل

وهناك نادرة أخرى يعرف بها مدى القوة الأدبية وسرعة البديهة التي كان يمتاز بها الشيخ: قابل مرةً الأمير حبيب الله خان، وبالصدفة كان ذلك يوم العيد، فأنشد الشيخ شعر المتنبي المشهور الذي ذكر فيه وجه الحبيب والعيد. وقد أحدثت هذه المناسبة بين اسم الأمير حبيب الله وموافقة يوم العيد نوعاً من اللطف والجمال انبسط به الأمير.

والآن أذكر هنا رأيي في بعض الكتب الأدبية المشهورة:

أرى أنه يجب على الأدبي أن يحفظ من كتب اللغة: «الغريب المصنف»[(١)] لابن سلّام، و«**إصلاح المنطق**». [لابن السكيت].

ليس بين أيدينا كتاب جامع عثر مؤلفه على المصادر القديمة النادرة، وجمع فيه كل المواد اللازمة التي تتعلق بالمسائل النحوية والشعر والشعراء ضمن شرح أبيات الشواهد بعد البحث الطويل عنها في المصادر القديمة -إلا كتاب «خزانة الأدب»، فإن مؤلفه واسع المعرفة بشعر المتقدمين وكلام اللغويين، وكانت عنده ذخيرة نادرة للكتب، لا نجد لها مثيلًا عند الآخرين[(٢)]، وكأن الزمان قد تقدم به عدة قرون، وكان حقه أن يُخلق في القرن الحادي والعشرين الميلادي.

أحسن كتب الحماسة: حماسة أبي تمام، إلا أن حماسة البحتري تفوقها في الترتيب والتبويب وخلوّهـ[ـا] من الفحش. أما نوادر الأشعار فيمتاز بها كتاب «الوحشيات» (أو الحماسة الصغرى) لأبي تمام[(٣)]، ولا يوجد هناك كتاب في نقد الشعر والشعراء أحسن من حماسة الخالدِّيين[(٤)]، أما «الحماسة المغربية»[(٥)] و«الحماسة البصرية»[(٦)] فكلتاهما تافهة قليلة الفوائد. الأولى توجد في مكتبة [الفاتح] باستانبول، والثانية في حيدر آباد، وعندي أيضاً نسختان منها.

---

(١) نشره طه المختار العبيدي في جزئين بتونس سنة ١٩٩١م.
(٢) صنع الميمني فهرساً لمصادر خزانة الأدب بعنوان «اقليد الخزانة»، وهو مطبوع بلاهور ١٩٢٧م. وانظر في ص ٣٨ الفصل الذي تحدّث فيه عن مصيبته في الإقليد (م. ي.).
(٣) حققه الميمني ومحمود محمد شاكر، ونشرته دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٧م.
(٤) حققه السيد محمد يوسف، ونشر بالقاهرة ١٩٥٨م.
(٥) قام بتحقيق هذا الكتاب السيد إسماعيل لبائي المحاضر في قسم اللغة العربية بجامعة كالي كت (الهند) تحت إشراف مختار الدين أحمد ولم ينشر حتى الآن.
(٦) حققه مختار الدين أحمد. ونشر بحيدر آباد، ١٩٦٤م، ثم بيروت أخيراً.

أما نقد الشعر على طريقة الموازنة بين عدة أبيات في موضوع واحد فأحسن الكتب في هذا المجال: قراضة الذهب لابن رشيق[1] (٥م)، ورسالة الابتكار لابن شرف، وحماسة الخالديين، وشرح المختار من شعر بشار [لابن التجيبي][2] وكتاب ابن رشيق «**العمدة**» أحسن كتب النقد من بعض الوجوه، و«الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء» للمرزباني أيضاً كتاب جيد. وأحسن كتاب لفهم الشعر «اللآلئ [شرح أمالي القالي، للبكري]»[3].

أما الكتب التي جعلها ابن خلدون أصول الأدب فأرى فيها ما يلي:

«الكامل» للمبرد يفيد المبتدئ أكثر. ولو درس أحد «أدب الكاتب» مع شرحه «الاقتضاب» يصير محققاً لغوياً. وتوجد في «البيان والتبيين» نماذج من فصيح الشعر والنثر أكثر من الكتب الثلاثة الأخرى، أما نوادر اللغة الشعر فهي في «أمالي» القالي أكثر وأوفر.



(١) (٥م) نشرها الدكتور الشاذلي بويحيى بتونس سنة ١٩٧٢م في طبعة جيّدة محقّقة (م. ي.).
(٢) اعتنى بتصحيحه السيد محمد بدر الدين العلوي وهو من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٤م.
(٣) حققه الميمني وسمى تعليقاته «سمط اللآلئ» نشر الكتاب في القاهرة ١٩٣٦م، وعُرِف به الميمني في الأوساط العلمية.



ما هو أحسن كتاب قرأته في موضوعه؟(١)



للأديب الكبير عبد الله كنون

وجَّه إليَّ الأديب التونسي السيد مصطفى بن حميدة هذا السؤال، فأجبته بما يلي:

لا يمكن الجواب بإطلاقٍ عن هذا السؤال، وخصوصًا لمن كان مثلي على كثرة ما قرأ من الكتب في الموضوع الواحد، لا تزال أمامه لائحة طويلة بالكتب التي لم يقرأها في كل موضوع. فأنا إذا تمنّيتُ أن أعيش طويلاً، فإنما أتمنى ذلك لأجل أن أستوعب ما أريد من الكتب. وإذا كان ثابت البُناني قال: «اللهم إن كنتَ أعطيتَ أحدًا من خلقك الصلاة في قبره، فأعطنيها» وقيل: إنه كُشِف عن قبره فوُجد قائمًا يصلي، فأنا أدعو الله القادر الذي لا يعجزه شيء أن يمتعني في الحياة الأخرى بغرفة مطالعة، تُجبى إليها ثمرات العقول: من كتب ومجلات وصحف أدبية ودواوين شعرية قديمة وحديثة؛ حتى أكون على اتصال تام بالحياة الفكرية في الدار الدنيا قبل فنائها، وأمتِّع نفسي في الجنة بعد فناء هذه الدار بأعظم لذة روحية في نظري.

واللذة الوحيدة في نظر الرازي كما قال في جمع الجوامع: «وحصرها الإمام والشيخ الإمام في المعارف»!

ومن هنا أعتبر أني لم أُحِط بأي موضوع، فلا أعرف أحسن كتاب فيه.

ومن وجه آخر فإنه إذا كانت أكثرية الكتب مكررة لبعضها، فإن كتبًا كثيرةً لا يمكن أن ينسحب عليها هذا الحكم؛ لأنها تتمم البعض الآخر ولا تكرره.

---

(١) في كتابه (واحة الفكر) ص١٨٥-١٨٩.

وهل يمكن للأديب أن يستغني بـ«العقد» (ولا أقول: الفريد فإن مؤلفه لم يسمه بذلك) عن «عيون الأخبار»، أو بهذين معًا عن «**الأغاني**» ؟

لذلك فإن تعيين كتاب واحد في موضوع واحد والقول بأنه أحسن ما قرأت يكون فيه تسامح كبير، وإن شئت فقل: ظلم كبير!

غير أني أستثني من ذلك الكتابَ الأزليَّ الخالد؛ كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهذا الذي أقول فيه بدون تحفُّظ: إنه أحسن كتاب قرأته بل حفظته، ولم أزل أقرأه منذ الصبا حتى لا أحصي كم مرة ختمتُه، ودائمًا أجد فيه شفاء للنفس وغذاء للفكر وشرحًا للخاطر ونورًا للبصيرة؛ لا أدري هل ذلك لأني مسلم وإيماني بالقرآن إيمان عميق، وهو أول كتاب قرأته على الإطلاق واقترنتْ مدة حفظي له بذكريات جميلة وبريئة أعدّ منها ولا أعدها، أم لما أجد فيه من معارف وأسرار يتمثل فيها كل ما قرأته من أبحاث فلسفية وأدبية وخلقية وطبيعية وغيرها في أسلوب يخلب اللب ويستهوي القلب ؟

على كل حال الغاية التي من أجلها يقرأ الإنسان وهي لذة العقل وتكميل النفس، هي ما أجد في القرآن دائمًا وأبدًا؛ ولذلك أقول: إنه أحسن كتاب قرأته وأقرأه على الإطلاق!

وثاني كتاب يحتفظ بمكانة مكينة في نفسي وهو الوحيد من الكتب المؤلفة الذي أكون قرأته مرارًا متعددة كتاب «صحيح البخاري». فهو كتاب دين وشريعة وأدب وأخلاق وحكمة وسِيَر ورقائق وأخبار معاد، ويرجع بعض إعجابي به لصنيع مؤلفه؛ ولذلك فهذا القدر لا يدركه إلا من درس حظًّا من علوم الحديث ودرس غير «صحيح البخاري» من كتب السُنة، والبعض الآخر لما في كلام النبوة من الحلاوة والقبول وسذاجة الإخلاص وروح الطمأنينة وغير ذلك كما قال القائل:

وما سمعت أذن كلامًا ونغمة
ألذّ وأشهى من حديث محمدِ

وإني لأعرف أبوابًا فيه كلما قرأتها أبكي، وأخرى تضحكني، وأخرى تهدئ أعصابي ولو كانت في أشد الاضطراب، وأخرى تبعثني على الرجاء ولو كنتُ في أشد حالات القنوط، وأخرى! وأخرى!

ومن غير هذا فليس ثَمَّ كتب أقول: إني قرأتها مرتين أو ثلاثًا، اللهم إلا كتب الدراسة، وما يكون في نيتي أن أعيد قراءته حينما تمكنني الفرصة، ومن هذه الكتب «سر تقدم الانجليز السكسونيين» ترجمة أحمد فتحي زغلول؛ فإن هذا الكتاب بصرني بكثير من الحقائق في تقدير الحضارة العصرية بمقاديرها الحقيقية، وصرت أعرف قيم الثقافات المعاصرة، وما تؤثره في النفس والسلوك، وإني وإن قرأت بعده أبحاثًا أخرى في موضوعه إلا أني لا أزال أراه مُجلِّيًا في هذا الباب.

وكتاب آخر دائمًا أجعله على مقربة مني لأتمكن من مراجعته هو: «صيد الخاطر» لابن الجوزي؛ فهذا الكتاب مجموعة آراء مرسلة في العلم والتربية والدين والاجتماع؛ ولكنه كتاب مؤثر جدًّا، ومُعين على تكميل النفس وتربية الإرادة وتكوين مبدأ سام لقارئه، وقد قرأته قبل مدة قريبة، وكان ما يصادفني فيه من الأنظار كأنه يعبر عما يجول بنفسي منذ سنين عديدة.

وإن أنس لا أنس فضل مؤلفات الشيخ الإمام محمد عبده، والأستاذ الكبير محمد فريد وجدي، والسيد محمد رشيد رضا، والشيخ مصطفى الغلاييني، ورفيق بك العظم، والعلامة محمد كرد علي؛ التي بها أمكنني أن أعرف قيمة الثقافة الإسلامية والحضارة العربية، وأقارنها بغيرهما من الثقافات والحضارات، وأُكَوِّن لنفسي بعض الأفكار عما قرأته على الطريقة القديمة: من



كتب التشريع الإسلامي وكتب الكلام والتصوف.

أما في الأدب الحديث والنقد والقصة فمن أحسن ما قرأته واستفدت منه كثيرًا كتب: العقاد، والرافعي، وطه حسين، ولطفي جمعة، وهيكل، والمازني، وزكي مبارك، ومجلة الهلال، والمقتطف، والرسالة، ولا أخص شيئًا من كتب هؤلاء فإنها كلها جميلة ومفيدة.

بقيت المباحث السياسية وتاريخ الأمم الإسلامية ونهضتها، ومما أقدمه على غيره في هذا الباب كتابات جمال الدين الأفغاني، والكواكبي، ومصطفى كامل، والأمير شكيب أرسلان، ومحب الدين الخطيب، وصديقنا أحمد توفيق المدني.

ولا أختم الكلام بدون أن أشيد بآثار فقيد الشمال الإفريقي العلامة المجاهد المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس التي كان لها كثير من الأثر في توجيهي وإنارة الطريق أمامي إلى كثير من الخير.






في الكتب، ما كنتُ أتمنّى أن أقرأ [1]

للأستاذ إبراهيم عبدالقادر المازني

ليس أكثر من الكتب في الدنيا، ولعلها الشيء الوحيد الذي يزيد ولا ينقص، ولو أن ما كتبه الناس من أقدم العصور التي بقي لنا منها أثر -ودع ما نقل بعضهم عن بعض- جُـمِع في مكان واحد، لملأ مدينة واسعة كالقاهرة ومعها ضواحيها التي تزحف بها على الريف من ناحية، وعلى الصحراء من نواح، وليس أشدّ شرَهًا ممن يستقل ذلك، أو لا يرى فيه غناء.

وهنا موضع التحرُّز أو التنبيه إلى وهم قد يسبق إلى بعض الأذهان، فما أعني أن في الموجود من الكتب ما يغنى عن الاستزادة أو يصدّ عن التطلع؛ أو ما يكتفي به العقل الإنساني عن المضي في البحث والتقصّي، وإنما أعني أنه حَسْب من شاء أن يقرأ، فما يتسع عمرٌ - مهما طال - للإلمام ببعض هذا الموجود من ثمار العقول، ولو أن أعمار الذين لا خير فيهم أضيفت إلى عمر الواحد منا وزيدت عليه، لما كانت كافية لتحصيل ذلك كلِّه، ولكني، مع ذلك، أراني أحيانًا ــ وأنا جالس بين مابقي لي من كتبي - أتحسَّر وأتمنى: أتحسّر لأن مطبوعًا من هؤلاء المؤلفين على الشعر، أبى إلا أن يكون جاهلًا نفسه، وتوهَّم أنه ناقد أو فيلسوف أو غير ذلك، وذهب يكتب. أو أن كاتبًا فذًّا غالَطَ نفسَه فراح يقرض الشعر، ويجيء بالغثّ ويحسب أنه صنع شيئًا.

وأتمنى لو أن بعضهم نظم قصيدةً في معنى يخطُر لي، وأراه كان أقدر على صوغه، أو وضع كتابًا في بحث معين، أو كتب قصة مثلًا، أو أردف ما كتب بشـرح ما يعني، كأنما كل هذ الكتب لا تكفي ولا تقنع!

---

(١) مجلة الرسالة، مجلد ٥، العدد ١١٣، سنة ١٣٥٤هـ، ص ١٤١٣-١٤١٥

وأتساءل أحيانًا- لو أن أبا العلاء لم ينظم أكثر «**سقط الزند**» وبعض «**اللزوميات**»، وزادنا مِن مثل «**رسالة الغفران**»، أكان هو ينقص شيئًا أم كان يزيد؟! وهل كنا نحن القراء نخسر أم نكسب؟ كنا نربح فيما أعتقد، ولم يكن يضيع علينا شيء من نظمه لا نهمله الآن، ولكن أبا العلاء غلط وآثر التكلّف، ليرضي غروره، وليتعزَّى أيضًا بإظهار اقتداره. وإنه لفحل عظيم، وما يطيب لي أن يظن أحد أني أغمطه أو أنزله دون منزلته، وإني لأعلى به عينًا من أن يخطر لي أن في وسعي أن أظلمه، ولكني كنت أودّ لو زادنا من مثل «**الرسالة**»، وفي يقيني أنه لو كان فعَلَ، لبلغ الذروة واستولى على الأمد.

ويؤسفني أحيانًا أن الجاحظ لم يكتب قصة. أما لو كان فعل!؟ أين بين كُتّاب العرب مَن كان أقدر على ذلك منه، وأولى بأن يكون أبرع فيه، وأسْحَر وأفْتَن؟! مَن له مثل قدرته على الكتابة و وفاء التعبير بلُغَتِه؟ مَن له مثل فطنته ونفاذ نظره وفكاهته، وحُسْن تأتِّيه، ولُطْف مداخله، وحِذْقه في التناول والعرض، ودِقَّته في فهم الناس واستبطانهم، والإحاطة بجوانبهم المختلفة، والتفطّن إلى نواحي الجدّ والهزل فيهم، وإلى مبلغ اختلاط هذا بذاك، وإرباء ذاك على هذا؟

أوليت الجاحظ كان مصوِّرًا!؟ أترى كان يستطيع -لو ساعفته الأحوال وتاحت لذلك فرصة- أن يحوِّل مواهبه إلى هذه الجهة؟ أكان يسعه أن يسخّر قدرته اللفظية على البيان إلى قدرة من نوع آخر، على الأداء، فيثبت ما يريد على اللوح ويدعه، وهو ساكن لا حركة فيه ولا تتابع للحظاته ومناظره، ينطق بما حمله من المعاني؟ ومن يدري؟ إن مطلب الكاتب غير مطلب المصوِّر، وأداة هذا غير أداة ذاك، وأقل ما بينهما من الفروق و وجوه الاختلاف: أن الكاتب يقوم أسلوبه على الحركة والتعاقب، وأن المصوِّر لا يسعه إلا أن يثبِّت لحظةً ويعرضها ساكنة، والسكون لا ينفي التعبير والنطق، وقد يكون أنطق وأبلغ في نطقه من

الكلام. فهل كان بيان الجاحظ -وهو فيض لا تصده السدود- يستطيع أن يحتمل الحَصْر والتجمع، والنطق بقوة الإبراز لا بفضل الانسياب أو التدفق؟ أعود فأقول: لا أدري؟

وتمنيت، وأنا أدير عيني في كتبي على رفوفها، لو أن هؤلاء الألمان الذين يتفلسفون علينا بما لا نفهم، بينوا لنا -أو لي أنا على الأقل- ماذا يريدون أن يقولوا. عجيب أمرهم والله! قرأت مرة لأحدهم -وأظنه «هجل» فما أذكر الآن بعد هذا الزمن كله- كتابًا في «**فلسفة التاريخ**»، فخرجت منه كما دخلت، وقلت لنفسي: إما أني أنا حمار، وإما أن هذا الرجل لا يحسن العبارة عما في رأسه، ولكني أفهم عن غيره فلماذا أراني لا أفهم عنه؟! وكيف يعقل أن أعجز عن فهم ما أخرجَه عقلُ إنسان مثلي؟

وكان في هذا الكتاب فصل عن المدينة الإسلامية أو عن تاريخ العرب -فقد نسيت- خُيِّل إليَّ أني فهمت أقلّه، ودارت الأيام، ووقع في يدي كتاب لرجل أمريكي اسمه «دريبر» عن المدينة ونشوئها، يكتب كما يكتب خلق الله -لا الألمان- فإذا فيه فصل طويل عن العرب يعد تطبيقًا لنظرية هجل التي لم أفهمها، فسألت نفسي: لماذا لم يكتب هجل كما يكتب هذا الرجل؟ ثم عدت أسألها وأتعجب: لماذا فهم «دريبر» عن «**هجل**» ولم أفهم أنا عنه؟ وأسأت الظنَّ بنفسي واعتقدت أن بي نقصًا في التدريب العقلي، وراجعت «**هجل**» وكرّرتُ إلى هؤلاء الألمان الـمُعْوِصين كرَّةَ المصمم المستميت، ولكن مضغ الجلاميد أعياني، فنفضت يدي منهم -ومن نفسي- يائسًا، وقلت: يا هذا، لقد صدق القائل: كلَّ ميسَّر لما خُلق له، وأنت لم تخلق لتقرأ فلاسفة الألمان، فارجع عنهم، وانج بنفسك منهم.

ولستُ أعرف أن للمتنبي نثرًا، وإن شعره لحَسْبُه، فما يحتاج بعد أن قال هذا الشعر يصنع شيئًا آخر، أو يجشم نفسه جهدًا في باب غيره، ولكني مع هذا أحس

بحسرة لأنه لم يشأ أن يترك لنا كتابًا عن مُقامه في مصر ورحلته إلى «الأستاذ» كافور! ألا يشعر القارئ معي أن كنوز الأدب العربي ينقصها هذا الكتاب من قلم المتنبي في «كافور»؟ يا لها من تحفة نادرة، ضنّ بها علينا المتنبي؟ أتراه لم يخطر له هذا قط؟ فماذا كان يصنع يا ترى حين لا يعالج النظم؟ لقد كان مقلًّا، وليس ديوانه الذي خلّفه بالذي يستنفد عمر مثله أو جهده، فلماذا يا ترى لم يشغل فراغه الطويل بالكتابة؟ أكان الكلام الجيد لا يؤاتيه إلا منظومًا، لأن عواطفه لا تتدفق إلا على لحن؟ وخواطره لا تنتظم أو تتسق إلا على النغم؟ ربما.

وينقص الأدب العربي -في رأيي- اعترافات رواته، فقد ملأوا عالمه بالدخيل والمنحول والمخترع؛ وتركوا لنا نخْلَ ذلك كلِّه وغربلته، فليت واحدًا منهم كانت له جرأة «روسو» إذن لارتفعت عن الباحثين تكاليف ثقيلة، ولاستغنوا عن هذه الغرابيل التي لا نراها تغربل شيئًا، ولأمكن أن تنفق الأعمار التي تضيع في هذا البحث فيما هو أجدى.

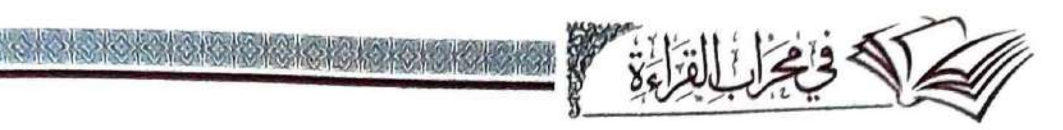
ولو أن الرواة كتبوا اعترافات لخلّفوا لنا قصصًا من أمتع ما في الآداب، غربيها وشرقيها، ولكشفوا لنا عن خصائص، نفسية وعقلية، ينفع الناس العلمُ بها، ولتسنى أن نعلل هذه الفوضى التي أغرق فيها الرواة أدبنا، ولاسيما القديم منه.

ومن الذي لا يشتاق أن يعرف لماذا كان الواحد منهم ينظم الأبيات ثم يحشرها في قصيدة لشاعر قديم، أو يخترع القصة أو النادرة ويعزوها إلى هذا أو ذاك من الأولين، ويصرّ على أن الأمر حقّ وأنه صادق، ويزعم أنه أخذ ذلك عن فلان وعلان، أو تلقَّفَه مِن أفواه البدو الضاربين في الصحراء! والغريب من أمرهم أنهم ينزلون عن مزية كبيرة عن سبيل مزية أصغر منها، ذلك أن

اختراعاتهم وتصنيفاتهم تدلّ على خصب في القريحة، وعلى قوة الخيال ونشاطه، بل على وجود ملكات كافية لأن يكون الواحد منهم شاعرًا مجيدًا أو قاصًّا بارعًا؛ ولكنهم يزهدون في ذلك، ويظلمون أنفسهم، ويقنعون بأن يكونوا رواةً فحسب؛ أي حفّاظًا ليس إلا؛ أي خزانة مفتاحها في لسانهم؛ وأغرب من ذلك أنهم لو قنعوا بما حفظوا، وتوخوا الأمانة في الحفظ والرواية، لعدوا علماء، ولكانوا محل الثقة والاطمئنان؛ ولكنهم يأبون لأنفسهم منازل الكرامة، ويروحون يزوّرون ويفترون ويلفِّقون، ويظهرون في ذلك من الحِذْق والبراعة ما لو أظهروا بعضَه في غيره لرفعهم مقامًا عاليًا. فلا بد أن يكون هناك عِوَج في طباعهم والتواء في عقولهم يزينان لهم الطريق الذي سلكوا، ويَعْدِلان بهم عن المنهج الأقوام، ويغريانهم بإهمال مواهبهم، أو سوء استخدامها.

وعلى ذِكْر الاعترافات أقول: إني لا أحب أن أقرأ اعترافات لذلك النواسي الفاجر، وليس هو بأفجر من سواه من أصحابه في زمانه، ولكنه أظهرهم لأنه أعلاهم لسانًا وأقواهم بيانًا، ومثل سيرته لا يزيد الناس فهمًا للحياة وحسن إدراك لها، وما في الأمر إلا أنه كان أجرأ فلم يكتم نقائصه، كما يفعل غيره، ولم يحاول أن يستتر لما ابتلي، ولولا أنه شاعر لما شُغل بقصصه أحد، والشهرة هي التي جنت عليه فأبرزت جانب السوء والاستهتاك من حياته، ولولا ذلك لكان شأنه كشأن سواه من أمثاله الذين لا يخلو منهم عصر أو شعب. فلو أنه كتب اعترافات لما كانت لها مزية يفيدها الناس، وماذا كان يمكن أن يكون في اعترافاته مما يجهله الناس، وإن كانوا لا يجاهرون بالعلم به. كل ما كنا خلقاء أن نستفيده هو صورة الحياة، كما عرفها وعاناها، فاسق عظيم.

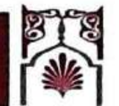
وليت دِعبلًا ترك لنا مذكرات! فإنه متمرّد ظريف، وليس أحبّ إلى المرء من



الوقوف على مظاهر التمرّد، ولكن التمرُّد صنيعه في حياته، وصنيع شعره معه -أو أكثره- فلو أنه كتب مذكّرات لما أعوز خصومَه الحطب.

لو ذهبتُ أذكرُ ما كنت أتمنى أن أجد فيه كتابًا، لما فرغت، فما لهذا آخِر، فحسبي ما بينت، وليكن كإشارة الفهرس.






الكتابة والكتب ودورها[1]

لأحمد بك زكي

أفرأيتم المصريين الأقدمين وقد تركوا لنا كتبهم منقوشة على صفحات الجبال وفي بطون المغارات وعلى أحجار البرابي والأهرام والمسلات؟

أم هل أتاكم حديث الآشوريين؟ فقد اكتشف النقَّابون في هذه الأيام مصاحفَهم مرقومة على اللِّبْن، وهو الطوب المشوي أو المطبوخ. وذلك لأن أرض ما بين النهرين مكوَّنة من طَمْي دجلة والفرات، فليس فيها جبل ولا حجر. ولكن ذلك لم يقف حجر عثرةٍ في سبيل الغرام بالكتب. فصاروا يَرْقمون بالمسمار على الطين وهو نيء ثم يطبخونه في النار، استبقاءً لكتابتهم على ممر الأدهار والأعصار.

ثم انتشر هذا الغرام في مصر وعمَّ وطمّ، فاحتاج القوم لزيادة الكتابة، وأحسوا بما في النقش على الأحجار من الصعوبة، فعادوا إلى الطبيعة، وهي الهادي الأكبر للبشر، أخذوا البَرْدي وعالجوه بما جعله صالحًا للكتابة، وها هي آثاره في دار العاديات المصرية بقصر النيل في القاهرة، وأكثرها في متاحف أوربا. وأما الصين والهند، فقد كفتهم دودةُ القزّ هذه المؤونة، في القيام بما يدعوهم إليه الولوع بالكتب والكتابة. وإذا نظرتَ إلى بني الأصفر وأعني بهم اليونان والرومان تجدهم قد استعانوا بالحيوان، فعالجوا الجلود وصنعوا منها ما نسميه بالرقوق.

---

(١) من محاضرة لأحمد بك زكي، أحد الباحثين العالمين في مصر الملقب «شيخ العروبة»، ألقاها في نادي موظفي الحكومة في الاسكندرية. مجلة المقتبس سنة ١٣٢٨، المجلد الخامس ص٣٨٥-٤٠٤. وقد أوردت مجلة المقتطف طرفًا من المقال نحو نصفه أو أقل.

وأول من استنبط ذلك الأغارقة من أهل فرغامة، وهي مدينة بآسيا الصغرى تسمى عندهم برجامة (pergame) فصار اسمها عَلَمًا على هذا المصنوع من الرقوق، ولا يزال باقيًا عند جميع الإفرنج إلى الآن، فإن أهل إيطاليا يسمون الرَّق (بفتح الراء) بزجامينولا أي الفرغامي، لأن العرب تقلب الباءَ الفارسية إلى الفاء لقرب المخرج كما قالوا في (platon) أفلاطون وهكذا. وأما الاسم العربي فهو مأخوذ من ترقيق الجلد بعد دبغه.

أما العرب فبلادهم جرداء قحلاء فلم ينقشوا على الأحجار، ولم يطبخوا الطين على النار، ولم يهتدوا إلى صناعة الترقيق. ولكن ذلك لم يكن حائلًا دون غرامهم بالكتابة والكتب. فكانوا قبل الإسلام في عصر النبوة يكتبون على عسيب النخل، أي قحوف الجريد لكثرة هذه الشجرة المباركة في بلادهم. ويكتبون على ألواح العظام (وكثرتها ناشئة عن ذبح الأضاحي)، ويكتبون على نوعٍ من الأحجار المصقولة التي يلتقطونها من فيافيهم وبواديهم.

ونقف بالكلام على العرب دون سواهم من الأمم الأخرى. فإنهم ما لبثوا في خلافة الصدِّيق ومَن جاء بعده من الخلفاء، أن انتشروا في الأرض فأخذوا على أهلها أساليب الحضارة. ثم احتاجوا إلى التبسُّط في الكتابة، لاتساع الملك واستبحار العمران، فكتبوا في العراق على الحرير وسموه بالمهراق. وكتبوا في مصر على البردي ولا تزال آثاره باقية في أوربا وبعضها في القاهرة في دار الكتب الخديوية.

وكانوا يكتبون على هذا البردي باللغة العربية وحدها تارة، ومصحوبة بالترجمة الرومية أو القبطية تارة أخرى.

ولا تزال هذه سنة مطردة في ديارنا، أعني بها سنة الاحتياج إلى لغتين، مثال ذلك: الأحجار وأوراق البردي في عهد اليونان، نراها مكتوبة بلغتهم وباللسان

المصـري القديم، وفي عهد الرومان حلَّ اللسان اللاطيني محل اليوناني. حتى جاء العرب فكان من شأْنهم ما ذكرنا. ثم انقضت مدة طويلة من أيام المأْمون إلى آخر الدولة الأيوبية استقل فيها اللسان العربي. حتى جاءت دولتا المماليك البحرية والجركسية فاندمجت في اللغة العربية بعض ألفاظ واصطلاحات دخيلة من التركية. ثم جاءت دولة العثمانيين فكانت السيادة في مصر للمماليك الأتراك، حينئذٍ طما بحر اللغة التركية وصارت تزاحم لغة البلاد. واستمر الحال على ذلك بعد جلوس الفرد الفذ العظيم «محمد علي» نابغة العصر الجديد إلى أيام سعيد. وبعد ذلك بدأت الفرنساوية تحلّ قليلًا قليلًا محلّ التركية. وها هي الآن تتأخر في الميدان أمام اللغة الانكليزية. والحق يقال أن لغة البلاد أخذت في الانتعاش كثيرًا بفضل خديوينا المحبوب عباس الثاني، وبفضل حكومته الرشيدة السعيدة. وبفضل المحاكم والجرائد، وسترون عما قليل حسنة جليلة من أكبر محاسن الحكومة الحاضرة يرتفع بها منار هذا اللسان وتتجدد معها آداب العرب وعلومهم.

نرجع إلى الكتابة والكتب فنقول: إن العرب ما عتموا[1] أن استخدموا الجلود بعد ترقيقها، وكان من مزاياها عندهم أنهم كانوا يغسلونها ويجدِّدون الكتابة عليها. فرأوا أن ذلك إن كان صالحًا في بعض المعاملات الوقتية ففيه ضرر كبير على العلم، كما رأَوا من جهة أخرى أن الحرير يدعو إلى مؤُونة كبيرة مع أن الحاجة ماسة إلى الإكثار منه ومن الرق، بل رأَوا في أيام هارون الرشيد أنهم كانوا مقلدين لغيرهم من الأمم وأن ما وصلوا إليه من الحضارة والرجحان يوجب عليهم الأخذ بأسباب الاختراع والاستنباط. فكانوا أول من اصطنع الورق على هذا الشكل الباقي إلى أيامنا هذه، وحسبهم ذلك فخارًا. وقد سموه

(١) أي: ما تأخروا.



بالكاغَد[١] ثم بالقرطاس، ثم شاع اسم الورق وانتشرت معامل الورق من الخِرْقة أي من الكهنة في سمرقند وبغداد والقاهرة ودمياط، ثم انتقل إلى بلاد الغرب فكان لهذه الصناعة شأن كبير في بلاد الأندلس واشتهرت مدينة شاطبة بمعاملها ومصنوعاتها التي فاقت في الجودة والإحسان والإتقان وأرْبَت على ما بلغه أهل المشرق من هذا الباب. ومِن شاطبة كان الكاغد يُحْمَل إلى سائر بلاد الأندلس. ومن هناك انتقل إلى إفرنجة (فرنسا) ثم إلى بقية ديار أوربا. وقد أبلغه القومُ في هذه الأيام إلى نهايات ما يخطر بالأحلام وأتوا في ذلك بالعجب العُجاب، حتى صاروا يصنعونه من الأخشاب، وانعدمت هذه الصناعة من ديار الشرق كلها فصار عالة على غيره فيها وفي غيرها، حينئذٍ توفّرت عند العرب الأسباب المادية والعقلية فأبدعوا في التصنيف وأغربوا في التأليف وتهافتوا على جمع الكتب وتطلّبها، يستوي في ذلك السلطان والسُّوْقَة والخاصة والعامة والرجال والنساء وجميع الطبقات، حتى كثرت دور الكتب في القاهرة وأمهات المدائن المصرية بدرجة لا نتصورها الآن، لأن بلادنا أصبحت خُلْوًا

(١) أما (الكاغد) فهو لفظ فارسي، وقد كان لهذه اللغة الفارسية تأثير يذكر في العربية أيام العباسيين لأن الفرس هم الذين رفعوا قواعدها وشادوا دعائمها، وكان رجالاتهم هم المدبرون لأمرها في أول قيامها، ثم في أيام الخليفة السابع وهو المأمون بن هرون. وفي أيامه أخذوا أيضًا عن الروم علومهم ومعارفهم فنقلوا لفظة (Cαετα) اليونانية وعرَّبوها وهي بصيغة الجمع فقالوا: قرطاس. والغريب في هذا الموضوع أن أئمة اللغة نصوا على أن القرطاس يقال بضم القاف أو بكسرها وأجمعوا على أن الفتح لم يقل به أحد. وهو أمر غريب فإن الفتح أقرب على اللسان وأقرب إلى الأصل. وهذه اللفظة عرَّبها المصريون في أيام «محمد علي» في ضمن الاصطلاحات الجغرافية فقالوا: خرطة محاكاة للتلفظ على الطريقة اليونانية للدلالة على المصورات الجغرافية التي يسميها ابن فضل الله العمري في (مسالك الأبصار) بلوح الرسم، والتي ورد اسمها في بعض نسخ (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للشريف الإدريسي هكذا (لوح الترسيم) وأنا أظن كثيرًا أن هذه اللفظة من تحريف النساخ أو المسّاخ، وأن صحتها لوح الرسم كما رأيته في موسوعة ابن فضل التي ذكرتها لكم. ثم إن المتقعرين في اللغة حرفوا لفظة خرطة فقالوا: خريطة وخرائط، وما دروا أن ذلك الاسم موضوع لجعبة الراعي ولكن قد كان ما كان. [أحمد زكي]

منها بالمرة لولا تلك الصبابة القليلة الباقية في دار الكتب الخديوية وفي الأزهر الشريف، تتلوهما المكتبة الحديثة التي أنشأتها البلدية في الاسكندرية.

أما البيوتات فقد أصبح عددها أقلّ من أصابع اليد الواحدة، وأولها بيت السادات، يتلوه بيت البكري، فبيت المرحوم رفاعة وعبدالله فكري. وأما الأفراد فقد قلَّبتُ النظرَ فلم أر غير المرحوم لطيف باشا سليم، وبعده الفاضل أحمد بك تيمور.

وقد أردت أن أجري على هذا المنوال وإن كانت خطواتي صغيرة ويدي قصيرة، ولكنني خشيت أن تذهب مجموعتي من بعدي للعطّار والزيّات والبقال، أو تتفرق شَذَر مَذَر كما حصل للمجموعة النفيسة التي كانت تزدان بها دار المرحوم علي مبارك باشا في حياته. لذلك جعلتها من الآن خاصة بالأمة، ولا أزال دائبًا إلى آخر ساعة من حياتي على توسيع نطاقها والزيادة فيها.

إذا رجعنا ببصرنا إلى التاريخ رأيناه يحدثنا عن دور الكتب في القاهرة، فتأخذنا لوعة لمجرّد هذا الوصف ونبكي على ذهاب العين والأثر.

فدور الكتب التي أسسها الفواطم يحدّثنا المقريزيُّ عنها بما يثير الأشجانَ ويستمطر الدموعَ من الآماق. فقد كان في قصر الخلافة وحده أربعون خزانة كانت فيها النوادر والذخائر فأخذ معظمها بعض الموظفين وبعض الأجناد الأتراك بدل مرتباتهم في أيام الشدة التي وقعت للخليفة المستنصر.

وقد نهبَتْ عربُ لواتة شيئًا كثيرًا منها أغربَ المقريزيُّ في وصفه ثم قال: أن عبيدهم وإماءهم أخذوا جلودها برسم عمل يلبسونه في أرجلهم وأحرقوا ورقها تأوّلًا منهم أنها خرجت من قصر السلطان أعز الله أنصاره، وأن فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم، سِوى ما غرق وتلف وحُمِل إلى سائر

الأقطار، وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليه الرياح التراب فصار تلالًا باقية إلى اليوم بناحية آثار تعرف بتلال الكتب.

هذا عدا خزائن القصر الداخلية التي لا يتوصل إليها أحد، وعدا خزائن دار العلم بالقاهرة «**وهي مماثلة لما نسميه الآن أكاديميًّا أو كما يقول صاحب كشف الظنون وابن أبي أصيبعة قبله: (أقاذيميًّا)**» وسوى خزانة المارستان العتيق. وقد بقيت إلى أن بيعت في أيام صلاح الدين فاشترى القاضي الفاضل وحده منها مائة ألف كتاب مجلد وأودعها في المدرسة التي أنشأها بالقاهرة. وفضل القاضي الفاضل ومكانته في الدولة الأيوبية يدلان على أنه اختار أفضل الكتب وأحسنها، ولكنها ذهبت بها الأيام أيضًا، فإن الغلاء لما وقع بأرض مصر في سنة ٦٩٤ صار طلبة هذه المدرسة يبيعون كل مجلد برغيف من الخبز. وبقيت منها بقية تداولتها أيدي الفقهاءِ بالعاريَّة فتفرقت. وكان فيها مصحف اشتراه القاضي الفاضل بنيف وثلاثين ألف دينار على أنه مصحف الخليفة عثمان، وكان في خزانة مفردة له غربي المحراب. وهذا القاضي الفاضل كان يقتني الكتب من كلِّ فن ويجتلبها من كل جهة، وله نُسّاخ لا يفترون ومجلِّدون لا يبطلون. وقد بلغ مجموع كتبه قبل موته بعشرين سنة ١٢٤٠٠٠ مجلد، طلب ابنه مرة أن يقرأ ديوان الحماسة وتوسل إلى ذلك ببعض المقربين لديه، فأمر القاضي الفاضل فأحضر له خازِنُه ٥٣ نسخة، فصار ينفضها واحدة واحدة ويقول: هذا بخط فلان حتى أتى على الجميع ثم قال: ليس عندي ما يصلح للصبيان وأمر بشراء نسخة بدينار لولده، وقد أحضرتُ مجموعة رسائله في جملة ما أحضرته من الكتب.

وقد بقي بعض الكتب من آثار الفاطميين في مصر، وزاد عليها المماليك وجعلوا لها خزانة عمومية ولكنها احترقت في سنة ٦٩١، فتلف بها من الكتب في الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شيءٌ كثير جدًّا كان من ذخائر الملوك.

والذي نجا من النار انتهبه الغلمان وباعوه بأبخس الأثمان، فظفر الناس منها بصحائف محرقة فيها نفائس غريبة.

ولم تكن هذه المدرسة هي الوحيدة في القاهرة، فقد كانت خزائن الكتب في المساجد والجوامع والمدارس فضلًا عن القصور والمنازل. وحسبي الإشارة إلى بعض المدارس التي امتازت بجمع الكتب النادرة، فمنها المدرسة التي أنشأَها بمصر القديمة في سنة ٦٥٤ الوزيرُ الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن حِنّا (بكسر الحاء المهملة وتشديد النون المفتوحة كما ضبط الثقات من المؤَرخين) فقد كانت فيها خزانة جليلة من الكتب النادرة، ثم نقلها فبقيت عنده حتى مات فتفرقت في أيدي الناس.

وكذلك الملك الظاهر بيبرس البندقداري جعل في مدرسته الظاهرية خزانة كتب تشمل على أمهات الكتب في عامة العلوم.

فلما تولى السلطان قلاوون جعل في قبته البديعة خزانة الكتب في جميع أنواع العلوم، ولكن معظمها تفرَّق في أيدي الناس واقتدى به ابنه محمد فأنشأ خزانة كتب بمدرسته التي شادها بجوار هذه القبة في الجهة المعروفة الآن بالنحَّاسين.

وأما أسماءُ الأمراءِ والأفراد فهي كثيرة جدًّا، مثل الأمير متكوتمر سيف الدين الحسامي، والحاج سيف الدين آل ملك، والأمير سيف الدين الجاي، والطواشي سابق الدين مثقال، والطواشي سعد الدين بشير الحمدار. وأهم الكل الأمير جمال الدين محمود الاستادار.

ولا أنتقل من هذا الموضوع قبل أن أذكر لكم أن نساء مصر كان لهن مشاركة في هذه المأثرة، وحصة كبيرة في الغرام بالكتب، وأكتفي الآن باسم الست عاشوارء بنت ساروج الأسدي، وكانت عائشة في أيام صلاح الدين،

والست الجليلة الكبرى عصمة الدين مؤنسة خاتون بنت الملك العادل الأيوبي، وكانت من فُضْليات أهل العلم، واشتهرت بالبراعة في الفصاحة وفنون الأدب، والسيدة الجليلة الكبرى خوندتتر الحجازية بنت السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والست بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان، والست أيديكين زوجة الأمير سيف الدين بكجا الناصري.

وقد بدد الزمن آثار تلكم السيدات الكريمات فلم أقف على كتاب من تلك الخزائن الكثيرة، وغاية الأمر أن في دار الكتب الأهلية بباريس تحت نمرة ٢٧٥١ كتابًا في علم تعبير الرؤيا وهو مرتب على حروف الهجاءِ بشكل معجم ومكتوب في سنة ٨٣٣ هجرية برسم خزانة أميرة من أميرات مصر (إحدى البرنسات) وهي بنت السلطان الملك الظاهر جقمق.

كان هذا الغرام عامًّا في مصر وفي جميع بلاد الشرق. وخصوصًا في المماليك الخاضعة لصولجان صاحب التاج في القاهرة. التي كانت عاصمة للإمبراطورية المصرية، والشواهد كثيرة على هذا الولوع، وحسبي أن أذكر لكم اسمًا واحدًا من باب التدليل، وهو أبو الفدا سلطان حماه وصاحب التاريخ المشهور بـ«المختصر في أخبار البشر» وصاحب الجغرافيا المسماة بـ«تقويم البلدان» الذي طُبع وتُرجِم في باريس، قد جمع في خزانته من الكتب مالا مزيد عليه، وكان في خدمته ما يناهز مائتي مُعَمَّم من الفقهاءِ والأدباءِ والنحاة والمنجمين والفلاسفة والكتبة.

ولو أردت أن أستقصي ما أعرفه عن الكتب وغرام المُولَعين بها أيام كانت الحضارة الإسلامية زاهية زاهرة لطال المُقام ولم تكفني الأيام تتلوها الأيام.

وقبل الختام أذكر لكم قضية وقعت بمصر وهي من أغرب ما سطرته سجلات القضاءِ:

وقفت على كتاب اسمه «كنز الدرر وجامع العبر»[1] لأبي بكر بن عبدالله بن أيبك الدوادار، وهو في تسعة أجزاء ثلثاها بمكتبة أيا صوفيا والثلث الباقي بمكتبة طوب قبو بالقسطنطينية، وهو في تاريخ مصر، وفيه تفصيل غريب وبيان وافٍ لا نراه في التواريخ التي وقعت إلينا. وليس هذا محل الشرح عن هذا السفر الجامع النافع. وقد كان هذا الكتاب موقوفًا على إحدى المدارس بالقاهرة، فاغتصبه بعض الأكابر وأوقفه على مدرسته وقفًا صحيحًا شرعيًّا مرعيًّا، فأقيمت عليه قضية بمجلس الحكم وحصلت المرافعة والمدافعة، ثم أصدر القضاة حكمهم ببطلان الوقف الثاني وإعادة الكتاب إلى مقره الأول باسم واقفه الأول. وقد قضت الأيامُ ببطلان هذين الوقفين، وبانقسام الكتاب إلى شطرين في خزانتين ولكن في غير مصر.

إن العرب في اجتماع أهل الفضل والعلم في دور الكتب كانوا مقلدين لليونانيين في أثينة وللرومانيين في رومية، وكل منهما قد نهج على سُنة أجدادنا المصريين.

أول من مدح الكتب على ما أنبأنا به التاريخ الصحيح هو: أوّل من أسس لها دارًا خصوصية بديار مصر وجعل منفعتها عمومية.

أنا لا أجاري بعض الغلاة من العرب ومن أربى عليهم من المتهوِّسين الألمانيين الذين قالوا بوجود دور الكتب قبل حدوث الطوفان، وأخذوا يتصيَّدون الأقاويل من هنا ومن هناك ويقيمون الدلائل على غير طائل، محتجين على ذلك بتعليم آدم والأسماء، وبالأعمدة التي نقشها شيث، وبالصحف التي نزلت على إدريس، ويكفينا أن نقنع بما هو وراءَ ذلك وهو قديم بل قدموس حتى لا نخوض بحور الخيال ونهيم في أودية الأوهام. حسبنا أن نرجع إلى ما

---

(١) كذا، وقد طبع الكتاب عن دار الكتب المصرية في تسعة مجلدات، واسمه «كنز الدرر وجامع الغرر».

هو قبل اليوم بأكثر من ٣٢٠٠ سنة فهنالك نصل إلى التاريخ الثابت المنقوش على الأحجار، وهو مما لا جدال فيه ولا مراء. فتلك الأطلال الماثلة إلى الآن في صعيد مصر تنطق لنا بلسان هيروغليفي مبين وتقول: إن اوسيماندياس فرعون مصر الذي سماه اليونان سيزوستريس ورمسيس الثاني هو أول من أسس دار الكتب في مدينة طيبة بالصعيد، وهو أول من مدح الكتب بعبارة وصلت إلينا، وذلك أنه نقش على باب تلك الدار كلمتين اثنتين جعلهما رمزًا عليها وتلخيصًا لكل ما فيها وهما:

(شفاءُ الأرواح):

ولعمري أن هاتين الكلمتين هما أبلغ مِن كلّ ما جادت به القرائح بعده في شرق البلاد وغربها، وما هو مأثور عن عَجَم الأمم وعَرَبها.

وعن المصريين اقتبس اليونان علومَهم ومعارفهم ونظاماتهم، ولكنهم لما جاءَ الدور لهم لم يتيسر لهم إِنشاءُ مكتبة عمومية إلا بعد الفرعون المصري بربوات من السنين لا تقل عن الخمسة القرون، وذلك أن طاغية بيسسترات هو أول من أحدث بمدينة أَثينس (أي أثينا) دارًا من هذا القبيل لاستفادة الخاص والعام، وكان ذلك قبل القرن السادس للميلاد، وجمع فيها أشعار أوميروس بعد أن تلقفها من أفواه الرواة، كما كان شأن العرب من بعده باثني عشر قرنًا في أيام بني أمية وبني العباس. وما لبثت هذه الدور أن انتشرت بأرض اليونان كما يشهد بذلك بيت قاله شاعرهم أرسطوفان:

وفي يـــد كـــل إنســـان كتـــاب
يلقنـــــه أفـــانـــــين العلـــــوم

وتولَّع اليونان بجمع الكتب والحثّ عليها لدرجة لا تكاد تكون محمودة:

دخل حاكمٌ إلى مدرسة النحو بأثينا فطلب من الأستاذ نسخة من ديوان أوميروس. فأعلمه المعلم بعدم وجودها، فما كان من الحاكم في هذا الإهمال إلا أن صفعه وخرج.

ثم تهوَّس القومُ بجمع الكتب من غير استفادة أو إفادة، حتى رأى أديبهم لوسيان الشميشاطي أن يكتب رسالة بليغة في هجو رجل جمع من الكتب طائفة وفيرة لمجرد الاشتهار بأنه جمَّاع للكتب. قال ذلك الأديب يخاطب ذلك المذموم بما ترجمته.

«في وسعك أن تعير الكتب لغيرك فتكسب أجرًا وفيرًا، ولكن ليس في طاقتك أن تستفيد منها فتيلًا ولا قطميرًا. على أنك ما أعرت منها أحدًا شيئًا مذكورًا، فكان مثلك كالكلاب التي تنام في إسطبل الدواب، فهي لا تقدر على أكل ما فيه من الشعير، ولكنها تمنع منها الخيل وهي قديرة على الانتفاع بأكله».

ولو تأخر هذا الأديب المجيد لخرَّ ساجدًا إذا سمع قول الكتاب المجيد: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥]. فانظروا يا رعاكم الله إلى حُسن الديباجة وإلى هاتيك الإجادة!

وأما قول لوسيان فما أشبهه بقول الجاحظ ولكن في ذم الخصيان ولا أزيد على هذا البيان بغير الإشارة عليكم بمراجعة كتاب «الحيوان»، وإليكم مثلًا مما قاله العرب في ذم من يجمع الكتب وهو لا يدري بما فيها:

زواملُ للأخبار لا علم عندهم
بجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدري البعير إذا غدا
بأوساقه أو راح ما في الغرائر

فلما جاءَ دور الرومان أنشأَ الامبراطور يوليان المنبوذ بـ«المرتد» وفي كتب العرب «بالمارق» دارَ كتبٍ في القسطنطينية، وأراد أن يتشبه بفرعون مصر ولكنه لم يبلغ شأْوه فكتب على بابها هذه العبارة:

«**لبعض الناس صبابة بالخيل، ولبعضهم ولع بالطير، ولآخرين غرام بالوحش، وأما أنا فقد تدلّهت منذ نعومة أظفاري بشراءِ الكتب واقتنائها**».

ومما امتازت به مدينة القسطنطينية: أنها في أيام النصرانية حفظت في كنائسها علومَ الأقدمين حتى جاء العرب فاستفادوا منها ونشروها من قبورها، وكان لهم بهذه الوسيلة القدح المعلى في ترقية الحضارة وبني الإنسان. وكذلك امتازت في أيام الإسلام بحفظ ما جادت به قرائح العرب الكرام في مساجدها، وما علينا سوى اقتفاءِ أثرهم واتباع سُنتهم. وقد فتحت لكم الباب وحسبي ذلك فخرًا.

جاء العرب في أيام العباسيين فانتهت إليهم كلمة عن سقراط فكانت محرِّكة لعزائمهم وجعلتهم أئمة الأمم وقادة الأفكار.

قيل لهذا الفيلسوف: أما تخشى على عينيك من إدامة النظر الكتب؟ فقال: إذا سلِمَت البصيرة لم أحفل بسقام البصر.

وفي هذا المقام لا يصح إغفال ذِكْر المأْمون فهو أول من أسَّس دارَ كتب عامة في الإسلام وسماها: بيت الحكمة، كما أنه أول من أسس مجمعًا للعلوم (**أقاذيميًّا**) وسماه: دار العلم. هذا فضلًا عن خزانة كتبه الخصوصية التي يروي لنا عنها ابن النديم كلَّ معجِب ومطرِب.

كان بمدينة الإسكندرية حاكم يسمى خليل ابن شاهين الظاهري اشتهر بتأْليفين أحدهما في عالم اليقظة والآخر في عالم المنام، فأما الأول فهو كتاب «**زبدة كشف الممالك في بيان الطرق والمسالك**»، ثم اختصره وسماه «زبدة

كشف الممالك» وهو كتاب مفيد في وصف بلادنا وأعمالها ودواوينها ووظائفها ونظاماتها وغير ذلك من محاسن هذه المملكة مع سرد أبيات مما نظمه بعض ملوكها وسلاطينها، إلى غير ذلك من النوادر والفوائد. ولا حاجة لي بأن أقول لكم: إنه لا يوجد من هذا الأثر النفيس ولا نسخة واحدة مخطوطة بديار مصر كلها، وهي وطنه ووطن مؤلفه، بل هي موضوعه ومدار مباحثه.

أما الكتاب الثاني فقد سماه «**الإشارات في علم العبارات**» والعبارة هي تعبير الرؤْيا وتفسير الأحلام، واسم العلم بالفرنسوية مأْخوذ عن اليونانية. قال صاحب «**كشف الظنون**»[1]: «**كانت العرب في صدر الإسلام لا تعتني بشيءٍ من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها وبصناعة الطب، فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم لحاجة الناس طرًّا إليها. وذلك منهم صونًا لقواعد الإسلام وعقائد أهله عن تطرُّق الخلل من علوم الأوائل قبل الرسوخ والإحكام**».

وأقول: إن الشارع هو الذي دعاهم إلى تقييد العلم على إطلاقه فقد جاء في الحديث الشريف[2]: العلم صيد والكتابة قيد. قيدوا رحمكم الله علومكم بالكتابة.

أخذ الشاعر قول الشارع فصاغه في بيت سائر ونظم بارع:

العلــــم صيـــدٌ والكـتابة قيـــدُه

قيّـــد صيـودك بالحبـــال الواثــقـه

---

(١) ١/ ٣٤

(٢) هذه العبارة منقولة من «كشف الظنون» الموضع السابق، وليس هناك حديث بهذا السياق، وقوله «العلم صيد والكتابة قيد» قول مأثور لبعض القدماء، والأبيات منسوبة لمالك بن أنس كما في حاشية إعانة الطالبين: ٤/ ٥. وقوله:«قيدوا العلم بالكتاب» روي مرفوعًا عن من حديث أنس أخرجه الخطيب في تاريخه: ١٤/ ٤٦، ولوين في جزئه ٥٤. وله شاهد من حديث عمرو بن العاص أخرجه الحاكم: (١/ ١٠٦). وصححه الألباني في الصحيحية (٢٠٢٦) بشواهده. وروي موقوفا عن عمر بن الخطاب وابن عباس في مصنف ابن أبي شيبة (٢٦٩٥٥، ٢٦٩٥٦)، وأنس عند الحاكم: (١/ ١٠٦)، والطبراني في الكبير: (١/ ٢٤٦) بأسانيد جيدة.



ثم مدحوا الكتب كما مدحها فرعون مصر وقياصرة الروم من قبلهم فقال العتابي، وهو من أجلاء عصر الأمين والمأمون:

لنـــا ندمـــاءٌ لا نمـــلّ حديثَهـــم
أمـينون مـأمونون غـيبًا ومـشهدا

يفيـدوننا من علمهم علم ما مضى
ورأيًا وتأديبـــًا وأمـــرًا مـــسدَّدا

بـــلا علـة تُخشى ولا خوف ريبة
ولا نتقي مـنهم بنـانًا ولا يـــدا

ومدحها ابن طَباطَبا العلوي:

لله إخـــوان أفـــادوا مـــفخرا
فبـوصلهـم ووفائهـم أتكـثَّر

هـم ناطقـون بغير السـنة تُـرى
هـم فاحصون عن السـرائر تضمر

إن أبـغ مـن عرب ومـن عجم معًا
علـمًا مـضى فيـه الدفـاتر تخـبر

حـتى كـأني شاهـد لزمـانها
ولقـد مضت من دون ذلك أعصر

خطباء إن أبغ بها الخطابة يرتقـوا
كفِـيّ كفِـيّ للدفـاتر مـنبر

كـــم قد بــلوت بها الرجــال وإنــما

عقـــل الــفتى بكــتاب علم يســبر

كــم قــد هزمت بها جليسًا مــبرمًا

لا يســـتطيع لـــه الهزيمــة عســكر

وهو ينظر بقوله الأخير إلى جواب جالينوس فقد قيل له: لم كان الرجل الثقيل أثقل من الحمل الثقيل؟ فقال: لأن ثقله على القلب دون الجوارح، والحِمْل الثقيل يستعين القلب بالجوارح عليه.

وفي ذلك المعنى الذي أشار إليه ابن طباطبا وهو في مصر قول لمونتسكيو (ابن خلدون فرنسا) وهو في باريس قال ما ترجمته: ما حلَّ بي جيشُ الهموم إلا بدّدته بساعة واحدة من القراءة.

ومَدْح العرب للكتب كثير جدًّا أكتفي منه بكلمة واحدة منثورة: أهدى بعض الكُتّاب إلى صديق له دفترًا وكتب إليه: هديتي هذه أعزك الله تزكو على الإنفاق وتربو على الكدّ، لا تفسدها العواري ولا تُخْلِقها كثرةُ التقليب. وهي أُنْسٌ في الليل والنهار والسفر والحضر، وتصلح للدنيا والآخرة، وتُؤْنس في الخلوة وتُـمْتِع في الوحدة، مُسامِرٌ مِطْواع ونديم صديق.

وقال آخر: الكتب بساتين العلماء.

ولكن كلّ هذه الأقوال وما شابهها مما نرويه عن المتقدمين والمتأخرين لا تعادل الكلمتين اللتين قالهما فرعون مصر عن الكتب:

«شفاءُ الأرواح»:

ولقد قام رجل من مشاهير الإنكليز في أوائل القرن التاسع عشر وهو بلور ليتون فأشار بمطالعة الكتب لإزالة أنواع الأمراض، قال ما خلاصته: لقد اختلج في ضميري أن أنظم دور الكتب على نسق جديد مفيد، فبدلًا من أن يكون مكتوبًا على الخزائن والدواليب والرفوف هذه الكلمات: لغة. علوم طبيعية. فن القريض، ونحو ذلك أشير باستبدال هذه الكلمات بأسماءِ الأمراض التي تنتاب الجسم والروح مما يمكن مداواته بالمؤلفات الموجودة فيها من داءِ النقطة إلى أخف النزلات، فهذا النوع الأخير من الأسقام يصلح له قراءَة الكتب الهَزْلية مع منقوع الشعير في قليل من اللبن الحليب، فإذا غشي النفسَ همٌّ من الهموم التي يمكن إزالتها مثل عدم تحقق الأماني أو معاكسة الإخوان أو معاندة الزمان ففي هذه الحال يحسن بالمصاب أن يتلو تراجم الأعيان والأفراد فيتسلى بما أصابهم من البلايا ويزول مرضه بإذن الله. فإذا ما طمّ الهمّ وعمّ الغمّ فالروايات أنجع دواءٍ لهذا السقم. ولكن إذا حلت بالإنسان مصيبة فادحة وجب عليه أن يستغرق كلَّ عقله ولبه وقلبه في عمل من الأعمال العقلية التي تجعله ينسى نفسه وما حل به من الأرزاءِ.

واستشهد المستنبط لهذا الطب الجديد الغريب بما حلَّ بشاعر الألمان (جيته) فإنه حينما مات ولده تفرَّغ لدراسة علم جديد وقيل: إنه أكمل فصول بعض رواياته البديعة فجاءت في نهاية البلاغة والإعجاز.

فانظروا الآن إلى ما صنعه الإسكندر الأكبر حينما هزم (دارا) ملك الفرس فإنه ظفر في جملة الغنائم الملوكية بصندوق بديع الصنعة فقال للمقربين إليه: لأي شيءٍ يصلح هذا الصندوق؟ فأجاب كل منهم بما رآه. ولكن سيد الفاتحين

لم يعجبه قولهم وقال: إنما يليق هذا الصندوق لحفظ إلياذة أوميروس.

وفي أيام الإسلام ظفر الحجاج بن يوسف عامل بني مروان بصندوق عجيب من ذخائر الفرس، فأمر بفتحه فوجدوا صندوقًا آخر ففتحوا فوجدوا صندوقًا آخر ثم رابعًا وخامسًا وسادسًا وسابعًا فقال الأمير: لعل فيه حماقة من حماقات الفرس. ففتحوا وإذا فيه بطاقة مكتوب عليها هذه العبارة: (من مشط لحيته في كل يوم طالت): ونحن لم نخرج الموضوع لأن هذه الوصية كانت مكتوبة على قطعة من الحرير وأنني أقلِّب الطّرْف يمينًا وشمالًا فلا أجد من أوصيه بها ليخبرنا بصحتها بعد العمل بها.

ولا يخفى عليكم أن عرب الشرق هم الذين أحيوا علوم العرب ونشروها، وها هم عجم الغرب يعلمون على هذه السنة الآن في ألمانيا وفرنسا وانكلترا وإيطاليا وهولاندة وأسبانيا والروسيا وسائر بلاد أوربا وأمريكا، ولا أملَ لي إلا أن أرى أهلَ مصر يشاركونهم، فهم أحَقّ بتراث أجدادهم، ولا يكون ذلك ولن يكون إلا بالعناية بالكتب.

هل أتاكم حديث فرنسا وناهيكم بها في العلم والحضارة والعرفان؟

إنها مدينة لمصر الإسلامية بدينين عظيمين في إنشاءِ دور الكتب العمومية.

أوّلهما يرجع إلى أيام الحروب الصليبية. فإن الملك القديس لويس وهو التاسع بهذا الاسم شنّ الغارة على مصر في أول دولة المماليك البحرية، ثم عاد أدراجه مهزومًا، ولكنه رجع ظافرًا بفكرة حميدة ومأثرة جميلة. وهي أنه اقتبس عن أجدادنا فكرة جمع الكتب بعضها مع بعض في دار واحدة وفتحها في وجه الجمهور لينتفع بها الخاصة والعامة.

أترك الكلام لكاتب سيرته وإمامه في صلواته فقد قال ما خلاصته:

«إن الملك التقيّ الورع القديس لويس وصل إلى سمعه وهو فيما وراء البحار أن سلطانًا من سلاطين الشرقيين يبذل عنايته في البحث عن الكتب المختلفة الأنواع وفي استنساخها على نفقته، ثم يضعها في دار عمومية ليستفيد من مراجعتها علماء بلاده، فإنه كان يجعل هذه المجاميع تحت تصـرُّف جميع الطالبين. فأراد القديس لويس أن يتشبه بهذا السلطان وعزم على بذل المال بمجرَّد عودته إلى فرنسة لنسخ الأسفار النافعة وصحاح الكتب المقدسة التي يتأتّى له العثور عليها في الأديار، ليتمكَّن هو ورعاياه العاكفون على علوم الأدب من درسها وحرثها للانتفاع بها وإفادة الجار والقريب بمعارفهم، وقد أنجز هذا القصد فأمر بإعداد مكان لائق أمين في باريس جمع فيه كثيرًا من تصانيف القديس اغسطينوس وأمبرواز وجيروم وغريغوار، وبقية أئمة المذهب الأرثوذكسي. وكان يذهب في أوقات الفراغ للقراءَة في هذا المكان، ويسمح لغيره عن طيبة خاطر بمشاركته في مناجاة المؤلّفين. وكان يؤثر استنساخ الكتب على شراءِ أصولها لأن ذلك في رأْيه من شأنه أن يزيد في عدد الكتب المقدّسة ويجعلها أكثر فائدة. وكان حينما يقرأ في تلك الكتب بمحضـر من خدمه وحشمه الذين لا يفهمون اللاطينية يترجم لهم بالإفرنسية مالا يدركونه من العبارات».

غير أنه في آخر عمره أصابه دخل في عقله فبدَّد شمل تلك المجموعة وأمر في وصيته بتوزيع الباقي على الأديار.

وأما الدَّين الثاني الذي لنا على فرنسا فيرجع إلى عهد قريب منا، وبيان ذلك: أن القائد بونابرت عند هَجْمته على مصـر في فجر القرن الماضي على التاريخ الميلادي نهب كثيرًا من بقايا الكتب النفيسة التي كان أجدادنا أخفوها أو

وجدوها بعد الفتح العثماني. وكلّ مَن ذهب إلى باريس أو اطلع على فهرس دار الكتب الأهلية فيها يأخذه العجب العجاب إن لم تساوره الأشجان والأحزان. فلقد أصبحنا إذا احتجنا إلى شيءٍ من مؤلفات المصريين الخاصة بمصر لا نرى منها شيئًا في بلادنا، ولا بدّ لنا من الرحلة والتغرُّب لتطلُّبها في بلاد الغرب.

ولقد أدرك محمد علي ذلك عندما أراد أن يجدّد العِلْم في ربوع مصر فأرسل نفرًا من نابغي الأزهر الشريف فعادوا وأفادوا جدد الله عهدهم. ورافعُ رايتهم هو المرحوم رفاعة بك، فطالما أنشأ وأنشد وصنف وألف وترجم وعرّب وكلّنا عيالٌ عليه وعلى أولاده.

اعلموا أن للعرب وللإسلام سرًّا عجيبًا في تاريخ الحضارة والعمران. فالعرب أينما حلوا انتشرت لغتهم قليلًا قليلًا، ثم سادت رويدًا رويدًا، ثم انتهى أمرها بالانفراد والاستقلال. كذلك الإسلام أينما انتشرت رايتُه استهوى العقولَ والألباب. ولكن الغريب أن العجم هم الذين ينشرون علومَ العرب ودِين العرب، حتى لقد قال الخليفة الأموي سليمان بن عبدالملك: «**عجبت لهذه الأعاجم ملكَتْ الدهر فلم تحتج إلى العرب، وملكت العرب فلم تستغن عنهم**». وماذا كان يقول هذا الخليفة ودولته أُموية عربية محضة؟ وماذا كان يقول لو عاش حتى رأى عصر العباسيين؟ أو لو بُعِث من قبره هذه الأيام ورأى حاجة العرب إلى الأعاجم في كل شيء من مرافق الحياة وحاجتهم إليهم حتى في إحياء آثارهم أو التهافت على اقتناءِ مآثرهم.

ماذا كان يقول لو علم بالقصة الآتية؟

تعلمون أن التتار هم الذين خرَّبوا دولة العرب ودكّوا معالم الإسلام، ومع ذلك فمن أغرب الغرائب وأعجب العجائب أنهم ما لبثوا أن دانوا بدين

المغلوبين وتشبَّهوا بملوكهم البائدين في إحياء العلوم وتوسيع نطاق العمران. سرٌّ من أسرار الطبيعة لا نراه إلا في شؤون العرب ومعارفهم. فبعد أن هلك هلاكو، وبعد أن مارت الأرض بتيمور، فأدخلته في تامورها جاءَ أحفادهما فدخلوا في دين الله أفواجًا هم وأقوامهم، وارتفع بهم منارُه في بلاد آسيا الوسطى وفي بلاد الهند إلى أوائل الجيل الماضي، ومن أشهرهم في العلم والعلماء (ألغ بك) واسمه محمد بن شاهر روخ، اعتنى هذا الرجل بعلم الفلك وألف فيه زيجا باللغة الفارسية، ترجمه إلى العربية بعض أفاضل المصريين، والترجمة في خزينتي بمصر، وجمع هذا الرجل خزانة من الكتب النفيسة رأيت من بعض بقاياها: كتاب الصور السمائية لعبدالرحمن بن عمر بن محمد بن سهل الصوفي ويسمى بأبي الحسين ويعرف بكتاب صور الكواكب وبكتاب الكواكب الثابتة، وهو الذي أريد أن أحدثكم عنه في هذه الساعة.

هذا الكتاب لا أبالغ في فضله ولا أذكر شيئًا من محاسنه وإنما أقول لكم: إن الروس عرفوا قدرَه فطبعوه في بلادهم، ثم أوعزوا إلى أحد علماء الفرنسيين فترجمه إلى اللغة الفرنسية وطبعوا هذه الترجمة أيضًا في بطرسبرج. وهذا الصنيع المزدوج يدلكم على فضل الكتاب وفائدة. وإذا بحثتم في أرض مصر من الشلالات إلى الأشاتيم، ومن بادية العرب إلى صحراءِ لوبيا لا تجدون سوى الترجمة الفرنسية، وسوى الترجمة الفارسية في دار الكتب الخديوية. أما الأصل العربي فقد لبس طاقية الاختفاءِ وتطاير في الفضاءِ وهجر ديارنا وواصلَ غيرنا فيما وراء البحار، ورحل عن أرضٍ أُهين بها إلى بلادٍ ظهرت قيمتُه بين أهلها بحيث إن العرب الذين صدر الكتاب بلغتهم إذا احتاجوا الآن لمراجعته وجب عليهم أن يتلقنوا إحدى هاتين اللغتين الفرنسية أو الفارسية، أو أن يذهبوا إلى بطرسبرج وإن استبعدوها فإلى باريس وهنالك يجدون منه خمس نسخ، استغفر الله، بل ستًّا لأن السادسة هي التي سأتكلم عليها.

ففي سنة ١٨٩١ عثر يوسف بك خلاط على نسخة ملوكية من هذا الكتاب مكتوبة على ورق الحرير بألوان مختلفة بالنسخ والثلث وقد بلغ الكتاب فيهما نهاية الإجادة والإتقان وازدانت بصور ملونة باهية زاهية يتدفق فيها الذهب واللازورد على أحسن شكل وأجمل مثال.

وفوق هذه المزايا التي تجعل للنسخة قيمة يتنافس فيها المتنافسون ويتعشَّقها العارفون فإنها حوت أثرًا آخر يزيدها قيمة لدى أهل الدراية. ولكن أين هم في ديارنا...؟! وذلك أنها مكتوبة برسم خزانة الملك العالم المؤلف (الغ بك) وعليها اسمه بخطه، فصارت بذلك نادرة النوادر وذخيرة الذخائر.

عرضها يوسف بك على دار الكتب الخديوية فقوّمتها (إني لأستحي من ذكر القيمة...) ولكن أقولها لكم لتعلموا مقدار تفريطنا. قومتها بخمسة عشر جنيهًا مصريًا. وظنت أن ذلك شيء كبير. وكيف لا وهذا المبلغ يساوي الألف ونصف الألف من القروش أو خمسة عشر ألف مليم: توجه صاحب الجوهرة إلى الغازي مختار باشا فزاده الربع. توجه إلى الإرسالية العلمية الفرنسية بالقاهرة الكائنة الآن بجوار دار ناظر المعارف الحالي فضاعفَتْ له الثمن أربعَ مرّات، ووعدْتَه فوق هذه المساومة بوسام المجمع العلمي الفرنسي. فقبض الثمانين جنيهًا، ولا أدري إذا كان أحرز النشان ولكنه اشترط أن يكتب اسمه ببنانه على تلك النسخة، فقبِلَ القومُ شرطَه وأرسل الكتاب إلى باريس تكميلًا لنصف الدستة وأصبحت نسخهم ستًّا.

روى صاحب كتاب «**الفهرست**»[1] أن أبا زكريا يحيى بن عدي النصراني المتوفى ببغداد سنة ٣٦٤ قال: إنه رأى في تركة إبراهيم بن عبدالله الناقل

(١) ص٣١٢.

النصراني كتاب «**السماع الطبيعي**» كله، وكتاب «**البرهان**» لأرسطو مشروحَين بقلم الاسكندر الأفروديسي، وعندي قطعة وافرة من (كتاب البرهان) وأنهما عُرِضا عليه بمائة دينار وعشرين دينارًا، فمضى يحتال في الدنانير ثم عاد فأصاب القوم قد باعوا الشرحين في جملة كتب على رجل خراساني (أعجمي من الفرس) بثلاثة آلاف دينار، وكانت هذه الكتب مما يُحْمَل في الكُمّ.

قال القاضي الأكرم الوزير القِفطي المصري بهذه المناسبة في كتابه المترجم «**بتراجم الحكماء**»[1] المطبوع في لبيسك من أعمال المانيا ما نصه: «**فانظر إلى همة الناس في تحصيل العلوم والاجتهاد في حفظها، والله لو حضرت هذه الكتب المشار إليها في زمننا هذا وعُرِضت على مدعي علمها ما أدّوا فيها عُشر معشار ما ذكر**».

وماذا كان يقول لو سمع الحكاية التي رويتها لكم عن كتاب الصوفي؟! نعم إن الخراساني اشترى الكتب بثلاثين ضعفًا، وأما الفرنسيون فاشتروا كتاب الصوفي بأربعة أضعاف لأنهم لم يجدوا في مصر من يزاحمهم كما جرى في بغداد.

وأقول لكم: إن يحيى بن عدي النصراني المذكور كان من أكابر المؤلفين والمترجمين ومحققي الفلاسفة، وكان من المغرمين بجمع الكتب ونسخها بيده، وكان أوحد دهره، ومذهبه من مذاهب النصارى اليعقوبية. رآه ابن النديم في سوق الورّاقين فعاتبه على كثرة نَسْخه فقال: «**من أي شيءٍ تعجب في هذا الوقت. مِن صبري؟ قد نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري، وحملتهما إلى ملوك الأطراف. وقد كتبت من كتب المتكلمين مالا يُحصَى، ولعهدي بنفسي وأنا أكتب في اليوم والليلة مائة ورقة**».

---

(١) ١/ ٥٤.

ونحن نعلم أن النويري المصري صاحب كتاب «**نهاية الأرب في فنون الأدب**» كان يكتب في اليوم والليلة ثلاثة كراريس أي ستين ورقة[1]. فلم يبلغ شأْوَ هذا المتقدّم مع أن جميع المؤَرخين يعجبون بابن وطننا الذي سترون أثره الجامع لكل العلوم والمعارف في السنة المقبلة إن شاءَ الله.

كل هذه الأعمال -وهي قطرة من بحر- تدلُّكم على مقدار الغرام بالكتب، وأنه إذا استولى على العقل فلا يجد المدْنَف العاشق لذة في شيءٍ آخر. وهذا الغرام ليس قاصرًا على الشرق أو على الغرب بل هو داء مستحكم في نفوس الناس على اختلاف الأوطان والأديان والأجناس.

نرجع إلى ذكر السرقات في الكتب وأروي لكم حادثتين وقعت إحداهما لرجل من أفاضل الإسكندرية، وكان للثانية شأن كبير بالجامع الأزهر في القاهرة.

فمن الرجال الذين يحق للإسكندرية أن تفتخر بأنها أنجبتهم: أبو الفتوح نصر بن عبدالرحمن الإسكندري النحوي الجغرافي، ألَّف كتابًا فيما اختلف وائتلف من أسماءِ البقاع، وقد ضبطه وأفنى في تحصيله وتحقيقه عمرَه، فأحسن فيه كلَّ الإحسان. فجاء أبو بكر زين الدين محمد بن موسى الهَمَذَاني المشهور بالحازمي المتوفى سنة ٤٨٥ فسطا عليه برمَّته وادعاه واستجهل الرواة فرواه، نبَّه على ذلك ياقوت الحموي في صدر «**معجم البلدان**»[2] بقوله: «**ولقد كنتُ عند وقوفي على كتابه أرفع قدره من عمله، وأرى أن مرماه يقصر عن سهمه، إلى أن كشف الله من خبيئته وتمحَّض المحض عن زُبدته**».

---

(١) ومما نسخ: صحيح البخاري، فقد نسخه ـ عن نسخة شيخه اليونيني ـ سبع مرّات بخطه، كل نسخة في مجلد واحد، وكان يبيعها بألف دينار، وقفت على نسختين منها، إحداهما نسخت سنة ٧١٥، والأخرى سنة ٧٢٠ . كما ذكر هو عن نفسه في «نهاية الأرب»: (٣٢/ ١٧).

(٢) ١/ ١١.

أقول: إنه رغمًا عن هذا التنبيه مازال الكتاب مشهورًا باسم السارق، فإن صاحب «**كشف الظنون**» لم يذكر غيره وسماه «**كتاب ما اتفق لفظه واختلف مسماه في الأماكن والبلدان المشتبهة في الخط**». وعلى كل حال فالكتاب لم يصل إلينا[1].

وأما الحادثة الثانية، فقد وقعت بالقاهرة في ختام القرن التاسع للهجرة. وذلك أن الإمام شهاب الدين أبا العباس أحمد بن محمد القسطلاني المصري المتوفى سنة ٩٢٣ أَلَّف في السيرة النبوية كتابه المشهور المتداول بيننا الآن وهو «**المواهب اللدنِّية بالمنح المحمدية**» فما راعه بعد أن فرغ من تبييضه في سنة ٨٩٩ إلا وقد رفع جلالُ الدين السيوطي دعوى عليه أمام شيخ الإسلام زكريا الأنصاري. وهاك بعضَ ما ورد في صحيفة الدعوى: «أنه يسرق مِن كتبه ويستمدّ منها، وينسب النقلَ إلى نفسه» طالبه شيخُ الإسلام ببيان ما ادعاه. فقال: إنه نقل عن البيهقي وله عدة مؤَلفات فليذكر أنه نقله عنه. ولكنه رأى ذلك في مؤلفاتي فنقله، وكان الواجب عليه أن يقول: نقل السيوطي عنه.

ماذا كانت النتيجة؟ انظروا واعجبوا.

صدر الحكم على القسطلاني بالترضية اللازمة للسيوطي وإزالة ما في خاطره. كيف كان التنفيذ؟

مشى القسطلانيُّ من القاهرة إلى الروضة (جزيرة المنيل) وكان السيوطيُّ معتزلًا عن الناس بها، فوصل إلى بابه ودقّه فقيل له: مَن أنت؟ فقال: أنا القسطلاني جئت إليك حافيًا ليطيب خاطرك. فقال له: قد طاب. ولم يفتح له الباب.

---

(١) لكنه وجد بعد ذلك بحمد الله، وطبع في مجلدين.

فأين أين ذلك الزمان مما نحن فيه الآن؟ أفرأيتم لو رفع المجنيُّ عليهم قضاياهم من هذا القبيل على السارقين الذين فاقوا القسطلاني، قولوا لي بربكم: هل كانت تكفينا المحاكم الشرعية والبطريركية والأهلية والمختلطة والقنصلية ولجنات النفي الإداري؟

لعمري إن تجارَ الأحذية كانوا يفلسون كلّهم في يوم واحد [لو] اقتدى السرّاق بما فعله القسطلاني!! ولكن التبجُّح وانتهاك الحرمات وصلا في زماننا إلى درجة لا مزيد عليها، خصوصًا وأن انتشار الطباعة ساعد على نموّ هذا الطبع.

وتلك الصناعة قد كان لها أصل عند العرب في مصر والأندلس وإن كان الأثر الناطق بذلك قد ذهب من بلادنا، ولكن الإفرنج حفظوه لنا أثابهم الله عنا خير الثواب ووفقنا إلى اقتفاءِ خطواتهم في النافع بدلًا من تهالكنا على تقليدهم في كل ضار.

أخبرني الأستاذ الفاضل حفني بك ناصف أنه رأى خشبة محفوظة بمكتبة وياتا عاصمة النمسا في جملة ما ازدانت به من آثار العرب وثمرات عقولهم، وهذه الخشبة منقوشة عليها بالتجويف كتابةٌ عربية مقلوبة على الطريقة المألوفة في اصطناع الأختام، وأنها كانت مستعملة لطبع الأوامر العسكرية وتوزيعها على الجنود، كما هو الشأن في أيامنا هذه في «**الغازته العسكرية**» وذلك يستفاد من العبارات المنقوشة عليها، وهذه الخشبة يرجع عهدها للفواطم، وربما نشر صورتها عن قريب بعض علماء المستشرقين فتكون برهانًا على تولد هذا الفن بديار مصر.

وأما الأندلس فقد ترقّت إلى ما وراءَ هذه الخطوة الأولى، فقد كان للأندلس في هذا الباب ثلاث خطوات:

الأولى: أنهم قلدوا مصر في عهد الفواطم ولكن أثرهم لا يزال باقيًا في ديارهم، وها أنا أُطْرِفكم بصورة فتوغرافية منه كهدية للعيد السعيد، وهي صورة الطابع الذي كان يستعمله أهل الأندلس في مدينة المَرِيَّة عثروا عليه في أطلالها وخرائبها، وهو مصنوع من الخشب، والكتابة التي عليه تدلّ على أنه كان مستعملًا في قيسارية المَرِيَّة. ولفظة «قيسارية» تدل على السوق، ولا تزال مستعملة بهذا المعنى في القاهرة وفي كثير من مدائن الشرق، وأصلها مشتقّ من اسم قيصر، كما أنه اسم موضوع للدلالة على مدائن كثيرة بآسيا الصغرى منسوبة إلى قيصر. ولا شكّ أن هذا الطابع كان مستعملًا بصفة الدمغة (التمغة) التي كانت مستعملة في مصر إلى عهد قريب، لوضعها على الأقمشة والزعايط في نظير تأدية الرسوم المطلوبة لخزينة الحكومة.

كذلك كان ذلك الطابع يوضع على الأقمشة والطرود التي يجب دفع الرسوم عليها قبل دخولها إلى السوق أي القيسارية في تلك المدينة مدينة المرية، كما يستفاد من الكلمات المكتوبة فيه وهي: طابع قيسارية المرية عام خمسين وسبعمائة.

وأما الخطوة الثانية: فهي أن الإشراف على دار الطباعة كان من خطط الدولة.

يدلّكم على ذلك النصُّ العربي الذي نبه إليه العلامة جايانجوس الأسباني، وهذا النص وارد في كتاب «**الحلل السيرا**»[1] لابن الأبّار الأندلسي المشهور، وقد طبع العلامة دوزي الهولاندي قطعة وافرة من هذا الكتاب الثمين في مدينة ليدن من سنة ١٨٤٧ إلى ١٨٥١. وأنتم تعلمون أن ابن الأبار هو الذي أرسله صاحبُ الأندلس ليستنجد بصاحب تونس، وهو ذلك الرسول الذي وقف

(١) كذا، واسم الكتاب «الحلة السيراء»، وهو مطبوع.

بحضرة ملك تونس وأنشده تلك القصيدة الطنانة الرنانة التي تستفز الجبان ويلين لها قلب الجماد. قال في مطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا

إن السبيل إلى منجاتها دَرَسا

ومحلّ الشاهد أن ابن الأبار يقول في كتابه المذكور: إن عبدالرحمن الناصر الخليفة الأكبر (ولى بدر بن أحمد الوزارة والحجابة والقيادة والخيل والبرد وكان ينفرد (أي بدر) بالولايات فتكتب السجلات في داره ثم يبعثها للطابع فتطبع و تخرج إليه فتبعث العمال وينفذون على يديه.

نعم إن هذا النص سقيم ويحتاج إلى تقويم، ولا بدّ من مراجعة الأصل وتقويته بنصوص أخرى. وربما كان المراد وضع الطابع عليها. ولكن هذا الغرض بعيد لأن الطابع على ما نفهم لا يصح وجوده بيد غير الوزير كما هو معهود في الدول الإسلامية حتى إلى الآن في الباب العالي. وإلا ظهر أن ذلك يشير إلى إخراج نسخ متعددة من مطبعة حجرية لتبليغها إلى أهل الولايات ورؤُوس الواحات.

أما الخطوة الثالثة النهائية: فلنا عليها دليل مما أورده لسان الدين ابن الخطيب في كتابه المترجم «بالإحاطة في أخبار غَرناطة»[1] قال في ترجمة الشيخ أبي بكر القدسي ما نصه: وألف كتاب «الدرة المكنونة في محاسن اسبطبونه» وألّف تأليفًا حسنًا في ترحيل الشمس ومتوسطات البحر ومعرفة الأوقات بالأقدام، ونظم أرجوزة في شرح «**ملاحن ابن دُرَيد**» وأرجوزة في شرح كتاب الفصيح، ورفع الوزير الحكيم كتابًا في الخواص وصنعة الأمدة وآلة طبع الكتاب غريب في معناه).

---

(١) ٣/ ٥٤.

هذه العبارة اكتشفها اثنان من علماء الإفرنج تمكنا منها بشرح طويل في جرنال آسيا سنه ١٨٥٢. فأنتم ترون فضل عجم أوربا في البحث والتنقيب عن مآثر العرب. نعم إنهما أرادا تصحيح العبارة العربية من حيث استقامة الكلام، وتصوروا أن فيها بعض الالتباس والإبهام. فأخذ أحدهما يصحح الجملة الأخيرة بما ليس له محلّ من الإعراب فقال: (كتاب باقي خواص وصنعة وآلة طبع الكتب كتابًا غريبًا في معناه) ولا يصح لنا بأن نهزأ بهم بسبب هذا التصحيح العليل السقيم وما فاته من الأعراض، أما الجوهر فهو أنهما اكتشفا هذا البرهان الدال على أن هذه الصناعة وجدت في أيام العرب ولو من باب النظريات العلمية، إذ لم تجد لها للآن أثرًا عمليًّا محسوسًا. ومن المعلوم أن الأمدة (جمع مداد) تحتاج لتركيب مخصوص لكي تخرج منها نسخًا متعددة، فلذلك كان المؤلف الأندلسي بين صنعتها وبين طبع الكتاب. ولما كان هذا الاستنباط البديع الغريب لم يُسْبَق له مثال بالأندلس رأى صاحب «الإحاطة» وجوب التنبيه على فضل الكتاب فقال: غريب في معناه.

فأين أين ذلك الكتاب الذي ألفه القدسيُّ ووصفه لسان الدين ابن الخطيب بأنه غريب في معناه؟!

لا شك أنه ذهب طُعْمَة للنار حينما علت كلمةُ الأسبانيين وطردوا المسلمين من تلك الديار، فإنهم كانوا كلما وقع لهم كتاب مكتوب بحروف عربية قالوا: هذا قرآن وبادروا لطلب الغفران بإحراقه بالنيران. وبهذه الكتابة أحرقوا تسعة أعشار ونصف وثلث وربع وخمس وسدس وسبع وثمن وتسع الكتب العربية، فلم يكد يخلص إلينا منها واحد في الألف. وكانوا يتهافتون بارتياح وتقوى إلى ارتكاب هذه الجريمة الكبرى، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعًا، حتى أن أحد كرادلتهم أحرق في يوم واحد بمدينة غرناطة نحو ألف ألف كتاب. وكان هذا الصنيع بعمل الإيمان!!





القراءة وأصول الثقافة[1]



للأستاذ إيليا حليم حنّا

القراءة والحياة:

القراءة فن يربط بين الكتب والحياة، ويفتح أبواب التفكير والتصوّر. وهي وسيلة لتوسيع عقولنا وتنمية تفكيرنا الحر، وإيجاد ملَكَة النقد عندنا وزيادة ثقتنا بأنفسنا وبقيمة آرائنا الشخصية.

ويخطئ شبابنا المتعلم عندما يظن أن أيام الدراسة هي مرحلة القراءة والاطلاع. إننا عندما نقطع أكبر مرحلة دراسية لا نكون قد قبضنا على زمام الحياة بل نكون قد بنينا لأنفسنا أساسًا صلبًا يمكننا أن نثبت عليه أقدامنا لنسير في الحياة نحو الكمال حتى الشوط الأخير فيها.

ولا يمكننا أن نساير روحَ العصر الذي نعيش فيه في مرحلة عمرنا إلا بالقراءة المستمرة والوقوف على أسرار الحياة المختلفة التي يميط العلمُ اللثامَ عنها كلَّ يوم، ويظهر منها شيئًا جديدًا كان مجهولًا. ويموت الشخص عقليًّا عندما يقف عند حدّ محدود من ثمار العقل البشري ويتخلّف عن قافلة زمانه الذي يعيش فيه.

والقراءة ليست غاية في ذاتها وإنما وسيلة للعيش عيشة إنسانية سعيدة عندما ننتفع بما نطالع انتفاعًا عمليًّا يقودنا إلى عمل متقن وحياة أفضل. ولا فائدة من القراءة التي لا نبغي مِن ورائها إلا حشو رؤوسنا لنظهر أمام الناس أننا ملكنا ناصية العلم والثقافة. والكتابُ وحدَه لا يصل بنا إلى النمو العقلي والنفسي إلا

(١) مجلة الرسالة، مجلد٣٣، العدد ٨٤٢، سنة ١٣٦٨هـ، ص ١٢٥٤-١٢٥٦.

إذا مزجنا قراءاتنا بتأملاتنا وخبرتنا وتجاريب الغير، وما يجري معنا وحولنا كلَّ يوم، وكل ما نراه في الطبيعة ويقع تحت حِسّنا وإدراكنا. فكل هذه كتب مفتوحة يجب ألا نهملها عندما نقرأ ونفكر.

قال جونسن: «**مَن يتصوّر أن الأفكار لا توجد إلا في الكتب وأن في الكتب كل الأفكار، فما هو إلا واهم. والأفكار تجري مع الأنهار والمجاري، وتطفو على وجه البحر، وتتكسر على شواطئه، وتسكن التلال والجبال، وتسطع مع نور الشمس، وتنسدل طيّ أجنحةِ الظلام. إن الأفكار موجودة في كل مكان وزمان**».

وتصديق كلّ ما هو مكتوب والأخذ به دون تأمل وبحث عن حقيقته دلالة على جهل القارئ وموته العقلي، فالقارئ الحيّ اليَقِظ المتوثّب لا يترك كتابًا دون أن يقتله درسًا وتأملًا ونقدًا. يقول جون ستوارتمل: «**يجب على طالب الثقافة أن يشعر بأنه حرّ الفكر، له أن يجاري الغير في معتقداتهم، وله أن يخالفهم فيها. عليه إذا شك في صحة أمر أن يبحث وينقب جهده ليقف على ما يروقه ويقنعه. وعليه أيضًا ألا يلقي الكلام على عواهنه، وألا يأخذه دون رويَّةٍ وإعمال فكر**».

هذه القراءة الحية التي تقترن دومًا بالتفكير والتأمل والتجرد من أهواء النفس، وعدم التعصّب للعادات العامة والآراء المتواترة والعقائد الشائعة= تخلق منّا الإنسانَ الحيّ الكامل؛ الذي يتأثر بثقافة عصره ويؤثّر فيها بعد أن يكون قد أرضى من البحث حاجتَه وشفَى غليلَه وأحسّ الحياةَ وأمعنَ فيها إمعانًا بانصرافه إلى التفكير والملاحظة والاستنباط.

القراءة والثقافة:

الغرض الأول من القراءة هو: التهذيب الكامل للنفس، وليس تعبئة الذهن بالمفردات والتراكيب أو الحقائق مستقلة منفردة. والقراءة الحية تنمّي القُوى والمواهب الإنسانية وترقّيها. فإن ما نكسبه من معلومات ونهضمه ونجعله جزءًا

من حياتنا الفكرية وتفكيرنا الخاص يُكسبنا قوةً ذِهْنية تتجه بنا نحو الإصلاح بأنواعه، وتؤهلنا إلى الاندماج في مشاكل المجتمع الذي نعيش فيه، وإنهاض ذلك المجتمع وتجديده، ويزودنا بقوة فكرية مهمتها البحث عن الحقيقة أيـاًّ كانت، والسعي لرقيّ الإنسان عقليًّا و روحيًّا. هذه هي الثقافة المنتجة التي تمكننا أن ننعم بالحياة، نسرح فيها ونمرح، ننشط ونستنبط؛ فتنتعش قُوانا العقلية، وتظهر كفاياتنا المغمورة، وتزهو مقدرتنا في أعمالنا أو في أي نشاط ابتكاريّ تغذيه ميولنا.

هذا كله فِعل القراءة الثقافية المجدية التي قال عنها (بيكون): إنها تجعل العقل البشري ينطلق من عقاله، لنقبل على كلِّ مجهول ونفكر لنعيش ونعيش لنفكر.

التثقيف الذاتي:

يمكن للقارئ العادي أن يثقف نفسَه لو توافر له الميل إلى القراءة المفيدة المحبوبة، التي تهدف إلى غَرَض ثقافيّ واضح وليست تلك التي يقصد بها التسلية وقطع الوقت.

وقد طَرَق كثير من المفكرين والفلاسفة موضوع التثقيف الذاتي، فقال (لوك): للتهذيب الذاتي ثلاثة طرق، تبتدئ الواحدة من حيث تنتهي الأخرى:

الأولى: قراءة الكتب وإدراك معانيها.

الثانية: التفكير والتأمل في تلك الأفكار والمعاني.

الثالثة: التحدث مع الناس بها، واختبار سقيمها من صحيحها وسليمها من فاسدها.

ويرى الفيلسوف النفساني وليم جيمس ثلاثة طرق أخرى للتثقيف الذاتي وهي:

١- إتقان اللغة القومية إتقانًا يمكن الفرد من التعبير عما يدور برأسه من أفكار وآراء تعبيرًا صحيحًا. ويقول (باوند) عميد هارفارد في هذا الخصوص: «**الرجل الذي لا تبلغ غرائزُه اللغوية النضجَ لا يمكن أن يفكر تفكيرًا متقنًا أو يصل إلى نتائج دقيقة**».

٢- استيعاب ما يمكن استيعابه من أنواع المعارف المختلفة حتى يمكنه مسايرة الثورة العقلية التي وصل إليها عصره.

٣- تكوين مبادئ وعادات تخلق منه رجلًا كاملًا خليقًا بما استوعب من ثقافة. ويعرض (أرنولد بنيت) اقتراحين عامين لتثقيف النفس بالقراءة وهما:

١- عيِّن اتجاه جهودك ومداها واختبر فترة معينة أو موضوعًا معينًا أو مؤلفًا واحدًا وقل لنفسك مثلا: أريد أن أعرف شيئًا عن الثورة الفرنسية أو عن اختراع السكك الحديدية أو... وتفرَّغ في زمن معين لما وقع اختيارك فإن متعة عظيمة تستفاد من التخصص.

٢- فكّر واقرأ في آنٍ واحد، فإني أعرف أناسًا يقرأون ويفكرون كثيرًا ولا يستفيدون شيئًا... ذلك لأنهم يجوبون أقاليم الأدب في سيارة وكل همهم الحركة ويفتخرون بعدد ما قرأوا من كتب في العام.

ويقول (أندريه مورو): «لا تهمل آراء الأجيال التي سبقتك بل يجب أن تعني عناية خالصة بالكتب القديمة الخالدة، ولنثق بما اختارته القرون السالفة من روائع الكتب، فقد يخطئ الاختيار رجل واحد وقد يخطئه جيل واحد، ولكن الأجيال لا تخطئ جميعًا فشكسبير وموليير جديران بما نالا من مجد خالد على الدهر... ومن الضروري أيضًا أن نهتم بالكُتّاب المعاصرين لأننا بدون شك نجد فيهم أصدقاء يشعرون بما نشعر ويحتاجون لما نحتاج إليه».

فيما تقدم آراء مختلفة تصلح جميعًا أن يعمل بها للتثقيف الذاتي. وأرى بالإضافة إليها أن تدرس كاتبًا من كبار الكتاب المعاصرين وتتابع مؤلفاته وآراءه ثم تدرسها دراسة وافية، فإنك ترتقي معه ذهنيًا وتصل إلى مستواه وتقف على أساليب التفكير المنظم في جيلك. وبذلك تكتسب عصارة قلبه وفكره وتفكر مع إنسان يحسن التفكير ولكن لا يجب أن تنساق معه بدون تفكيرك الحرّ. حاول أن توسع دائرة اطلاعك واجعل ما أنتجه المفكرون أساسًا لتكوِّن لك رأيًا على ضوئه. وبذلك قد تكتشف نقصًا تكمِّله في رسالة زميلك الكاتب فتعلو عليه في هذا الزاد العقلي وترقى بالإنتاج الثقافي.

فَنِّد آراء كبار الكتاب وحلِّلها، وقارن بين ما احتوت عليه مؤلفاتهم. ولا تكتف بهذا، بل كرِّس جهودَك في ناحية من نواحي الثقافة واقتلها بحثًا وتمحيصًا وتتبَّع جميع ما يكتب عنها في اللغات التي تعرفها. ولكن مع هذا لا بد أن تعرف أشياء كثيرة دون أن تتعمق فيها.

القراءة للاستلهام والابتكار والاختراع:

هذه هي أرقى أنواع القراءة التي تعمل عملها العظيم في حياة الفرد والمجتمع، وتدفع الأمةَ نحو حضارة أرقى بما يتبع هذه القراءة البارعة من التفوق العلمي والأدبي والروحي.

ويُقبِل على هذه القراءة أصحابُ العقول الممتازة الذين يرون مع الفيلسوف العالم (إسحق نيوتن): «**أن الناس مع كل ما بلغوه من المعرفة وتوصلوا إليه من الاكتشافات، ليسوا إلا أولادًا صغارًا يلتقطون الأصداف والأعشاب التي ينبذها ويقذف بها بحرُ الحقائق وخضمُّ المجهولات من حين إلى آخر**».

ويؤسفنا أن المضمار العلمي عندنا يخلو من مثل هذا القارئ العبقري!

ونسأل أنفسنا: ما الذي جعل الاختراع والاستنباط والتفوّق العلمي وقفًا على أبناء الغرب! ليس السبب في عقولهم أو ذكائهم، ولكن لأنهم عرفوا لذة القراءة وانغمسوا فيها، وجعلوا شعارَهم: (اقرأ وفكّر واعمل) فمكّنهم ما اكتسبوا من محصول من فهم العالَـم الذي حولهم وضبطه، والكشف عن قوى الطبيعة المجهولة وإخضاعها لفائدة البشر. وهؤلاء القراء البارعون هم حَمَلة المشاعل في الأمم النواهض واجبهم ملاءمة التطوُّر والعون على التقدم والسبق.

والقارئ العبقري يقرأ ويهضم ويفكِّر ويجرِّب ليستخلص شيئًا جديدًا يضيفه إلى تراثنا وحضارتنا، ويعمل على تغيير حياتنا وتكييفها. وكلما أكثر من هذه القراءة المركَّزة المنظّمة كلما وجد نفسه يقترب من هدفه فيزداد تفكيرًا. وأثناء حرارة التفكير والانغماس فيه بعقله وكل حواسه تنقدح في ذهنه الأفكار المُلهِمة فيزداد محصولُه العقلي، ويزداد هو استحواذًا على العالم الخارجي وإدماجًا له في حياته العقلية.

ومثل هذا القارئ يتبع في قراءته طريقة التفرُّغ والاستيعاب، أي طريقة أخذ الشيء مفصلًا والتمكّن مِن كل جزء من أجزائه، فتظل أفكاره في حركة دائمة تتحرك حول غرض عملي محدد واضح، وتتحرك هذه الأفكار إلى مَلَكة. يقول «**هربرت سبنسر**»: «**المعرفة لا يكاد يعيها الواعي حتى تتحوّل عنده إلى مَلَكة، وتظل بعدها تُعينه على التفكير عامة**». ويأخذ هذا القارئ المفكر ينمو في نشاطه العقلي يبني المقدمات بالخبرة والمشاهدة والاستقراء والقياس حتى يصل إلى النتائج التي يهدف إليها.

وهذه القراءة المركَّزة المنظمة سببٌ قويٌّ في توجيه حياة الأفراد الممتازين إلى نواح معيّنة، وحَفْزهم لتحقيق غايات جليلة سامية عاد عليهم تحقيقُها بالصيت الخالد والجاه والثروة.

وأذْكُر على سبيل المثال أمثلة حيّة خالدة لما توحي به القراءة عندما تقترن بالتفكير العميق واليقظة المستمرة والرغبة القوية وتحديد الهدف وحشد الجهود.

- اشترى لورد كلفن كتابًا عن الحرارة، تأليف عالم طبيعي اسمه «**فورييه**» وانغمس في قراءته واستيعابه. فكان لهذا الكتاب أكبر الأثر في حياة الرجل بما أوحى إليه من الاختراعات.

- وقرأ «**بت**» كتاب «**ثروة الأمم**» تأليف «**آدم سميث**» فاستطاع أن يرسم للأمة الإنجليزية سياستها الاقتصادية الرشيدة في وقته.

- وقرأ «**سسل رودس**» كتاب «**الامبراطورية الرومانية**» تأليف «جبون» فذهب إلى إفريقية يوسع نطاق الإمبراطورية البريطانية.

- وقرأ «**فورد**» مقالًا في مجلة عن العربات التي لا تجرها الخيل؛ فأوحى إليه هذا المقال بالتفكير في صنع السيارة، ودأب على تحقيق هذا الحلم الجميل حتى كان له ما أراد.

كلّ من هؤلاء عرف كيف يستفيد مما يقرأه، وهَضَم ما قرأه، فأصبح جزءًا من كيانه العقلي، وحجرًا أساسيًا لابتكار أو خلق أو عمل شيء جديد.

والأديب الفنان كالمخترع ورجل العلم يقرأ للابتكار والاستلهام وليس ليشبع جشعه الثقافي فقط؛ بل لتوحى إليه الفكرة المقروءة بفكرة جديدة، وهو في قراءته يحلّق في الآفاق العليا منطويًا على نفسه، لا يتقيد بمكان أو زمان، بالغًا المكانة التي يستشرف منها للإلهام، ويتعرَّض فيها بروحه وبصيرته لنبضات الوحي فيمزق حُجُب الأشياء وينفذ توًّا إلى صميمها، ويصل إلى أعمق الأغوار من الفكر الإنساني الأصيل.



هكذا يُقبِل القارئ الأديب على القراءة لتفتح لذهنه آفاقًا جديدة فتنهال عليه الخواطر التي تضطرب في نفسه وتريد أن تظهر، وتملأ قلبه وتريد أن تفيض، وتُكْرِهه على أن يأخذ القلم ويسجِّل ما تمليه عليه تلك الأصوات الخافتة التي يسمعها داخل عقله وقلبه، ويلمسها بإحساسه المرهف في جوِّه السحري الصامت. إنه لا يقرأ لينقل ولكن ليحس نبضات الفن والإلهام والبصيرة.






قــراءة الكــتب[1]

للدكتور زكي نجيب محمود

سأعرض على القراء هذه الصفحة الناصعة من أدب «**جون رَسْكِن**»، فهي دعوة قوية جميلة، وجهها هذا الناقد العظيم إلى جمهور من المستمعين، يستحثّهم بها على قراءة الكتب الخالدة؛ ولو كان الشعب الإنجليزي بحاجة إلى أديب يزيّن له الكتب ويغريه بمطالعتها، فما أحوجنا إلى كل ما انطلقت به ألسنة الأدباء، في كل عصر وفي كل أمة، لعلّ الدعوة الكريمة تلتمس سبيلها إلى قلوب قرائنا، وقد أَخَذَتْهم عن الكتب سِنَةٌ، نخشى أن تعمق وتطول...

قال «**رَسْكن**» في لغته القوية الرائعة ما معناه:

هبنا قد رغبنا في اختيار أصدقائنا اختيارًا موفقًا، فكم بيننا من له القدرة على هذا الاختيار؟ وإن وجدت القادرين، فما أضيق دائرة الاختيار! فإن المصادفة حينًا، والضرورة حينًا آخر، تكادان تكونان الوسيلتين اللتين تحدواننا إلى من نصطفي من الأصدقاء، فليس في مقدورنا أن نعرف من نحب أن نعرفه، بل إن هؤلاء الأصدقاء الذين اصطفيناهم بحكم الضرورة أو المصادفة قلما نجدهم إلى جانبنا حين تشتدّ بنا الحاجةُ إليهم.

ودَعْ رجال الطبقة الأولى من النابغين، فلن تصل إليهم إلا في لحظات خاطفة، ولن يتاح لك أن تطالع فيهم إلا جانبًا واحدًا دون سائر الجوانب؛

(١) مجلة الثقافة،السنة الأولى، العدد ٤٦، ص ٢٠-٢٤. توفي الكاتب سنة (١٤١٤هـ) ونعَتَه بعضهم بأديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء (كما أطلقت على التوحيدي - وشتّان)، له مؤلفات كثيرة في الأدب والفلسفة والثقافة.



فقد يسعفك حسن الحظ فتستمتع بلمحة من شاعر عظيم، وتسمع نبرة صوته؛ وقد يصيبك التوفيق فتلقي سؤالًا إلى قطب من أقطاب العلم ليجيبك عنه في طمأنينة ورضا؛ وقد تقحم نفسك إقحامًا لتظفر بحديث من وزير، لا يطول أكثر من دقائق عشر، وقد يجيبك فيه الوزير بما هو شرّ من الصمت؛ وقد يشاء لك حسن الطالع -مرة أو اثنتين إبان الحياة- فيتيح لك الفرصة لتلقي طاقةً من الورد في طريق إحدى الأميرات، أو لتجتذب من الملكة وهي سائرة نظرة عاطفة... إن هذه جميعًا فرص قلما يجود بها الدهر، ومع ذلك، فكم نطمع في هذه الفرص العابرة؟ كم ننفق من أعوامنا وعواطفنا وقوانا، لعلنا نظفر بمثل هذا النزر القليل؟! نصنع هذا، وتحت أيدينا جماعة من أمثال هؤلاء الجبابرة، ترجو رجاءً يتصل ولا ينقطع، أن ننصت لهم ليتحدثوا إلينا ما يحلو لنا من حديث، مهما تكن منزلتنا من المجتمع، ومهما يكن العمل الذي نؤديه. على مقربة منا طائفة من أمثال هؤلاء، تتمنى لو تحدَّثتْ إلينا في أروع ما تستطيعه من لفظ؛ ما أعرناها أذنًا مصغية، تقدمت لنا بالشكر الجميل!! جماعة كثير عديدها رقيق خلقها، لا يضجرها أن تبقيها في انتظارك طول اليوم، تنتظر، لا لتهبك حظ الاستماع إلى حديثها العذب، بل لتكسب منك هذا الاستماع! هي طائفة من ملوك وساسة ينتظرونك بصبر فارغ، ويشوقهم أن تدنو منهم في غُرَفهم التي اكتفوا فيها بأثاث ساذج، وأعني بها رفوف المكاتب... ألِأَنَّ رجاءهم في أن ننصت إلى حديثهم قد بلغ هذا المبلغ، ترانا لا نستمع قط إلى كلمة مما ينطقون؟!

قد يذهب بكم الظن إلى أن ازدراء الناس لهذه الجماعة النبيلة، التي تتوسل إليهم أن يصغوا إلى حديثها، في الوقت الذي يتحرقون فيه إلى محادثة طائفة أخرى، ربما كانت من الضَّعَة بمكان، وهي طائفة تحتقرهم وليس لديها ما تعلمهم إياه.

أقول: إن الظن قد يذهب بكم إلى أن ازدراءنا لتلك الجماعة، ورجاءنا أن نتعقب هذه الطائفة من عظماء الأحياء، قائمان على هذا الأساس: وهو أننا إذ نحدث الأحياء، نشاهد وجوههم، وذلك أدعى إلى اتصالنا بنفوسهم، ونفوسهم -دون أقوالهم- هي الغرض المنشود... ولكن ذلك زعم باطل. فافرض أنك لن ترى وجوه العظماء الأحياء، ثم افرض أنه قد أتيح لك أن تقف وراء ستار في مجلس الوزراء أو في غرفة أمير من الأمراء؛ ألا يسرك أن تنصت إلى حديث هؤلاء من وراء الستار؟ فإذا ما نقصنا لك من سُمْك الحائل، وجعلناه لك من جناحين بعد أن كان ذا أجنحة أربعة، أعني إذا دعوناك أن تختفي وراء غلاف الكتاب، لتنصت طيلة يومك، لا إلى حديث عارض، بل إلى حديث انتقاه وتعمق فيه أنبغ الرجال، إذا دعوناك إلى مثل هذا الموقف لتستمع إلى هذا الجمع المصطفى النبيل، كان جوابك أن تشيح بوجهك إزورارًا!!

قد يقول معترض: إن السبب في ذلك هو أن الأحياء يتحدثون عن أمور عارضة، نتلذّذ لسماعها لأنها تمسّ حياتنا مسًّا مباشرًا؛ ولكن الأمر ليس كذلك. لأن الأحياء أنفسهم قد يحدّثونك عن هذه الأمور العارضة فيما يكتبون أروع مما يحدثونك عنها في حديثهم الذي يطلقونه إطلاقًا؛ ومع ذلك فأنت تحب أن تنصت إلى هذا الحديث المهمل، أكثر مما تحب أن تطالع تلك الكتابة المتقنة... ولو أني أعترف أن لهذا العامل أثرًا في نفسك، لأني أعلم أنك بين الكتب نفسها، تؤثر الكتابة السطحية السريعة على الكتابة الجيدة الدائمة مع أن هذا النوع الثاني هو الكتب بمعناها الصحيح.

فالكتب صنفان: كتب أريدَ بها هذا الوقت الحاضر، وأخرى أريدَ بها أن تحيا على وجه الزمان. ولاحظ أني لا أفرّق بهذا بين جيد الكتب ورديئها؛ إذ ليس

الكتاب الرديء وحده هو الذي لا يبقى، وليس الكتاب الجيد وحده هو الذي يعيش. فهنالك كتب جيدة للساعة الراهنة وكتب جيدة للدهر كلّه، وهنالك كتب رديئة للساعة الراهنة وأخرى رديئة تعيش الدهرَ كلَّه أيضًا.

فالكتاب الجيد الذي يُكتب للساعة الراهنة -ولا أتحدث عن الكتب الرديئة- هو حديث نافع لذيذ، يقوله شخص ليس في مُكْنتك أن تتحدث إليه عن غير هذا الطريق، فَطَبَعَ من أجلك الكتاب ليحدّثك؛ وكثيرًا ما يكون حديثه نافعًا أقصى النفع، فيعلّمك ما تحبّ أن تعرفه، وكثيرًا ما يكون حديثه ممتعًا غاية المتاع، كما يقع حديث الصديق من نفس صديقه؛ فهذه القصص تروي لك عن الأسفار، وهذه المناقشات الذكية الطلية البارعة تدور حول المشكلات الغامضة، وهذه القصة الحية تسري العاطفة بين أجزائها، وهذه الحقائق يسوقها لك أصحابها الذين يتصلون بحوادث التاريخ الجارية. كل هذه كتب أريدَ بها الساعة الحاضرة، وهي تزداد كلما ازداد التعليم انتشارًا، ولعلها تميز هذا العصر من سائر العصور السالفة، وهي ذخيرة هُيِّئت لنا أسبابُها، وينبغي أن نقف إزاءها شاكرين، وأن يأخذنا الخجل إذا لم نحسن استخدامها.

ولكنا نسيء استخدام هذه الكتب أشد ما تكون الإساءة، إذا أجزنا لها أن تملأ فراغَنا كلَّه، بحيث تغتصب منا وقت الكتب الدائمة التي قُصِد بها أن تَخْلُد على الدهر، وأعني بها الكتب بمعناها الصحيح. لأننا إن توخينا الدقة، فلسنا نعدّ الصنفَ الأول من الكتب كتبًا على الإطلاق، بل هي في حقيقة أمرها خطابات، أو صحف للأنباء طبعت طبعًا أنيقًا.

إن الخطاب يأتيك من صديقك قد يكون لذيذًا أو ضروريًّا اليوم، والصحيفة اليومية قد تكون ملائمة لساعة الإفطار، ولكنها بغير شك لا تصلح لقراءة

اليوم كله. وكذلك قل في خطاب مطوّل يقص لك الأنباء الممتعة عن الفنادق والطرق والجو، في مكان معيّن خلال السنة الماضية، أو ينبئك بقصة لذيذة، أو يروي لك الوقائع الحقيقية في إحدى الحوادث: فمثل هذا لا يمكن أن يكون «**كتابًا**» بمعنى الكلمة الدقيق، مهما يكن له من غلاف يصون جوانبه! وإذا لم يكن مثل هذا «**كتابًا**» بمعنى اللفظ الصحيح، فلا ينبغي أن «**نقرأه**» بمعنى القراءة الصحيح.

إن الكتاب الذي أريد به أن يحدّثك حديثًا ما، لم يطبع كتابًا، إلا لأن كاتبه يعجز أن يتحدث إلى ألوف الناس دفعة واحدة، ولو استطاع لفعل؛ فما كتابه سوى نَشرٍ لصوته في أفق فسيح. إنك لا تستطيع أن تتحدث إلى صديقك في الهند، ولو استطعتَ لفعلت وما لجأت إلى الرسائل، ولكن ذلك فوق مقدورك، فأنت مضطرٌّ أن تكتب له ما يغني عن الحديث. فكتابتك عندئذ لا تزيد على أن تكون وسيلة تنقل بها صوتك إلى مكان بعيد، ومثل هذا كتاب مما كتب للساعة الراهنة.

فأما الكتاب الحقّ فلم يُرِد به صاحبه أن يكون أداة لنقل صوته في نطاق واسع وكفى، بل أراد به أن يحتفظ بما فيه. إن الكاتب النابغ لديه ما يقوله وما يظن أنه حق ونفع وجميل، وهو يظن فوق ذلك أن لم يسبقه أحد إلى قول ما يقوله؛ بل وفي رأيه أن أحدًا، كائنًا من كان، لا يستطيع أن يعبر عنه بمثل ما عَبَّر هو، فهو إذًا مضطر أن يسجل هذا التعبير واضحًا، ومنغومًا إذا استطاع.

إنه حين استعرض حياتَه كلَّها، وجد أن هذا الذي يعبر عنه في كتابه، قد تجلى له أنه الحق، أو على أنه المنظر الرائع الذي أذن له قسطه من الأرض وضوء الشمس أن يمسك به، ولذا فهو يريد أن يسجله إلى الأبد، يريد أن يحتفره في

الصخر إذا استطاع، قائلا: هذا أفضل جوانب حياتي، أما بقيّتها فقد أكلتُ وشربت ونمت وأحببت وكرهت كما يفعل سائر الناس. كانت حياتي كالبخار، وقد زالت الآن من الوجود، أما هذا فقد رأيته وعرفته.

هذا جدير أيها الناس أن تحفظوه في الذاكرة، إن كان من جوانبي ما هو خليق **أن يحتفظ به**». تلك هي «**كتابته**» تلك هي رسالته، فذلك «**كتاب**».

إني لأسألكم: هل تؤمنون بالشرف، وهل تثقون في الرحمة؟ أم هل تظنون أن حكماء الرجال لا يملكون من الشرف والخير شيئًا؟ لا أحسب بيننا أحدًا بلغ به التعس بحيث يظن هذا؛ فإن كان للرجل الحكيم شيء من الخير والشرف، فقد صبَّه في كتابه، أو في آيته الفنية. نعم قد يمزج خيره بفتات من الشرّ – مثلًا – سيء التعبير، أو يعمد إلى التكرار الممل، ولكنك إن قرأته قراءة صحيحة، هان عليك أن تكشف فيه عن جوانب الحق، وتلك هي «الكتاب».

إن عصور التاريخ بأسرها قد شهدت هذا الضرب من الكتب الجيدة، كتبها أعظم مَن عاش في تلك العصور - من الرجال - نوابغ القادة، وكبار الساسة، وفحول المفكِّرين. كل هؤلاء ينتظرونك لتنتقي من بينهم من قبل، والحياة قصيرة الأمد. لقد سمعتَ قولي هذا من قبل، ولكن هل أيقنت كم تسع هذه الحياة القصيرة؟ هل علمت أنك إن قرأت هذا، فلن تستطيع أن تقرأ ذلك، وأنك إذا أضعت اليوم فلن تكسب الغد؟ هل يحلو لك أن تَلْغَطَ مع خادمك أو سائسك، ويمكنك أن تتحدَّث إلى مَلِكات وملوك؟ أتحب أن تحادث العامة في لغوها، وأنت ترى هذه الطائفة الحافلة الخالدة تنتظرك بكل أعضائها، وهم كثيرون كثرة الأيام، هم الصفوة الممتازة في كل زمان وفي كل مكان؟ إنك تستطيع في كل لحظة أن تنخرط في سلك هذه الجماعة المختارة،

يمكنك أن تكون عضوًا بين أعضائها، وأن تضع نفسَك في المنزلة التي تشاء، ولن يخرجك من هذه الزمرة الطيبة إلا الخطأ يقع منك. إذا كنت تجاهد حقًّا أن تنزل بين الأحياء منزلة رفيعة، فها هو ذا مقياس أي ما في جهادك من صدق وإخلاص. فسنرى مكانة ستختار لنفسك في جماعة الخالدين.

وأقول: «المكانة التي تحبها» و«المنزلة التي تهيء نفسك لها» لأني أعلم أن هذه الطائفة من عباقرة الماضي، تختلف عن أرستقراط الأحياء في هذا، في أنها تقبل بينها العامل الجديد دون سواه. إنك لن ترشوهم بثرائك، ولن تُلْقي باسمك الرعبَ في نفوسهم، ولن تخدعهم بريائك. فلن يُسْمَحَ بالدخول في تلك الفراديس لمجرم ولا وضيع.

سيسأل حارس الباب سؤالًا واحدًا لمن يريد الدخول: «**هل أنت جدير بهذا؟ إذًا فدونك الأبواب قد فُتِحت. هل تريد أن تزامل النبلاء؟ إذًا فكن نبيلًا تكن زميلًا. هل يشوقُك أن تحادِث الحكماء؟ إذًا فاعلم كيف تفهم عنهم تَسمعْ حديثهم. أما إن أبيتَ شيئًا من ذلك فلا دخول. إذا لم ترفعِ نفسَك إلينا فلن نهبط إليك. إن الرجل العظيم من الأحياء قد يتكلف لك الظَّرْف، والفيلسوفَ من الأحياء قد يكلف نفسَه عناء شرح فكرته لك وهو من ذلك في ألم مُمِضّ؛ ولكنا هنا لا نتكلف ولا نفسر، فإذا أردت أن تستمتع بأفكارنا فارفع نفسك إليها، وإذا أردت أن تكون جليسًا لنا فشاطرنا المشاعر**».

هذا ما أكلّفك بعلمه، وهو كثير. وبعبارة موجزة: يجب أن تحب هؤلاء الناس، إذا أردت أن تكون بينهم، ولكي تحبهم فلا بدّ من أن تتوفر لديك الرغبة الصادقة في أن يعلِّموك، وأن تعدّ نفسَك للدخول في أفكارهم؛ ولاحظ أني أشير إليك بالدخول في أفكارهم، ولا أقول لك أن ترى أفكارك منطوقة



بلسانهم. فإن لم يكن كاتب الكتاب أحكم منك، فلا حاجة بك إلى قراءته، وإن كان، فستجد تفكيره يخالف تفكيرك في نواح كثيرة.

نحن مستعدون أن نقول عن الكتاب الذي نقرؤه: «**ما أجود هذا الكتاب. هذا هو بالضبط ما أرى من رأي!**» ولكني أريد لك أن تنتقي من الكتب ما تقول عنه: «**ما أغرب هذا الذي أقرأ! إني لم أفكر هذه الفكرة قط من قبل، ومع ذلك فإني أراها فكرة صحيحة. وإن لم أرها صحيحة اليوم، فأرجو أن أراها كذلك بعد حين**».

فلا بدّ لك قبل كل شيء أن تذهب إلى الكاتب لتأخذ عنه معناه، لا أن تجد عنده معناك... وإن كان كاتبًا رفيعًا، فاعلم علم اليقين أنك لن تستطيع أن تأخذ معناه كلَّه دفعةً واحدة، بل لن تستطيع أن تفهم كل ما يريد من معنى مدى زمن طويل، مهما تكن وسائلك إلى فهمه. لا لأن الكاتب لا يقول ما يريد أن يقوله، وفي كلمات قوية، بل لأنه لا يبسط كل معناه إلا على نحوٍ من التخفّي، لكي يثق من قارئه أنه يريد معناه!

وقد لا أستطيع أن أعلل لك هذا التكتُّم القاسي من الحكماء، الذي يغريهم بستر أفكارهم العميقة. إنهم لا يقدمون لك المعنى تقدِمةً هيِّنة، بل هم يكافئونك به على ما احتملتَ من العناء؛ فهم يثقون أولًا أنك جدير به قبل أن يأذنوا لك بالوصول إليه! وما أشبه هذا بالذهب! وهو من الطبيعة كالقول الحكيم من الحكماء؛ فلست أرى سببًا يبرِّر ألا تتظافر قوى الأرض جميعًا، لتحمل ما في جوفها من ذهب، حيث تضعه على قمم الجبال، فيعلم الملوك ويعلم الناس كافة، أن كلّ ما في الأرض من ذهب قد أودِعَ هنالك، دون أن يحتملوا عناء الحفر وضياع الوقت وانتظار المصادفة، فيجدونه قريبًا منهم فيصوغونه فيما

يشاؤون من النقود. لكن الطبيعة لا تسلك في إعداد أمرها هذا السبيل. إنها تخفي ذهبها عن أعين الناس، فقد تحفر زمنًا طويلًا ولا تجد شيئًا، ولا منصرف لك عن الحفر وعنائه إذا أردت شيئًا.

وذلك مثال ما يحدث في حكمة الحكماء. فإذا أقدمتَ على كتاب جيِّد، فلا بد أن تسأل نفسك أولًا: «**هل أنا راغب في العمل كما يعمل العاملون في مناجم الذهب؟ هل أعددتُ فؤوسي وسائر عُدَدي؟ وهل هيأت نفسي للعمل، فشمرت عن ساعدي، واستقام مني جهاز التنفس واعتدل المزاج؟**». إن الذهب الذي تنشده هو فكرة المؤلف ومعناه، كلماته صخور ينبغي أن تطحنها طحنًا وتذيبها إذابة لتصل إلى ما استتر فيها؟ وفؤوسك هي عنايتك وذكاؤك وعلمك؛ وأتون الانصهار هو نفسك المفكرة... لا تَرْجُ أن تبلغ عند كاتبٍ معنًى جديدًا بغير تلك الآلات وهذه النار...





عيادة المطالعة[1]



للأستاذ إيليا حليم حنا

أنواع القراء:

«**عيادة المطالعة!**» ربما يدهشك هذا العنوان وتراه عجيبًا، ولكن رجال التربية في أمريكا وجدوا أن القراءة فنّ مهمل، فألحقوا بكلياتهم عيادات يعالجون فيها الذين لم تُغرَس فيهم عادة القراءة أو الذين لا يعرفون كيف تكون المطالعة الـمُجْدية.

والآن أقدِّم لك أيها القارئ دكتور روبرت مدير «**عيادة المطالعة**» في كلية درثمورت يحدثك عن عيادته:

عيادة المطالعة: اسم غريب ولكنه في الحقيقة ليس بغريب... فالكثيرون من المتعلمين مرضَى ولا يعرفون أسس القراءة الصحيحة. وأما مرضهم فهو أنواع؛ فمن الناس مَن يعجز عن تركيز الذهن فيما يقرأ. ومنهم من يحاول أن يسابق زملاءَه كما تحاول السلحفاة أن تلاحق الطائرة. ومنهم من يشعر بدوار كراكب البحر بعد أن يقرأ صفحات معدودة. ومنهم من لا يقرأ مطلقًا... أجل عيادة المطالعة وما أحوجنا إلى عيادات».

ويحدثنا الكاتب الفرنسي (**أندريه موروا**) عن أنواع القراء فيقول: «**من الناس لهم ولع شديد بالقراءة يدفعهم إلى التهام كلّ شيء يقع عليه بصرُهم من الكتب والصحف والمجلات وغيرها فرارًا من عالم الحقيقة إلى عالم الخيال،**

---

(١) مجلة الرسالة، مجلد ٣١، العدد ٨٠٥، سنة ١٣٦٨هـ، ص ١٣٦٥-١٣٦٨.

وهؤلاء لا يستفيدون إلا القليل التافه من قراءتهم».

ويقول نورمان لويس أستاذ القراءة بعيادة المطالعة بجامعة نيويورك: «**إن القراءة أهم ما نتعلم ونحذق، فإنه لا يوجد عمل إلا وهو يحتاج إليها. وفي بعض البلدان يقلّ عدد البالغين الأميين، ولكن ستين في المئة في الأقل ممن يعرفون القراءة لا يحسنونها**».

وعندنا يتخرّج الطالب في مدرسته أو كليته وهو يكره الكتب، وإن قرأ فهو لا يقرأ إلا الصحف والمجلات ويهمل مسائل العلم الأخرى من سياسية واجتماعية وثقافية. وكلما تقدم في السن ازداد تعلقًا بآرائه الأولى التي شبّ عليها، فهو في ركود نفسي لا يتطور مع الزمن ولا يساير الآراء الجديدة في الأخلاق والاقتصاد وأنواع الثقافات الأخرى المختلفة.

لماذا لا يقرأ المتعلمون؟

ويرجع كره المتعلمين للقراءة إلى الأسباب الآتية:

١- إغفال المدرسة لأساليب التربية الحديثة واعتبار الطفل كإناء فارغ واجبُ المدرّس أن يصبَّ فيه المعلومات التي أشار بها واضعو المناهج، ويُبقي الطفل هذه المعلومات في رأسه خوفًا من العقاب أو الرسوب في الامتحان، ويظل يكافح في إبقائها على مضض حتى يأتي يوم الامتحان فيفرغ ما امتلأ به رأسه ويخرج حامدًا الله على أنه أطلق من أسره و تخلص من عبئه؛ ثم يقسم على أنه لن يفتح كتابًا، فكفاه ما لاقى في قراءة الكتب المدرسية من آلام وعذاب؛ وهو بذلك لا يُقبِل على القراءة لأن جهازه العصبي قد تكيَّف بالألم من جرّاء الطريقة التي وصلت بها المعلومات إلى رأسه بدون مراعاة ميوله ورغباته وإثارة تشوقه.



٢- القراءة فن جميل لم يتعلمه الطلبة في المدرسة، ولذلك لا يتذوقون الكتب عند قراءتها، كالشخص الذي لم يتمرَّن على كيفية العزف على إحدى الآلات الموسيقية، ويجد أن أنامله لا تنتج إلا أنغامًا لا ترابط ولا انسجام بينها تصدّع رأسَه. هكذا الكتب لا يتذوقها إلا الذي درس فنَّ القراءة الصحيحة وأصولَـها.

٣- لأن الطلبة لا يفهمون ما يقرؤون من الثقافات العالية لأنهم لم يتعوَّدوا التفكير فيما يطالعون ولم ينضجوا ذهنيًا، فاكتفوا بقراءة مجلات اللهو والتسلية وتركوا الكتب الدسمة لأن عقولهم لا تقوى على هضمها.

٤- لأن المشرفين على تربيتهم لم يوجّهوا غرائزهم إلى الناحية السامية، فانقلبت هذه الغرائز إلى النواحي الدنيا، فمال كثير من المتعلمين إلى الأدب المكشوف الذي لا يثير في قرائه إلا أحطّ الرغبات.

٥- لم تتكون فيهم عادة القراءة لأن منزل الطفل يخلو من الكتب، وأمه أمية أو لا تكره غير الكتب، وأبوه لا يحب الكتب، وهو لا يجد كتبًا في منزله يتناولها ويقلبها لعله يجد ما يلذه مطالعته، وإخوته وإخوانه الكبار يتصفحون كتبهم المدرسية بغير اشتياق أو عناية.

ولذا نرى أن البيت والمدرسة مسؤولان إلى حدٍّ كبير عن هذا الكُره، والحل يتطلب تغيرًا أساسيًّا في المدرسة وفي حياة الطلبة لكي يتهيأ لهم الجو الذي يحببهم في القراءة ويجعلها عادةً فيهم. والحاجة ماسة إلى بيئة منزلية تعينهم على تعهُّد هذه العادة حتى لا تنقرض أو تضعف.





يومٌ للثقافة ويومان للتبحّر والتأمّل[1]



لأبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري

طالب العلم في هذه الحياة المحدودة حريص على الاستزادة وإشباع النّهَم والاستيلاء على المعارف البشرية.

قال أبو عبد الرحمن: وقد جرّبتُ في حياتي العلمية طريقةً سَمْحة تعين على التبحر في العلم. ولهذا فأنا حريص على ارشاد أترابي إليها، لأنه لا يؤمن أحدُكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه.

فأقول: يجب أن يحدّد طالب العلم لنفسه جلسةً يومية خاصة، ولكن بشرط أن تكون طويلة لا تقل عن ثلاث ساعات.

وكلما زادت فأنْعِم وأكْرِم.

فيومٌ يكون للثقافة، وهي الأخذ من كلّ علم بطرف.

وذلك لا يكون إلا بالتصفّح العاجل، والالتقاط السريع.

تأخذ موسوعةً في علم لا يحتاج إلى حفظ أو تأمل من المعارف البشرية البسيطة؛ »كالبداية والنهاية« في التاريخ، و»الأغاني« في الأدب... إلخ.

فتقرأ الموسوعة الواحدة في ثلاث جلسات قراءة تصفّح لا قراءة تمعّن.

ويكون همك التقاط النوادر، وجمع الأشباه، والاستدراك، وذلك وَفْق عملية »الكروت« المشهورة.

---

(١) «الفنون الصغرى ــ السفر الخامس» ص ١٨١ــ١٨٣.

ويجب عليك ألا تفرِّط في الكرت، فربما احتجته ولو بعد عشر سنين.

وقراءة التصفّح هذه لن تذهب سدًى، لأنه سيبقى في ذهنك ملامح عامة للمباحث التي قرأتَها فترجع إليها إذا احتجتها.

ويومٌ يكون للتبحُّر أو التخصص، فتفرِّغ وقتك وجهدك لبحث مسألة ما في أيّ فن وتحققها وتستوفي الأقوال فيها.

وبهذا تكون إمامًا في هذه المسألة متخصّصًا فيها.

ويوم ليس للقراءة بل للكتابة.

تجلس للتأمل والتفكر فتسجِّل خواطرك شعرًا أو نثرًا بطريق تفلسف عقلي، أو توهج عاطفي أو تهويم خيالي.

وهذا أحسن منهج عندي لإشباع النَّهَم العلمي.

منهاجان في التعليم.

على امتداد تاريخنا مضت قرون كان يقاس فيها مستوى النبوغ بقوَّة الحافظة وسعة المحفوظات، وكانت هذه الظاهرة تلبيةً سريعة لظروف معينة، إذ كان العرب والمسلمون منهومين في تدوين تاريخهم ولغتهم وأدبهم وأحاديثهم، وامتازت مؤلفات تلك الحقب بالجمع، وكانت كلمة (الحافظ) من أعز المناقب العلمية، وربما أنفدَ بعضُهم عمرَه في دراسة كتاب ثم حفظه ثم تدريسه وتحفيظه.

وفي طلائع النهضة الحديثة واقتباس مناهجنا التعليمية من مناهج الغرب التربوية: رأى رُوّادنا أن التفرغ للحفظ لا يلائم منهج الاستقراء والاستنباط،

لأن الفرد لن يحفظ معارف الدنيا وإن عُمّر الدنيا، وكانت له كحافظة الإمام البخاري رحمه الله[1].

وكانت هذه الظاهرة أيضًا منبثقة من تغير الظروف، فلئن اندفعَ الناسُ إلى حفظ المتون لصعوبة وسائل الكتابة وانتشار الأمية وتناقل المعارف مشافهة، فلا داعي له اليوم لأن العلم جمَعَتْه بطونُ الكتب، فالرجوع إليها أيسر وأسرع من تكلّف الحفظ، ثم الرجوع إلى الذاكرة.

ومن ناحية ثانية فالرجوع إلى الذاكرة أحيانًا يغرّ.

ومن ناحية ثالثة فالذاكرة لا تشفي، لأنها لن تستوعب كل ما خُطّ وكُتِب.

لهذا لم يكن من منهج التأليف أن تُكتب المعارف نظمًا كما نُظِم النحو والفقه والفرائض والبلاغة والمنطق.. إلخ. ولم يكن من منهج التأليف أن تُختَصَر الكتب إلى ما يشبه الرمز، فتحتّم أن تُشحذ القرائح لتفهّم هذا المدوّن في الكتب وتنقده بدلًا من حفظه، لأن الغرض الأسمى هو أن نفهم وننقد ونرجح ثم نبني حياتنا العلمية.

أما الحفظ فلم يكن غاية، ولكنه وسيلة لعلة زالت، وبزوال هذه العلة يزول معلومها، وهكذا كان تاريخ الأجيال: جمع وحشد، ثم درس ونقد ولسنا نرضى أيًا من المنهجين في الوقت الحاضر، لأن المنهج الأول القديم ــ بإطلاقه ــ جمودٌ واستنفاد للطاقة في أكثر من نطاقها، كما أن المنهج الثاني الجديد بإطلاقة انفلات وتفريط في الطاقة في بعض نطاقها، فلكلٍّ فنّ من هذه المعارف أصول وقواعد

---

(١) ولأبي عبد الرحمن بن عقيل مقال مفيد أيضًا في مسألة الحفظ عنونه بـ«كل حافظ إمام«في» الفنون الصغرى - الخامس» ص١٥٥ - ١٥٦.



لابد من حفظها، وإن مناهجنا التعليمية لمعيدةٌ النظرَ فيما نستحثّ الطلابَ لحفظه، وقد علمنا بالتجربة من واقع كتب التراجم أن الذاكرة تنمو بالحفظ، وأن النتاج المشرِّف إنما ينبثق من طاقتي الحفظ والفِكْر معًا، ففكرٌ بلا حفظٍ عقيم، وإدمانُ حفظٍ بلا إشعاعِ فكرٍ جمودٌ.





كيف نُحَبِّب الكتابَ إلى الأطفال؟[1]

للأستاذ كامل كيلاني

من الـمشاهد الـمألوف أن الطفل إذا قصَّ عليك خبرًا، لجأ إلى تَكْرار الجُمَل كأنما يتثبت من معانيها في ألفاظها المكررة، فلنكتب له ـ وهو في هذه السن ـ مُحاكين أسلوبَه الطبيعي في تكرار الجمل والألفاظ، لنثبِّت المعاني في ذهنه تثبيتًا، ولنكرر له الجمل برشاقة، لنسهِّل عليه قراءتها، فإن لكل مقام مقالًا.

ومن المقرّر أن الطفل ـ في هذه المرحلة ـ ملول يتهيَّب الكتابَ، فلننزع من نفسه هذا الملل، ولنحبِّب إليه الكتاب بكل وسيلة، فنبسِّط له الأسلوب تبسيطًا، ونكثر له من الصور الجذابة الشائقة التي تسترعي انتباهه، لنشعره أن الكتاب تحفة تُهدى إليه إهداءً، وليس واجبًا يكلَّف به تكليفًا، فإن الطفل ـ إذا ساء ظنه بالكتاب ـ صعُبَ اجتذابه إليه بعد ذلك.

وقد وفق أكثر مَن تصدّوا لتأليف كتب الأطفال توفيقًا عجيبًا في تبغيض القراءة إلى نفوسهم، وتنفيرهم من المطالعة!! فأصبحوا يمقتون الكتابَ أشدَّ المقت، ويهربون مِن قراءته، لأن المؤلفين لم يراعوا سنّ الطفل وميولَه ورغباته، ولم ينزلوا ـ أو هم على الحقيقة ـ لم يستطيعوا النزول إلى مستواه ومخاطبته باللغة التي يفهمها وترتاح إليها نفسه.

ومن الإنصاف أن نقرّر بصراحة أنهم لم يضعوا كتبهم على نَسَق خاص أو

---

(١) مجلة الرسالة، مجلد٢٦، العدد ٦٥٧، سنة ١٣٦٥هـ، ص١٣٦. و كامل بن كيلاني إبراهيم كيلاني (ت١٣٧٩) أديب قاصّ، أول من كتب قصص الأطفال في الأدب العربيّ الحديث، كما يقول الزركلي. له قصص كثيرة تنوف على الألف! كما في الأعلام: ٥/ ٢١٧-٢١٨.



منهج بعينه، وأنهم في تأليفهم لم يتشبّعوا بفكرة فنية تنتظم الكتاب وتؤلف بين أجزائه؛ لأنهم يقنعون بتصيّد موضوعات الكتاب ـ كيفما اتفق لهم أن يتصيدوها ـ فيخرج الكتاب خليطًا مضطربًا لا تؤلِّف بين أجزائه فكرةٌ بعينها، ولا يتناسب أسلوبه مع مدارك الأطفال.

إن الطفل ميَّال -بطبعه- إلى الحكايات والقَصَص، وهو بغريزته؟ برؤية الصور الجذّابة. فلنختر له منها ما يناسب سِنَّه، ويتفق مع ميوله ورغباته وتفكيره، وقد حَفَزنا هذا الاعتبارُ إلى تأليف «قَصَص للأطفال» بالأمس، كما حفزنا اليوم إلى تأليف «حكايات للأطفال». وقد كتبنا الأولى لكبار الأطفال، والثانية لصغارهم. ولقيت قصص الأطفال ـ من الإقبال والعناية ـ ما شجعني على تأليف هذه الحكايات.

أما الفكرة التي انتظمت هذه السلسلة «**حكايات الأطفال**» فهي «**التكرار**» يكثر في أولها، ثم يقلّ -كلما تقدم الطفل في القراءة- بالتدريج، حتى يصل إلى قراءة الأسلوب الموجز الذي لا تكرار فيه بلا مشقة أو إعنات.

وقد تدرجنا بالطفل في هذه السلسلة حتى يكون آخر جزء منها ممهدًا لقراءة أول جزء من أجزاء السلسلة الأخرى «**قصص الأطفال**»، وإنما عَمَدنا إلى التّكرار عمدًا، بعد أن أقنَعْتنا التجاربُ العملية أنه أصلح أسلوب يلائم الطفل الناشئ، ويشجّعه على القراءة.

وذلك أن الطفل الناشئ لا يقرأ الكلمة إلا بجهد كبير، ولا يُتمّ قراءةَ السطر إلا بشقّ النفس، فلنقتصد جَهدَنا في استعمال الألفاظ الجديدة، ولنؤلف له من الألفاظ القليلة التي يقرؤها الكبير في بضعة أسطر عدة صفحات كاملة، لندخل في رَوعه أن القراءة ليست صعبة كما يتوهم، وليست شاقة مضنية، كما أَلِفها في الكتب الأخرى، بل هي سهلة ميسورة، وهي -إلى سهولتها ويسرها- ممتعة

شائقة، تملأ نفسَه بهجةً وانشراحًا، وثَمّة يشعر الطفل بثقة في نفسه إذ يرى أنه يقرأ صفحة كاملة بجهد يسير، فهو لن يُتم قراءة السطر الأول حتى يسهل عليه قراءة السطر الثاني والثالث والرابع وهكذا، لأن الألفاظ لا تكاد تتغير في الجمل إلا بمقدار يسير.

هذا هو المنهج الذي أخذنا به أنفسَنا في تأليف هذا الجزء وما يليه من الأجزاء. فإن وُفّقنا في هذه الخطوة -ونرجو أن يكون ذلك- فقد أدينا بعض ما يجب علينا أداؤه لهذا الجيل الناشئ الذي نعلق عليه أكبر الآمال.





المطالعةُ، كيف نشجِّع النشءَ عليها ونرشدهم إليها[1]؟



للأستاذ حسن الساعاتي

«**طالع، لاحظ، تعلم**».

تلك كانت نصيحة لنجينس أحد النقاد الرومان إلى تلميذه في كتابه «**عن الفن السامي**». إننا نتعلم عادة ما نلاحظه ونميزه، وما المطالعة إلا الخطوة الأولى في مرحلة المعرفة. ولا مراء في أن تجارب التلاميذ محدودة جدًّا، بل هي تعتمد على الكتب إلى حدٍّ بعيد. فهم يبدؤون بسماع الكلمات أطفالًا، ثم يتقدمون بالتدريج خطوة كبيرة، فيتعودون الكلام، ولا يكاد الواحد منهم يبلغ سن المراهقة حتى يُقبِل على الكتب التي يقع عليها بصره يلتهمها التهامًا. وما مرحلة المراهقة إلا مرحلة المطالعة.

ويعرّفنا علمُ النفس أن النشء مولع ولعًا شديدًا بالمطالعة، فهم يحبون القراءة في الكتاب، ذلك الصديق الصامت الذي ينصحهم إذا شاوروه في أمورهم، وهو بدوره أمين على أسرارهم، وكم للمراهقين من أسرار! ذلك هو الكتاب ذو الكيان الذي لا يتحول؛ وهو مع ذلك يطوي قوةً خفية لها أثرها وخطرها، وقد بلغ به التواضع ألا يبالي أوُضِع في الجيوب، أم على الرفوف؛ كما أنه طويل البقاء، عظيم النفع، قوي الأثر؛ ذلك هو الكتاب صديق الولد الصغير؛ فجان جاك روسو على كرهه الشديد للكتب، لم يحرم إميل تلميذه الصغير من كتابه «**روبنسون كروزو**».

---

(١) مجلة الثقافة، السنة الأولى، العدد ٢٩، ص ٢٣-٢٥.

عرفنا إذًا أن للكتب أهمية كبيرة ونفعًا عظيمًا، والآن أود أن أسأل الأسئلة الآتية: هل الأولاد المصريون يحبون المطالعة؟ وهل هناك كتب تناسبهم؟ وما هي المطالعة المحببة إلى نفوسهم؟

التلاميذ المصريون كغيرهم من التلاميذ؛ فهم يحبون المطالعة حبًّا جمًّا؛ وهم لا يستعيرون الكتب فحسبُ، بل يبتاعونها من مصروفهم دون أن يدفعهم إلى ذلك أحد. وربما يبلغ إقبالهم على المطالعة درجةً يُفضّلونها فيها على اللعب؛ وليس ذلك بعجيب، فقد ورثوا قوة التفكير والتأمل عن أسلافهم الفراعنة والعرب الذين قتلوا الكتبَ بحثًا واطِّلاعا. والتلميذ المصري بطبيعته كثير الأسئلة، مطلق الحرية، يَربَى بين أحضان الطبيعة، لهذا تجده مسالمًا يفضّل أن يُترك وحيدًا ليقرأ كتابه.

هل هناك كتب تناسب التلاميذَ؟ كلا. على الولد المصري أن يقرأ الكتب العربية والإنجليزية. أما كتب المطالعة العربية فهي جافَّة إلى حدٍّ بعيد، تحمل معلومات فقيرة هزيلة لا ترغيب فيها ولا تشويق.

الوزارة تبذُل جهدَها فتمدُّ التلاميذَ بمعلومات تناسبهم، ولكن عبثًا تفعل ما دام درس المطالعة لا يخرج عن كونه درس نحو وصرف وإعلال وإبدال. فالطريقة المتَّبعة في المدارس طريقة بالية طال عليها الأمد وخطَّأتها البحوث النفسية الحديثة؛ طريقة تفسدُ جمالَ الموضوع فتجعله مشوَّهًا غير جذاب، والنفسُ تميل بطبيعتها إلى الطريف المشوِّق. هكذا تخيب آمال التلاميذ في دروس المطالعة العربية، فتعزِف نفوسُهم عنها وتتحوَّل إلى قراءة الصحف؛ وهذا هو البلاء الأكبر، فأسلوبها عاديّ، وكثيرًا ما ينحطّ بما يحويه من أراجيف تُخلّ بالموضوع والمعلومات. وليس في مقدور الناشئ أن يميِّز بين الغثّ والسمين والصالح والطالح.

مساكين هؤلاء الصغار! لا غرو في أن جُلّهم يستمدون معلوماتهم مما يقرأونه في بيوتهم من صحف. وهكذا يستقون ثقافتهم -وما أفقرها- من ثقافة سطحية جافة! وما الصحف اليوم إلا طريقة لكسب المال أو استثماره بشتى الوسائل. صحافة مادية صِرْفة قتلت روحَ الثقافة وامتلأت صحائفُها بمعلومات مغرضة؛ دفعت أولادنا إلى الاشتغال بالسياسة.

وهناك القصة المترجمة التي شُغِف بها التلاميذ وأقبلوا على مطالعتها، وهذا النوع من القصص ضعيف الترجمة، وكثيرًا ما يكون غير مناسب لمدارك التلميذ المسكين الذي يشتريها بثمن قليل ويجد لذة في قراءتها.

وقد قيل: ما لا يمكن علاجُه فلا بدّ من تحمّله. فهم يُشْبِعون ميولهم للمطالعة بقراءة روايات الجيب المختلفة التي تحوي المغامرات وأقاصيص الغرام. هكذا نعلِّم أولادنا؛ نتركهم في ظلمات بلا مرشد أو هاد. فقد فُرّغت هذه القَصَص من كلّ ما هو قومي، إذ أن حوادثها وقعت في بلاد غريبة عن بلادنا. نجم عن ذلك أن أصبح التلاميذ المصريون يعرفون القليل عن البلاد الأجنبية ويجهلون كل شيء عن وطنهم، إذ ليس ثمة شيء مكتوب عنه بطريقة جذابة صادقة.

ماذا تفعل الوزارة؟ إنها تضع عددًا من الكتب الإنجليزية والعربية ليقرأها التلميذ في العطلة الصيفية. أما هذه الكتب فهي إما علمية جافة أو أدبية ذات أسلوب يعلو على أفهام التلاميذ فلا يستسيغونه. زد على ذلك أنهم مُـجْبَرون على قراءتها أثناء العطلة الصيفية، وكلّ مفروض مبغوض.

وكثيرًا ما صادفت تلاميذ لم يجدوا أي لذة في قراءتها. وهكذا صدفوا عنها إلى غيرها حتى يُشْبِعوا رغبتهم في المطالعة. أليس من العجيب أن نفتقر إلى القصة وتاريخنا غنيّ بالحوادث التي تعتبر مادة طيبة للتأليف؟ الحقيقة أن كل ما

لدينا محاولات في المحيط الأدبي. إن تعجب فعجبٌ أن ترى أولادًا متحمسين للمطالعة فلا تقدم لهم مادة لائقة تناسبهم.

التلاميذ المصريون يحبون من المطالعة ألوانًا شتّى، فهم يميلون إلى قراءة الكتب العربية قبل غيرها شعرًا كانت أم نثرًا، ومدارك التلاميذ مختلفة؛ فمنهم مَن يقرأ قَصَص الأطفال ومقطوعات من الشعر الركيك، وهم راضون بذلك كل الرضا. ومنهم من تطمح نفسُه إلى ما هو أَسمى فيقرأ الأدب الرفيع.

ولا غرو في أن جلّ التلاميذ يُقبلون على قراءة الكتب التي ترجمها أو وضعها المنفلوطي، أحد كُتّاب مصر المجيدين. ذلك لأنه كتب في مواضيع شتّى بأسلوب أخّاذ، فصوَّر الغنى والفقر أبدع تصوير، وعبَّر عن السعادة والشقاء أصدق تعبير، وتناول كل العواطف النبيلة ويلهب الحس المرهف. هذا النوع من الكتابة يناسب المراهقة، غير أنه يخشى على النشء من ترهّف إحساساتهم إلى درجة زائدة عن الحدِّ، فتصبح عواطفهم عُرضةً لأن تتأثر لأوهى الأسباب وأرخصها، في حين أننا في حاجة إلى نشء قويّ تعتمد عليهم مصر.

ويميل التلاميذ إلى قراءة الصحف الإنجليزية التي توصي الوزارة بشرائها، لأن لغتها سهلة، ولأنها متنوعة تحوي مواضيع شتى. وهناك أقلية تقرأ الصحف الإنجليزية والفرنسية المحلية. كما أن هناك عددًا لا بأس به يقرأ القصص البوليسية التي كتبها إدجار ولاس، وأجاثا كريستي، ودورو ثيسييرز وغيرهم؛ وفي بعض الأحيان يحاول بعض التلاميذ ترجمة القصص الصغيرة، وكثير ما تنجح محاولاتهم.

ومن المؤلم والمخزي أن جل التلاميذ وخاصة الأغنياء يميلون إلى قراءة الصحف الأمريكية التافهة. وأما من نالوا حظًّا من الثقافة الفرنسية فقد تعودوا



قراءة مجلات فرنسية خليعة مليئة بصور النساء العاريات وانتشرت هذه العادة كالوباء، حتى أصبح يقرؤها كل التلاميذ سرًّا وعلانية، مع ضعفهم في اللغة الفرنسية نفسها.

مَثَل التلميذ المصري كمثل سفينة مُعدّة بأجمل الشراع وأصلبها، ولكن لا هواء يحرّكها ويدفعها. فالتلميذ يرغب في المطالعة، ولكنها لسوء حظه لا تجد مشجعًا ولا مرشدًا.

لا بد إذًا من إيجاد مواضيع مناسبة للنشء عندنا وعلى خريجي الجامعة أن يبحثوا عن مصادر يتخذون منها مادة للكتابة التي تفيد التلاميذ وتسليهم، ويجب ألا تفوتنا العناية بالجانب الأخلاقي.

بعد أن نمدّ التلاميذ بالمادة الكافية المناسبة لعقولهم، يجب أن نعلمهم كيف يقرؤون، لأن القراءة فنّ مبنيّ على أسس ثابتة. في استطاعة الناس أن يأكلوا، وقليل منهم من يعرف تمامًا كيف يأكل وماذا يأكل، وبالمِثْل نجد أناسًا كثيرين يطالعون وقليل منهم من يعرف كيف يفعل ذلك على أتم وجه.

ويجب أن يدرَّب التلاميذ على استعمال المكتبات المدرسية ودور الكتب العامة، وعليهم أن يعرفوا كيف يستفيدون منها. ويجب أن تكون المكتبات المدرسية في أماكن هادئة تشجع على المطالعة، ويجب أن تكون حجرات المطالعة فسيحة معدّة بوسائل التهوية، وخاصة في جو مصر الحار في فصل الصيف. كما أنه يجب أن يكون بدور الكتب مرشدون يدلون التلاميذ على الكتب الصالحة لهم المناسبة لمداركهم. وللتلميذ مطلق الحرية في اختيار الكتاب الذي يعجبه، ولكن هذه الحرية يجب أن يحدها النظام والمنفعة، وإلا فسدت أخلاق النشء، وإن كان كل شيء يحق لهم فليس كل شيء يصح لهم.

أما في المدرسة فيجب أن يشجع التلاميذ على القراءة بوسائل شتى؛ فتوزّع عليهم كتب الجوائز في مناسبات عدة. ولا شك في أن التلميذ يجد لذة في قراءة الكتاب الذي ناله جائزة وأصبح ملكه لا يشاركه فيه أحد.

ويجب أن يشجع التلاميذ على عمل مكتبات خاصة بهم، ويساعدهم على ذلك مشروع إنشاء مكتبة يكون من ضمن مواد البرنامج. وعلى المدرسة أن تشجعهم بزيارة هيئتها لمن يقتني مكتبة يستفيد من كتبها. وإنه لما يشعر التلميذ بالفخار والعزة أن يستقبل في بيته الناظر وبعض أعضاء هيئة التدريس. أليس في ذلك مشجع كافٍ لهم على اقتناء الكتب وقراءتها؟ ويجب أن تشجع جمعيات التلاميذ العلمية والأدبية على السواء، لأن في ذلك تشجيعًا لهم على الاطلاع والبحث. أما دروس المطالعة فيجب أن تكون مشوِّقة في طريقتها ومادَّتها، لأن درس المطالعة خطوة تمهيدية لمطالعات النشء الخاصة.

ويجب أن يكون لكل مدرسة صُحُفها التي يديرها ويحررها التلاميذ أنفسهم؛ فهم يقرؤون ليكتبوا فيها المواضيع العلمية والأدبية بعد البحث والاطلاع؛ وما من شك في أن هذه الطريقة تشجع التلاميذ على المطالعة فضلًا عن أنها تُكْسِبهم خبرة ودراية في عالم الصحافة.

وكذلك من الأمور اللازمة أن تبقى المكتبات المدرسية مفتوحة أثناء العطلة الصيفية ليستعير منها التلميذ الكتب التي يود أن يقرأها؛ لأن منهم من يرغب في قراءة بعض الكتب، ولكنه لا يجد متسعًا من الوقت أثناء الدراسة. فلماذا لا نشجعهم على الاطلاع أثناء العطلة الصيفية بدل أن يندمجوا مع أقران السوء فتفسد أخلاقهم.

كما أنه يجب أن تُصادَر الصحف الأجنبية الخليعة التي تحوي ما يفسد أخلاق النشء، ويحرَّم دخولها مصر وتداولها بين أيدي أولادنا، لأنها تُلهب



فيهم الغريزة الجنسية قبل أوانها بطريقة غير صحية لأنها غير طبيعية.

وإني أقترح أن تُلحَق بالحدائق العامة الكبيرة مكتبة صغيرة؛ إذ أن كل من يذهب هناك لا يفعل ذلك بقصد اللعب وضياع الوقت. وكثيرًا ما نرى أن كثيرًا من الناس يجلس في ظلال الأشجار يطالع كتابه. وجوُّ الحدائق ولا ريب يشجّع على القراءة حيث الطبيعة هادئة خلابة تسر النفس وتنعشها، وتحفز العقل على التأمل والتفكير. فلماذا لا ننشئ بكل حديقة من الحدائق العامة مكتبة صغيرة؟ ومن الناس من يكره حمل الكتاب، ولكنه حينما تحتويه الحديقة ينشط عقله ويميل إلى الاطلاع.

وهناك فكرة أخيرة، وهي وإن لم تكن جديدة في بابها إلا أنها تكون على كلّ حالٍ فريدة في نوعها في مصر. فقد أمدت انجلترا مكتباتنا بكتب رخيصة الثمن حسنة الطبع لا يتجاوز ثمنها الثلاثين مليما، فلم لا نحذو حذوها فتكون لنا كتب مثل كتب «**البنجوين**» و «**البيليكان**» التي حوت العلم والأدب قديمه وحديثه؟ لقد أدى هذا النوع من الكتب خدمات جليلة إلى الثقافة الإنجليزية. وإني لآسف كل الأسف لخلوِّ بلادنا من الكتب العربية الرخيصة الثمن المتقنة الطبع.

تلك هي الوسائل التي أراها لإرشاد تلاميذنا إلى المطالعة المحببة إلى نفوسهم.





ميول الأطفال القرائية، واستجابة المكتبة العربية لها[1]



للدكتورة رمزية الغريب

إن للقراءة أهمية كبيرة في حياتنا اليومية، ويكاد لا يوجد بديل للقراءة لتحقيق كثير من نواحي النموّ الشخصي والاجتماعي ، فعن طريق القراءة يستطيع المواطن التكيّف للوسط الذي يعيش فيه حيث تعقَّدت ظروف الحياة وتعددت مطالبها، ويمكننا أن نقول: إن القراءة تحقق للمواطن منافع متعددة منها:

أولا: في مجال الحياة اليومية:

١- إن القراءة في الوقت الحالي تعتبر أهم وسائل الاتصال مع الآخرين، فهي الأداة التي تساعده على التعامل والاتصال بالمجتمع الذي يحيط به ، ومنها يَتمكّن من معرفة وفهم الأحداث الجارية التي تشكِّل الحياةَ من حوله، وبذلك يكون قادرًا على أن يشارك في صنع هذه الحياة لنفسه ولأبنائه.

٢- عن طريق القراءة يستطيع المواطن قضاء حاجيّاته اليومية من بيع وشراء ومعاملات مع الآخرين، وأن يقوم بأنواع كثيرة من النشاط الذي تتطلبه الحياة العصرية.

ثانيا: في مجال تنمية الشخصية:

١- بالقراءة يتوصل الفردُ إلى السيطرة على التراث الثقافي للجماعة في مختلف

(١) مجلة الكتاب العربي، العدد ٤٨، سنة ١٩٧٠م، ص ٦-١١.

المعارف الإنسانية، هذا وتزداد قدرته على استخدام القراءة في التعرُّف على التراث الإنساني كلما كان قادرًا على استخدام أكثر من لغة؛ إذ أن معرفة اللغات الأجنبية توسِّع دائرة القراءة بحيث تشمل ليس فقط التراث الثقافي للجماعة التي هو عضو فيها وإنما أيضًا التراث الثقافي للجماعات الأخرى.

٢- تعتبر القراءة وسيلةً فعَّالة للتثقيف الذاتي وزيادة خبرة الفرد ونمو قدرته على معالجة ما قد يعرض له من مشكلات بطريقة سليمة، وليس هناك شكّ في أن الشخص الذي كوَّن عادة القراءة يختلف في شخصيته وفي طريقة معالجته للأمور عن شخص يعتمد على ما حَصَّله من المدرسة، أو عن شخص لم يتعلّمها مطلقًا، ذلك لأن الذي لم يتعوَّد القراءة لا يلبث أن يرتدّ إلى شبه أُميّة بعد أن ينسى الكثير مما اكتسبه أو تعلَّمه في المدرسة، ولا يبقى منه إلا قليل القليل، وهكذا يصبح عاجزًا عن مسايرة التطوُّر السريع للعصر الذي نعيش فيه، عصر العلم والمعرفة التي وصلت بالإنسان إلى القمر.

لهذا كان تعويد الطفل على القراءة مسألة على جانبٍ كبير من الأهمية، بل هي ضرورة تحتِّمها التربية، لأنه بالقراءة يكتسب الطفل أداة هامة للنمو وتثقيف الذات لا يقل أثرها عن تعليمه بطريقة شكلية في المدرسة، إن لم تكن تفوقها.

٣- تلعب القراءة دورًا فعَّالًا في تنمية شخصية الفرد، وفي تفتُّح قدراته العقلية المختلفة، فقد أثبت بعضُ الأبحاث أن هناك علاقة وثيقة بين استخدام الرموز اللغوية المكتوبة وفهمها والتعامل معها، وبين التحصيل في اختبارات الذكاء، فالأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب يكون أداؤه في تلك الاختبارات متأخرًا للغاية، ومعنى ذلك أن الأمية تُعرقِل الاستعدادات

العقلية، بينما القراءة تساعد على انطلاق تلك الاستعدادات وتَفَتُّحِها.

ثالثًا: القراءة والتحصيل المدرسي:

إن للقراءة أهمية كبيرة في تشجيع وتنمية التحصيل المدرسي ليس فقط في اللغة وإنما في مختلف المواد الدراسية، فقد ثبت أن تأخُّر كثير من التلاميذ في الحساب إنما يرجع إلى عدم قدرتهم على القراءة وفهم المعاني المقروءة، كذلك يرتبط الاهتمام بالقراءة ارتباطًا موجبًا مع النجاح في دراسة وتحصيل المواد والدراسات الأدبية.

رابعا: القراءة وقيمتها الترويحية:

تلعب القراءة دورًا فعّالًا في تمضية وقت فراغ ممتع مع الكتاب، فإذا أحسن توجيه الطفل إلى القراءة المثمرة فإنه يكتسب من وقت فراغه خبرات متعددة فضلًا عن المتعة العقلية التي يشعر بها من القراءة؛ لكل هذا كان لا بد من أن نُعنَى عنايةً خاصة بتعويد أبنائنا على القراءة وهوايتها، وتوفير المكتبة العربية المناسبة، على أنه لكي يُقبِل الصغارُ على القراءة لا بدّ أن نوفر لهم الكتب والقراءات التي تناسب اهتماماتهم في مختلف الأعمار، ولهذا توجّه الدول المتقدمة عناية خاصة بدراسة اهتمامات الأطفال والشباب القرائية، حتى تكون هذه الاهتمامات حوافز طبيعية للإقبال على القراءة وهوايتها.

الاهتمامات القرائية عند الصغار:

لقد ثبت من الأبحاث التي عُمِلت عن اهتمامات الأطفال القرائية أن هذه الاهتمامات ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالنموّ العقلي والاجتماعي والانفعالي للصغار، كما أنها تنمو وتتطور بتقدُّم الطفل في العمر. ورغم أن عملية النمو في الميول

والاهتمامات القرائية عملية متصلة ومستمرة إلا أننا نستطيع أن **نميز فيها مراحلَ ثلاثٍ:**

المرحلة الأولى: من سن ٦-٩:

في الفترة ما بين سنّ ست وتسع سنوات يكون النموّ العقلي للطفل بعيدًا عن النضج وإن كان في اضطراد مستمرّ، شأنه في ذلك شأن بقية نواحي شخصيته الأخرى، لهذا فهو يكون غير قادر على تفهّم عالم الواقع المحيط به بضغوطه المتعددة المتمثلة في أوامر البالغين ونواهيهم له أثناء عملية التطبيع الاجتماعي. تلك الأوامر والنواهي التي تفرض قيودًا على تحركاته وتصرفاته لا يفهمها ولا يقبلها لينفِّس بها عما يشعر به من ضيق ورفض لعالم الحقيقة والواقع المحيط به.

في هذه المرحلة يهتمّ الطفل اهتمامًا خاصًّا بقراءة الكتب الخيالية، ويحب أن يتعامل مع عالم الجماد كأنه عالم أحياء فيحدِّث مكتبته، ويحدّث سريره ومقعده، كما يحدِّث الحيوانات والطيور ويستمع لها وهي تحدثه، ولهذا فهو يحب أن يقرأ مثلًا عن بندقية تحدّث جنديًّا تحثه على القتال دفاعًا عن أهله وعشيرته، وأن يتمتع بقراءة بسيطة عن أحداث خارقة للعادة يستطيع أبطالها بقوة سحرية التغلب على كل ما يعترضهم من صعاب، فيتصور الطفل نفسه مكان أبطال هذه القصص، ويتصوّر نفسَه يمتلك تلك القوة السحرية التي تمنحه القوة التي يفتقدها أمام قوة البالغين الطاغية على شخصيته، ولذلك فإن مثل هذه القراءات تعطيه متعة لا مزيد عليها، كما أنها تساعد على التنفيس عما قد يشعر به من انفعال وضيق أو توتر نفسي.

كذلك يهتم الطفل في هذه المرحلة بالكتب والقراءات المصورة التي تصوِّر له في بساطة أنشطةَ الحياة اليومية المحيطة به، ويجد متعة كبيرة في متابعتها لأنها تمثل المواقف التي يألفها ويعيشها.

المرحلة الثانية: من سن ١٠ - ١٢:

تمتاز هذه المرحلة من حياة الطفل وهي المرحلة التي تسبق المراهقة مباشرةً بدرجة أكبر من النمو العقلي والخبري، كما تمتاز بسيطرة الطفل في المدرسة على المهارات القرائية الأساسية، مثل التعرُّف على الكلمات والحروف، وفهم معاني الرموز اللغوية المقروءة ثم الاستجابة لما فيها، واستخدام الأفكار المستخلصة من القراءة كلما ظهرت الحاجة إليها.

لهذا تمتاز هذه المرحلة بامتلاك الطفل لإمكانيات تتيح له القراءة في مجالات متعددة. ومما يزيد في أهميتها في تعويد الطفل على القراءة المتعددة الجوانب: ما تمتاز به هذه المرحلة من عمر الصغير من الاستقرار النفسي والانفعالي بعكس المرحلة التالية، أي مرحلة المراهقة التي تتميز بعدم الاستقرار وضعف القدرة على المثابرة اللازمة للقراءة والتمتع بها.

وقد عُمِلت أبحاث متعددة عن اهتمامات الأطفال القرائية في هذه المرحلة وثبت تعدُّدها وتنوُّعُها، كما ثبت حدوث بعض التغيير في ميول الأطفال القرائية التي كانت سائدة في المرحلة السابقة (من ٦ ـ ٩ سنوات) فيقل إقبالهم على قراءة القصص الخيالية التي تحتوي على قوى وأحداث خارقة للعادة، ويرجع السبب في ذلك إلى أن نموَّ الأطفال العقلي المتزايد يساعدهم على تقبُّل عالم الواقع بدرجة لا بأس بها، ويصبح الهروب من هذا العالم إلى الخيال أمرًا لا مبرّرَ له.

كذلك يتطوّر حبهم للقصص التي تُحكَى على لسان الحيوانات والطيور إلى حبٍّ للكتب التي تزيد معلوماتهم عن هذه الحيوانات والطيور، وتبيّن لهم كيف تعيش وأين تعيش، وما هي طباعها وكيف تتكاثر ومتى تهاجر إلخ.

ويفسَّر هذا التطور في الاهتمامات القرائية إلى نموّ الرغبة في مزيد من المعرفة والعلم عن العالم المحيط، عالم الحيوان والإنسان والنبات، بل وعن البيئة الطبيعية المحيطة، ولهذا تسجّل المكتبات العامة والمكتبات المدرسية الإقبال على كتب مشاهد الطبيعة المبسَّطة، وعلى كتب مثل «**كل شيء عن الحيوان**» و«**كل شيء عن الأسماك**» وكتاب «**الأزهار ونبات الزينة**» إلخ.

هذا، وتمتاز هذه المرحلة أيضا بالميل إلى قراءة كتب العلوم المبسطة، وكتب التكنولوجيا المتعلقة بتركيب لعبة ميكانيكية أو تصميمها، ويرجع السبب في ذلك إلى أن هذه الفترة من عمر الفرد تمتاز برغبته في ممارسة أعمال يدوية ومهارات ميكانيكية، فنجدهم يحاولون عمل أجهزة راديو، وأجهزة تليفون، كما يحاولون تصميم أجراس كهربائية وبطاريات وغيرها. وذلك فضلًا عن الأعمال الفنية التي تتطلبها مجموعة كبيرة من الهوايات التي يمارسها الصغار في هذه السن، والتي تتطلب القراءة والاستزادة في المعارف المرتبطة بتلك الهوايات، لهذا كان من الطبيعي أن يلجأ الصغار إلى القراءة للإجابة عن مئات من الأسئلة التي تدور في عقولهم الصغيرة.

كذلك ثبت أنه من الميول القرائية للأطفال أو التلاميذ في هذه السن أي في الفترة بين سن ١٠ - ١٢، حب قصص المفاجآت وقصص المغامرات والقصص التي تعتمد على التفكير والتوقّع، وكذلك قصص الأشعار والرحلات، وذلك لأن التلاميذ في هذه السن يحبون معرفة كيف يعيش الصغار في البلاد الأخرى.

كذلك يميل التلاميذ بين سن ١٠ - ١٢ إلى قراءة قصص البطولة، ولهذا كان من الممكن استغلال هذه الرغبة في تعريفهم بالبطولات القومية والأمجاد

الوطنية التي يفخر بها المجتمع، ويلاحظ أن قراءة هذه الكتب تزيد معرفتهم بهذه البطولات التي تضرب لهم الأمثلةَ الرائعة والقدوةَ الصالحة.

هذا، وقد أثبتت الأبحاث أن التلاميذ في هذه السن يميلون إلى قراءة التمثيليات والمسرحيات، فيُقْبِلون على قراءتها بشغف وأعداد كبيرة، ويرجع السبب في ذلك إلى أن القارئ الصغير يتخيّل نفسَه موضع البطل، وكثيرًا ما يجد في القصة حلًّا لكثير من مشكلاته التي تحيّره، وبذلك يكون للقصة المقروءة قيمة تنفيسية نفسية علاوة على القيمة الترويحية.

وأخيرًا وليس آخرًا نلاحظ أن الممتازين عقليًّا من أبناء هذه السن يُقبلون على قراءة الكتب الدينية حيث تنمو الرغبة في معرفة الشعائر الدينية في سن مبكرة عنها عند الأطفال المتوسطين أو العاديين في الاستعداد العقلي، على أن الميل إلى القراءات الدينية يكون أكثر وضوحًا في المرحلة التالية أي مرحلة المراهقة. ويمكننا أن نقول باختصار: إن القراءة تحقق للمراهق فائدتين هامتين:

(أ) اكتساب معلومات ومعرفة.

(ب) المتعة الذهنية.

ويلاحظ أن المراهق يختار ما يريد من قراءات يميل إليها بصرف النظر عما إذا كانت هذه الكتب مرتبطة بالتحصيل الدراسي أم لا، وغالبًا ما تكون متعلِّقة بقراءات حُرّة يهتم بها بصفة خاصة. لأنها تساعده على حلِّ مشكلاته أو على اكتساب خبرة تمكّنه من حلّ تلك المشكلات بطريقة أفضل، وهذه تتركز عادة حول السلوك الاجتماعي، أو المهنة أو اكتساب معلومات فنية متعلقة بالهوايات.

على أنه يلاحظ أن القراءة للمتعة تقلّ في مرحلة المراهقة عنها في مرحلة الطفولة، ويمكن تعليل ذلك بأن المراهق عنده وقت فراغ أقل من وقت الطفل، وذلك بسبب زيادة اهتمامه بالأنشطة الاجتماعية، وذلك فضلًا عن انشغاله سواء في المرحلة الثانوية أو الجامعية، بأعماله المدرسية والتحصيلية، وهذه تفوق كثيرًا ما كان يقوم [به] في المرحلة الابتدائية.

وتبلغ رغبةُ المراهق في القراءة الحرة ذروتَها بين سن ١٢- ١٤ وبعدها تقلّ تلك الرغبة قليلًا، وذلك لأنه يسعى إلى القراءة بقصد المعرفة وليس بقصد المتعة، وبذلك يقل الوقت الذي يصرفه في القراءة الحرة.

ولقد ثبت من بحث بعض العلماء مثل ميلر(miller) أن أبناء المستويات الاجتماعية الأعلى تهتمّ أكثر من غيرها بالقراءة الحرّة، ويتجه المراهق بين سن ١٢- ١٤ إلى قراءة أيّة مادة قرائية. على أن هذا الاتجاه العام في القراءة يتطوَّر ويتغير وتلعب الفروق الفردية في الاهتمامات القرائية دورًا أكبر مما كان لها في مرحلة الطفولة، ويظهر نوع من التخصص في القراءات فلا يعود المراهق يقرأ كلَّ ما تقع عليه يديه، وإنما يقرأ ما يميل إليه فقط، سواء كان قصصًا أو تراجم أو شعرًا.. الخ. ويمكننا أن نقول: إنه ثبت من البحث أن العمر الذهبي للإقبال على القراءة عند العاديين هو سن ١٣، ويمتدّ هذا السن إلى ١٧ عند الممتازين في الاستعداد العقلي.

هذا، ويلاحظ في هذا السن تحوّلًا آخر في اهتمامات المراهق القرائية، إذ أنه يتجه إلى الصحف اليومية والمجلات والقصص القصيرة، وربما كان السبب في ذلك هو عدم وجود وقت لقراءة القصص الطويلة أو القراءات الأخرى،

فضلًا عن أن الصحف اليومية تعطيه معلومات جديدة عن العالم المحيط به وعن الأحداث الجارية التي تجذب انتباهه.

وحوالي سن الثامنة عشر تثبت الميول والاهتمامات القرائية، كما أنها ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمؤثرات الاجتماعية والاقتصادية وبمستوى الاستعداد العقلي فضلًا عن الخبرات المدرسية السابقة، هذا ويؤثر الاستعداد العقلي في مدة القراءة كما يؤثر في تعدد نواحيها.

الفروق بين الجنسين في الاهتمامات القرائية:

هناك فروق بين البنين والبنات في الاهتمامات القرائية، وفي نوع القراءات، وفي الأهمية النسبية لموضوعات القراءة عند الجنسين، فضلًا عن أن الإناث أمْيَل إلى صرف وقت أطول مع الكتاب.

كذلك لوحظ أن المراهقين من الذكور ينصرفون عن قصص المغامرات التي كانت شائعة في المرحلة السابقة، ويُقْبِلون على القراءات العلمية المتعلقة بالاختراعات والهوايات العملية، كذلك يقبلون على القصص البوليسية والكوميدية، ثم الكتب الميكانيكية الفنية. كذلك يستمر الإقبال على التراجم والتاريخ والأسفار ويزداد اهتمامهم بالأحداث الجارية والرياضة البدنية وكتب المعارف العامة، كما يتجه البعض إلى قراءة كتب الدين.

أما الإناث فإنهن يَمِلْن بصفة عامة إلى قراءة القصص العاطفية، وبينما يقلّ ميلهن للكتب الفنية الميكانيكية. بالإضافة إلى ما سبق فإن الإناث يملن إلى قراءة كتب عن آداب السلوك والمعاملة وبعض الهوايات المنزلية.

فيما يلي إحصائية لعدد الاستمارات من مكتبة مدرسة ثانوية بنين، وأخرى ثانوية بنات في السنة الدراسية ٦٧/ ١٩٦٨:

م	نواحي المعرفة	البنات	الذكور
١	قصص	٤٤٤	٤٢١
٢	آداب لغات	٣٢١	٢٩٧
٣	علوم تطبيقية وبحته	٢٤٧	٥١١
٤	تاريخ وجغرافيا ورحلات	١٧٧	٢٠٤
٥	علوم اجتماعية	١٤٣	١٢٢
٦	فنون جميلة	٨٦	٥٢
٧	فلســـفة	٨٣	٦٧
٨	تراجـــم	٧٦	٨٢
٩	ديانـــات	٢٨	٢٦
١٠	معارف عامة	٧	٩

من هذا الجدول يتضح لنا تفوق الذكور على البنات في القراءات العلمية المرتبطة بالعلوم البحته والتطبيقية، فضلًا عن إقبالهم على الرحلات والتراجم، أما الإناث فهنّ أمْيَل أكثر ــ كما سبق أن ذكرنا ــ إلى قراءة القصص العاطفية وآداب اللغات والفنون الجميلة.

هذه خلاصة بسيطة عن اهتمامات الأطفال والشباب القرائية، ومنها نرى أن هذه الاهتمامات إذا ما عُني بها فإنها تعتبر من الحوافز الهامة المشجعة على الإقبال على القراءة، على أن هناك عوامل شكلية في الكتاب إذا ما توافرت كانت عاملًا فعّالًا لإقبال الطفل على القراءة نذكر منها:

١- أن يكون حجم الكتابة أو (البنط) الذي طبع به الكتاب مناسبًا لمرحلة النمو التي يحياها الطفل، فلا يكون من الكِبَر بحيث يبعث على الاستهتار، ولا من الصغر بحيثُ يتعب البصر وخاصة في المراحل الأولى.

٢- أن يستخدم الكتاب الكلمات المألوفة التي يستخدمها الطفل في حياته اليومية حتى يساعده الكتاب على فهم واستيعاب مادة الكتاب دون مجهود ينفِّره، ولهذا تُعنى الدول المهتمة بقراءات وأدب الطفل إلى دراسة المفردات اللغوية التي يجب أن يُكتَب بها للطفل، بل ذهب بعضها إلى أكثر من هذا، أي إلى كتابة الكتاب الواحد على مستويات مختلفة من الصعوبة حتى تناسب الطفل البطيء والطفل السريع في القراءة.

٣- تزويد الكتب بالصور المناسبة المطبوعة بدقة وأناقة تجتذب القارئ الصغير.

٤- أن يكون الورق المستخدم في الطباعة من نوع جيد نوعًا، وذلك حتى يحتمل استخدام الطفل له دون أن يتمزّق ويصبح في حالة يرثى لها.

٥- أن يكون الكتاب مجلّدًا تجليدًا متينًا وأنيقًا حتى يجذب الطفل إليه ويشجعه على الاحتفاظ به.

٦- يجب أن يراعي الكتاب المستويات القرائية للأطفال والشباب، وهذه الناحية في الواقع تشكِّل مشكلة لها وزنها بالنسبة لأدب الأطفال، ولذلك عملت أبحاث متعددة لمعرفة مستويات النمو القرائي في الأعمار والفرق المختلفة.

المكتبة العربية وكيفية مقابلتها لاهتمامات القراء الصغار:

لقد حُصِرَت الكتب التي ألفت أو تُرجِمت للأطفال والشباب في السنوات



الأخيرة، ووُجِد أن المكتبة العربية في الواقع ليست فقيرة في هذه الناحية؛ إذ زاد عدد هذه الكتب على الألفين في موضوعات متعددة، مثل القصص والكتب الدينية والعلوم والآداب الأجنبية والجغرافية والرحلات والتاريخ والتراجم والدراسات الاجتماعية والصناعات والتكنولوجيا والطب والصحة والمسرحيات والتمثيليات والشعر والأناشيد والفنون الجميلة، وغيرها من الموضوعات العامة. **وفيما يلي قائمة بتلك الكتب وتوزيعها:**

اسم الكتاب	العدد	النسبة المئوية
القصص	٩٥٦	٪٤٥
الكتب الدينية	٢٢٩	٪١٠,٩
علـــــوم	١٨٧	٪٨,٨
الآداب الأجنبية	١٧٠	٪٨,١
الجغرافية والرحلات	١٤٣	٪٦,٨
التاريخ والتراجم	١٣٦	٪٦,٤
دراسات اجتماعية	١٠٤	٪٥
صناعات وتكنولوجيا	٦٥	٪٣,٨
طب وصحة	٤٨	٪٢,٢
المسرحيات والتمثيليات	٣٥	٪١,٦
الشعر والأناشيد	١٥	٪٠,٧
فنون جميلة	١١	٪٥٢
موضوعات عامة	١٠	٪٠,٤٧

من دراسة هذا الجدول نلاحظ ما يأتي:

أولا: أنه قد تم بالفعل في السنوات الأخيرة تأليف وترجمة عدد كبير من كتب الأطفال والشباب، **إذ تزيد القائمة على ألفي كتاب في موضوعات العلم**

والمعرفة المختلفة، الأمر الذي أضاف إلى المكتبة العربية للطفل الشيء الكثير، ووضع أمامه إمكانيات كبيرة للقراءة للثقافة والمتعة على حدٍّ سواء.

ثانيًا: أن هذه الكتب قد تناولت موضوعات متعددة من الممكن أن تعطي صورةً لا بأس بها عن التراث الثقافي والاجتماعي للمجتمع العربي الناهض.

ثالثًا: على أنه رغم هذا المجهود الكبير الذي بُذِل من جانب الكُتّاب والأدباء العرب إلا أن هناك بعض المآخذ على هذه المكتبة يمكننا أن نجملها فيما يلي:

(أ) أنه لم يكن هناك تخطيطًا واعيًا لتنمية هذه المكتبة، ولذلك نجد أن بعض النواحي قد أتخِمَت من كثرة ما كُتِب فيها، بينما ما زالت بعض النواحي الأخرى رغم شدة ميل الطفل إلى القراءة عنها تعاني نقصًا شديدًا، ولذلك تعتبر المكتبة العربية فقيرة جدًّا في هذه الموضوعات.

ونضرب مثلًا لذلك: أنه بينما يبلغ عدد ما كُتِب من قصص ٤٥٪ من عدد الكتب الكليّ نجد أن عدد ما يخص موضوعات الثقافة العامة ٤٧٪ ، وذلك رغم اهتمام الصغار بها خصوصًا في المرحلة من سن ١٠-١٤. هذا، ولا يقتصر هذا النقص على موضوعات الثقافة العامة، بل نجد أن عدد كتب الفنون الجميلة حوالي ؟؟ ٪ من حصيلة مكتبة الأطفال كلها.

ولا يقتصر هذا النقص على موضوعات الثقافة العامة أو كتب الفنون الجميلة، كتب الشعر ٧،.٪ ، والمسرحيات والتمثيليات ٦,١٪ ، والكتب العلمية والتكنولوجية لا تزيد على ٨,٣٪، وذلك رغم أهمية هذا النوع من الكتب لأنها تشكِّل جانبًا هامًّا من جوانب اهتمامات الأطفال والشباب في بداية المراهقة، لارتباطها بميل الطفل إلى ممارسة هواية عملية فنية معينة يقضي بها وقتَ فراغه، ويهوى القراءة في موضوعها رغبة في زيادة ما يعرفه عنها.

(ب) **المأخذ الثاني**: الذي نأخذه على مكتبة الطفل العربية هو: أن هذه المكتبة رغم كثرة ما بها من كتب إلا أنها في الواقع لا تُعِد الطفل الذي سيكون مواطنًا صالحًا في مجتمع اشتراكيٍّ متطوّر[1]. ومعنى ذلك أنها أو على الأقل معظمها في ناحية والتحول الاشتراكي في ناحية أخرى، أي أنها لا تعكس ما يحدث في المجتمع العربي من تغيير، وإذا حُلّل مضمون كثير منها لوجد أن هذه الكتب في السنوات الأخيرة لا تختلف كثيرًا عما كان عليه هذا المضمون قبل ما قامت به الثورة لتحقيق التحويل الاشتراكي وبناء الحياة الجديدة.

(جـ) كذلك نلاحظ أن المكتبة العربية ينقصها الكتب التي تعدّ للمعركة الحالية مع إسرائيل معركة المصير، فما زلنا نحتاج إلى كتب للأطفال تبين لهم طبيعة مشكلة فلسطين، ولماذا يصرّ العربُ على استرداد أراضيهم المغتصبة أو الموت في ساحة الشرف والفداء، وكذلك ينقصنا الكتب التي تعرِّفنا بأعدائنا حتى نأمن شرَّهم ونتغلب عليهم بالمعرفة والقوة والتصميم على النصر.

(د) كذلك ما زلنا في حاجة إلى مزيد من الكتب التي تعرِّفنا بالوطن العربي كلِّه من أقصاه إلى أقصاه، لا في صورة معلومات جافة عن جغرافية هذا الوطن واقتصادياته، فهذا من وظيفة المدرسة، ولكن في صورة توضح للصغير في الجمهورية العربية المتحدة[2] كيف يعيش الطفل في المغرب

---

(١) نبّهنا في المقدمة على أن كُتّاب المقالات ينزعون إلى الدعاية لمذاهبهم الفكرية التي كانت وقت ذاك. ونحن نعلم أن الاشتراكية قد سقط معسكرها وتهاوت الدول التي التحقت به، وتحوّلت إلى مذاهب في الحكم والاقتصاد بعيدة. ولن تصلح الدول إلا بعودتها إلى منبع النور والهداية والحق والإسلام.

(٢) كُتب المقال أيام الوحدة بين مصر وسوريا التي استمرّت من عام ١٩٥٨ م إلى عام ١٩٦١م.

والبحرين والسودان، وما هي التقاليد السائدة في كل جزء من أجزاء الوطن العربي الخ.

(هـ) إذا أضفنا إلى ما سبق أننا ما زلنا نحتاج إلى خرائط مبسَّطة وإلى قواميس عربية صغيرة يستعين بها الطفل إذا عَجَز عن فهم كلمة أو نص، وإلى كتب في مختلف الهوايات التي تهمّ الصغار= استطعنا أن نتبين أنه رغم الجهد الكبير الذي بُذِل في المكتبة العربية للطفل فإننا ما زلنا في حاجة إلى مزيد من الجهد في هذه الناحية.

كيف نربِّي في أبنائنا الميل إلى القراءة؟

إن تنمية الميل إلى القراءة عند أبنائنا يجب أن يحتلّ المنزلة الأولى من اهتمام الآباء والمربين على حدٍّ سواء، فالمدرسة والمنزل يجب أن يتعاونا في هذه المسؤولية الكبيرة، وإن كنتُ أرى أننا كدولة نامية يقع العبء عندنا على عاتق المدرسة أكبر مما يقع على البيت، حيث يعجز الأخير خصوصًا في الريف عن المساهمة الفعَّالة في ذلك بسبب نقص المقومات والإمكانيات الأساسية للقراءة في المنزل. ويمكننا أن نقول: إن دور المنزل في هذه الناحية يتلخص فيما يلي:

(أ) أن يشجع الآباءُ أبناءَهم على تكوين مكتبة منزلية صغيرة خاصة بهم، وأن يعمل الصغير على أن يزوِّدها بالكتب والمجلات التي يشتريها بادخارِ جزءٍ صغير من »مصروفه« الشهري أو اليومي.

(ب) أن يُعنَى الآباء بتوجيه أبنائهم إلى القراءات التي تُشبع رغبتهم وميولهم من الابتعاد عن الموضوعات القرائية الرخيصة أو المثيرة خصوصًا في بداية مرحلة المراهقة، على أن يكون هذا التوجيه توجيهًا رشيدًا لا يُكرِههم في القراءة ولا يدفعهم إلى الأساليب الملتوية التي قد يقومون بها لقراءة ما يحرمه الآباء عليهم.

(جـ) أن يشجع الآباءُ أبناءَهم على استغلال جزء من وقت فراغهم في القراءة المثمرة.

أما دور المدرسة في تنمية القراءة والميول القرائية عند التلاميذ، فيمكن أن يلخص فيما يلي:

(أ) تعريف التلاميذ بالمكتبة المدرسية، ذلك لأنه ثبت بالبحث أن كثيرًا من التلاميذ لا يدخلون مكتبة المدرسة لأنهم يجهلون نُظُمَها وما تحتويه من كتب ومراجع وخرائط وغيرها. لهذا كان لابدّ على المعلمين اصطحاب التلاميذ إلى مكتبة المدرسة، واطْلاعهم على البيانات والمعلومات اللازمة لحُسْن الإفادة من المكتبة مثل:

١ـ ما تحتويه من كتب ومجلات ومعاجم الخ.

٢ـ نظام القراءة بالمكتبة.

٣ـ كيف يقيّد الكتاب بعد قراءته في قاعة المطالعة.

٤ـ نظام الاستعارة الخارجية الخ.

(ب) تعريف التلاميذ بالطرق الصحيحة لاستخدام الكتاب والإفادة منه، وكيف أن تلك الفائدة تتحدِّد بأهداف القراءة، فالقراءة الحرة للمتعة الذهنية تختلف عن القراءة للتلخيص، أو القراءة بقصد الحفظ واكتساب المعلومات، أو القراءة للنقد والتقويم .. الخ.

(جـ) تدريب المعلمين على العمل على توجيه بعض النشاط القرائي للتلاميذ لخدمة المناهج الدراسية.

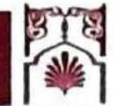
ويمكن أن يتحقق ذلك باستخدام المكتبة لإثارة ميل التلاميذ للقراءة في موضوعٍ من موضوعات المنهج يحدِّده المعلم، ويُطلَب منهم قراءات معينة بالمكتبةِ حول الموضوع ثم الاجتماع لمناقشته.

(د) تنظِّم مكتبة المدرسة معارض دورية عن أحدث ما ورد للمكتبة، حتى يتعرّف التلاميذ على الجديد من مواد القراءة المتاحة لهم.

(هـ) أن يشترك الآباء عن طريق مجلس الآباء في اقتراح بعض الكتب التي يرون أن تزوَّد بها مكتبة المدرسة لاهتمام أبنائهم بها.

(و) أن يطلب منهم تزويد مكتبة المدرسة بما قد يكون فائضًا لديهم من كتب تتناسب مع نموِّ التلاميذ وميولهم القرائية.



الكتب الموجزة كأداة تعليم وتثقيف[1]

للأستاذ إيليا حليم حنّا

ماهي الكتب الموجزة؟

أقصد بالكتب الموجزة: الكتب التي تعطينا الفكرة الأساسية المتماسكة المشوِّقة عن الموضوع بشكل عام دون أن تخوض في دقائقه، فتثير رغبتنا في الاستزادة، فنجري وراء التفاصيل في مصادر أخرى، فتكون بذلك سُلّمًا ووسيلة تشويق للإلمام بالموضوع وحافزًا لقراءة الكتب المطوَّلة الأصيلة.

وهذه الكتب هي الطريق إلى مدارك العامة وقلوبهم يجدون فيها غذاء لا يتعبُ الذهنُ في تلقُّفه، لأنها لا تتناول الاصطلاحات الفنية والتفاصيل العلمية المعقدة.

وهي لا تفيد العامة فقط، فإنها ذات فائدة كبيرة للخاصة الذين يشغلهم موضوع واحد قد لا يتسع وقتهم لغيره، فتكون لهم في النواحي المختلفة الأخرى أداة تثقيف قيِّمة في نواح مغايرة.

ولا يقصد بهذه الكتب تلك الملخَّصات التي تعطي نتفًا من الموضوع مِن هنا وهناك دون تماسك وتشويق من باب العلم بالموضوع فقط، فإن هذه ضعيفة الأثر، تكاد لا تثير الرغبة في القراءة، لأن مادة هذه الملخّصات أشبه بجسم معلّق في الهواء لا يرتكز على حامل يحمله.

وهذه الكتب التي لا تتناول الموضوع كوحدة متماسكة مشوِّقة هي العامل

(١) مجلة الرسالة، مجلد ٣٢، العدد٨٢٢، سنة ١٣٦٨هـ، ص٣٩٣-٣٩٤.

الأول الذي لا يجعل المتعلمين يُقبِلون على القراءة بعد تخرّجهم في مدارسهم ومعاهدهم.

وطالب العلم في مراحل دراسته المختلفة يركز الفكرة المبتورة على الحافظة والاستنكار، وليس على التفكير السليم والرغبة، فيعاني كثيرًا في حفظ ووعي الملخصات المدرسية التي لا ترابط بينها، ويحاول أن يبقيها بالتكرار، ثم لا يلبث أن ينساها، ثم يعود من أجل الامتحان فيستذكرها وهكذا، وتكون النتيجة أخيرًا أن ينفر من المواد التي درسها في المدرسة، ولا يحاول أن يقرأ ما يمتّ إليها بِصِلة بعد أن ينتهي من مرحلته الدراسية، لأن معلوماته كانت ملخصة تلخيصًا بعيدًا عن مبدأ الكلية، أي إدراك الشيء وتذوّقه كوحدة حية قبل فحص طريقة تركيبه من أجزاء مختلفة.

والشخص منّا يرى الزهرةَ كلها فيجذبه منظرُها وشكلُها، وإنما لو قُدّمَت له أول مرة يراها فيها مشرَّحة إلى أجزاء لا تماسُك بينها ولا اتساق، فإنه لا يلبث أن يُلقي بها ولا يرى فيها أي جاذبية. هكذا الملخصات التي لا يراعى فيها الناحية الكلية عند تقديمها تكون أشبه بأشلاء مبعثرة لا ترابط بينها ولا حياة فيها.

ودراسة الشيء كوحدة بأسلوب مبسّط سهل يجعل هذه الوحدة نواةً للتثقيف والاتساع في محيط هذا الشيء، وأرى أن نبدأ بصورة كاملة عامة عن المادة بحيث نبرزها بما يشوِّق فيها في الكتب الملخصة أو الموجزة، وهذا يجعلنا نسعى من تلقاء أنفسنا إلى الاستزادة منها، فمثلًا في بدء دراسة علم الفلك، أو عند وضع كتاب موجز عنه أرى أن نبتعد عن القوانين الطبيعية، ونعالج عجائب الكون معالجة مشوِّقة في هيئة قصة عن الأفلاك في مسالكها، وموضع بعض النجوم والكواكب التي تُرى بالعين المجردة ووقت ظهورها، ثم نذكر

شيئًا مشوِّقًا عن النجم الذي نتأمل صفحة السماء فنراه. وأنا واثق أن هذا سيدفع من يقرأه إلى الاستزادة في كتب أصيلة مطوَّلة.

وفي التاريخ أيضًا بدلا من أن نتكلم عن المواقع الحربية وأسبابها ونتائجها يجب أن نبدأ بحياة أحد الملوك كقصة. ونبرز فيها النواحي المثيرة، أو الخصال الحميدة والعادات والتقاليد والأساطير، ونترك النواحي المفصلة من أسباب ونتائج وتواريخ لمن تشوقه المادة ويريد التوسع فيها، لأن هذه الدقائق والحقائق الجافة تنفِّر القارئ الذي لم يتذوق الموضوعَ، ولم يعرف عنه شيئًا كليًّا مجملًا من قبل.

مزايا الكتب الموجزة:

١- هذه الكتب بذرة ثقافية تنمو وتكبر وتمهِّد للدراسات الدقيقة والشرح التحليلي في الكتب الأصيلة.

٢- ترشدنا إلى ما يمكن أن نتذوقه من أنواع المعارف المختلفة، ولا تستغرق منّا وقتًا طويلًا نندم على ضياعه إن لم نتذوق ما نقرأه، وبوساطتها نعتمد على أنفسنا في اختيار الغذاء الثقافي الذي نهضمه، لأن مثل هذه الكتب تُقرأ للتذوق وللبحث عن الكتب الطويلة الأصيلة في الموضوعات الملخصة التي فازت بإعجابنا وأثارت رغبتنا.

٣- تساعدنا على متابعة التيار الثقافي في النواحي التي لم نخصص لها كل اهتمامنا وجهودنا، والتي لا يلذّ لنا أن نخوض في تفاصيلها؛ والحقيقة أنه لولا الالتجاء إلى ملخصات الكتب والمقالات الأصيلة، لأصبح من المستحيل أن نلاحق السيل المنهمر من ثمرات المطابع.

٤- أثبتت التجاربُ أن متوسط ما يستوعبه الطالب في الدقيقة من المادة

الملخّصة بالطريقة الكلية ضعفان ونصف ضعف ما يستوعبه من المادة الأصيلة المفصلة.

٥- تربي الكتبُ الموجزة في الشخص الميلَ إلى القراءة، لأنها لا تثقل على طبع السواد الأعظم من جمهرة القراء لبعدها عن التفاصيل الفنية التي لا يهضمها القارئ العادي، كما أنها لا تحتاج إلى وقت طويل وجهد كبير للتركيز وحصر الذهن والانتباه.

٦- صغيرة الحجم مريحة في استعمالها يمكن أن تلازم جيب القارئ في أسفاره، كما أنها تحتل مكانًا صغيرًا في المكتبة، علاوة على رخص ثمنها الذي يجعلها في متناول الجميع.






العزوف عن القراءة[1]

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

سألني «مُتألِّم» على صفحات الرسالة، فقال: إنه مدرِّس أديب يتذوّق القراءة، ويهوى الاطلاع، ولكنه أصيب منذ عام بداء يقطع عليه سبيلَ هذه اللذة العقلية، وهو «النوم» حين يشرع في مطالعة كتاب أو صحيفة.

وقد فرحتُ بهذا السؤال، لأني وجدت شخصًا يحبّ القراءة ويجد في الاطلاع لذَّةً، وقد طال العهد -في الزمن السابق- بمن كانوا يلتمَّسون اللذة في المُتَع الرخيصة المبتذلة.

ومقياسُ رُقيّ الأمم أخذ أهلها بالأدب الرفيع، والإقبال على ارتشاف العلم، ودوام النظر في صفحات الكتب، والاستماع إلى حلقات الدرس والمحاضرة، مما لم يكن معهودًا في العهد السابق، أو مألوفًا في سياسة الملك السابق، بل كان العهد عهد إسفاف، تنتشر فيه الخلاعة والتهتُّك، ويُقبِل الناسُ مع مَلِكهم على الإثم والفجور، وآيةُ ذلك هذه الصحافة الصفراء التي كان همُّها أن تطلع على القرّاء بالسيرة المفضوحة، وأخبار «**الطبقة الراقية**» في حلبات الرقص وميادين السباق وموائد الميسر وعلى شواطئ البحار، مع عرض صورهنَّ في ثياب تكشف عن الفتنة وتبتعد عن الحشمة.

وأصبحت عناية الصحف والمجلات نشر الصور للممثلات وهنّ شِبه عاريات، وتسابقت جميعًا في هذا المضمار تنشد اجتذاب الشباب بالفتنة،

(١) مجلة الرسالة، مجلد ٣٩، العدد ١٠١٠، سنة ١٣٧٢هـ، ص ١٢٥٥-١٢٥٧.

واستهواء الشيوخ بالخلاعة، وتوجيه العواطف وجهة دنيئة، والتلاعب بالغرائز الجنسية تبعثها وتثيرها من مكامنها.

فأصبح القارئ العفيف كأنه راهب انقطع في الصحراء، أو سابح ضد تيار الماء.

وكان التيار جارفًا يحمل المجتمع نحو الأغلال والفساد، ويبتعد به عن الجدِّ والوقار. فإذا أخذ أحدُنا بسبيل الجدّ والمثالية شعر كأنه غريب عن المجتمع الذي يعيش فيه. ولعل عزوف «**المتألم**» عن القراءة راجع إلى شعوره بالانفصال عن الجماعة حين يُقبِل على القراءة والاطلاع.

قد يقول قائل: ولكن صاحب السؤال يحتاط للأمر ويقرِّر أنه يهوى القراءة ويشتاقها ويرغب فيها، فكيف تزعم أنه غير راغب فيها، وأن ميلَه إلى النوم دليل على صدوفه عنها؟

ونقول في الجواب عن هذا الاعتراض: إن النفس الإنسانية أمرها شديد العَجَب، فهي تُبدي خلاف ما تُبطِن، وتصدر عنها أفعال تُباين ما يشعر به صاحبها. فهل نصدِّق الأعمالَ ونكذِّب المشاعرَ، أو نصدّق المشاعرَ ونكذِّب الأعمال؟

واعلم أن اتجاه المحدَثين في علم النفس هو الأخذ «**بالسلوك**» والأعمال الظاهرة، وليس لهم شأن بما يجري داخلَ النفسِ مِن ظواهر شعورية. وهناك مدرسة كبيرة على رأسها الأمريكان، ويتبعها بعض العلماء في أوربا، تبحث في علم النفس بغير الشعور. ونحن إلى هذا الاتجاه أمْيَل، فنقدّم العمل ولا نقبل الشعور، ونصدِّق السلوكَ ونفسِّر به النزعات الباطنة.

وعلى هذا الأساس يسهل علينا تفسير هذه الظاهرة التي يذكرها صاحبنا، فهو يمسك بالكتاب ولا يكاد يقرأ منه بضع صفحات حتى تأخذه سِنَةٌ من النوم. هذا هو الواقع المشاهَد الذي لا سبيل إلى إنكاره. فما العلّة في ذلك؟

وسوف نبيِّن العلةَ الصحيحة بعد أن نستبعد ما يذكره عن مشاعره الباطنة، من أنه يتمتّع بما يقرأ تمتعًا زائدًا. فهذا الشعور غير صادق، بل هو تمويه من النفس. فلا يستقيم أن تكون المتعة حقيقية ثم ينصـرف عنها نائمًا، بل العكس هو الصحيح.

والنومُ عند القراءة دليلٌ لا يخطئ على عدم الرغبة فيها. وقد يعبر الإنسان تعبيرًا آخر يفصح عن هذا الصدوف، كأن ينسى الموضعَ الذي ترك فيه الكتاب، أو ينسى اسمَه وموضوعَه، أو يجد في عينيه تعبًا، وقد يصاب أحدنا بظهور «**الذبابة الطائرة**» وهي نقطة سوداء تُعاكس الرؤيا، وهذا إنذار بالتعب من القراءة، وفي بعض الأحيان يصاب الشخص بعمى تام، فلا يبصر شيئًا، لا لعلّة في العين، بل لشدّة الإجهاد العقلي في القراءة والرغبة اللاشعورية في الابتعاد عنها.

الحقُّ أن القراءة ليست شيئًا في طبيعة البَشَر، فقد ركَّب الله العينَ في الإنسان ليبصر بها الأشياء الخارجية فيعرفها في المناظر من جمالٍ هو الذي يبعث المتعةَ في جوانب النفس.

والأصل في التفاهم بين الناس السمعُ لا البصرُ، ولذلك قيل: الإنسان حيوان ناطق. فالألفاظ التي يتألَّف منها الكلام تنتقل من الفم إلى الأذن، ويتم عند ذلك الإدراك ويحصل العلم. حتى إذا أخذ الإنسانُ يتحضّر عرف التدوين والكتابة، وسجل الألفاظ المنطوقة في رموز مكتوبة رسمها رسمًا. واتسعت الكتابة مع الرقي، وكثرت الكتب، وأصبحت مرجع الناس في تحصيل العلوم، مع أن الأصل أن يستمدّ المرء العلم سماعًا ويتلقّاه من أفواه العلماء. ولعلك عندئذ تعلم لماذا امتنع سقراط عن التدوين، ولماذا كان يلقي دروسه إلقاء.

الكتب -وقاك الله شرّها- فيها منافع وفيها مضار.

فمِن منافعها: أنها تلخّص لك أفكار العلماء الذين أفنوا أعمارهم في بلوغها في حَيِّز ضيِّق، تستطيع أن تحصله في ساعات قليلة.

ومِن منافعها: أن العلم ينتقل إليك في دارك فتطّلع على آرائه وأنت مضطجع، بدلًا مِن شدّ الرحال إليه.

ومن منافعها: أنها صديق تأنس إليه وقت الشدة، فيفرِّج همَّك ويسرِّي عنك ويبعث في نفسك المتعة حتى إذا سئمتَه ألقيتَه جانبًا.

ومن مضارّها: أنها كالجثة الهامدة لا حياةَ فيها، لأن حياة الأفكار في حياة قائلها، ولذلك كان الاستماع إلى حديث العالم أمتع للنفس وأرسخ في الذهن.

ومن مضارّها: الذهاب بقوة البصر، لأن التحديق في الحروف السوداء المكتوبة ساعة بعد ساعة، ويومًا بعد يوم، وعامًا بعد عام، يُجهِد العينَ ويُضعِفها.

وكلّ قارئ تمرّ به فترات مِن الضيق فيسأم الاطلاع في وجوه الكتب، ويصدف عنها، ولا علاج لذلك إلا تركها مدة من الزمن، والترويح عن النفس بقراءة «**كتاب الطبيعة**»[1].

وهذا شيء قلَّ أن يفعله القُرّاء في الشرق، نعني الخروج إلى الحدائق العامة والتأمل في مباهج الطبيعة. وكان عادة أرسطو أن يلقيَ دروسَه في بستان وهو يجوس خلال مماشيه، ولذلك سمِّي أتباعُه بالمشّائين.

فلا تتألَّـم أيها السائل لأنك تنام عند القراءة، واسترح قليلًا، وخُذ العلم من المجالس، ومن أفواه العلماء، ومِن قراءة كتاب الطبيعة؛ أما النوم الذي تشكو منه، فإن لم يكن لعلّة جسمانية وضعف طارئ، فهو ردّ فعلٍ طبيعيّ لإرغام

(١) يعني التأمل في الكون والنظر في آيات الله، فهي كتاب ناطق بالحكمة والعظة والعبرة لمن أحسن النظر والتأمل.

نفسك على ما لا تحب وتشتهي. والابتعادُ عن الأشياء غير المرغوب فيها يتخذ أشكالًا مختلفة، فشخص يلقي الكتابَ مِن يده، وآخر يمزّقه، وثالث يبيعه.

أعرف ناسًا كثيرين حين ضاقوا بالقراءة باعوا مكتباتهم التي اقتنوها على مرّ الزمان، فلما ذهبت فترة السأم والمَلَال ندموا على ما فعلوا.

وقد لا تنصرف الصورة في إبعاد القراءة إلى الكتاب، بل إلى الشخص، فيشعر بالفتور، أو التثاؤب، أو الرغبة في النوم، أو ينام فعلًا.

ولكن الدخول في النوم يحتاج إلى تفسير آخر يضاف إلى العزوف الباطني اللاشعوري عند القراءة؛ ذلك أن كثيرًا من الناس يعتادون القراءة وهم مستلقون على ظهورهم كأنهم نائمون، ليكون الوضع بالنسبة إليهم مريحًا، وهذا الوضع بالذات يهيئ إلى النوم. ولذلك ينبغي على مثل هؤلاء إذا أرادوا التخلُّص من النوم أن يتخذوا لأنفسهم عادةً أخرى، وهي الجلوس في هيئة جادة، ويحسن إلى جانب ذلك ألا يخلعوا الملابس الرسمية التي يخرجون فيها، وألا يلبسوا ملابس البيت. هذا إلى أن النظر في حروف الكتاب مع وضع الرأس إلى الخلف في حالة أن يكون القارئ مضطجعًا يُتعِب العينَ ويجهدها، فيكون مثل هذا الشخص مثل الوسيط الذي ينوّم تنويمًا مغناطيسيًّا فلابد من تغيير الهيئة.

وفي بعض الأحيان لابدّ من تغيير المكان، كالخروج من حجرة إلى أخرى، أو الخروج من الدار إلى الحديقة، أو الخروج من حديقة الدار إلى خارج البيت.

وقد يعالج الإنسانُ نفسَه بأن ينتقل من كتاب إلى آخر، إذ من شأن النفس أن تسأم الطعامَ الواحد.

وقد يكون الكتاب ثقيلًا مملًّا يبعث كاتبُه السأمَ إلى النفس؛ ومثل هذه الكتب إذا قَسَر المرءُ نفسَه على قراءتها هي التي تجلب النوم.

فعليك باختيار النوع من القراءات الذي لا يدفعك إلى النوم، ولا تُقبِل على الاطلاع الشاقّ الجادّ إلا حين تكون في يقظة تامة وصحة جيدة.





الثقافة المذبذبة[1]

للأستاذ أحمد حسن الزيّات

كتب إليَّ صديقي الأستاذ محمد فريد أبو حديد[2] يقول:

«أنا معلِّم كما تعلم. ولكنني معلِّم لا أعتقد فيما تعتقد فيه الكثرة من المعلمين سواي. وذلك أنني لا أؤمن كثيرًا بأوربا، ولا بما جاء من أوربا، إلا أن يكون ذلك شيئًا نجنيه مِن نفع ماديٍّ أو كشف علميّ. أما فيما يتعلق بالرأي والنفس، وفيما يتصل بالعقل والقلب، فأنا شرقيّ ولا أحبّ إلا الشرق، ومصري ولا أحبّ إلا مصر.

ولقد كان مما يؤلمني دائمًا أن أرى الابن الناشئ قد عاد من إنجلترة أو من فرنسا، فلا يكاد يظهر للأعين إلا في هيئة نابية، يزعم أنها دليل المدنية التي اكتسبها من الغرب، فيمتدح فرنسا أو إنجلترة وما فيها من مناهج ومظاهر ومعاهد، وهو في الحق إنما يريد أن يقول: إنه أثر من آثار تلك المدنية السامية التي يمتدحها، فهو يصل إلى الزهو من طريقٍ غير مباشرة، ولا يقصد إلا الفخر والإعجاب بالنفس.

دع ذلك، فلو كان هذا وحده هو الأثر لهان الأمر؛ أما أن يتعدّى الأمرُ ما وراء ذلك فهو البلية والنكبة. وذلك أن هؤلاء الأبناء قد وصلوا بتلك النعرة الجوفاء إلى أن يخدعوا بعض الشيوخ، أو بعض الجُوف من الشيوخ، بأنهم دعاة

(١) وحي الرسالة: ١/ ١٨٤-١٨٧.
(٢) أديب مصري (ت ١٣٨٧) ترجمته في الأعلام: ٦/ ٣٢٩.

العلم والمدنية، فألقِيَت إليهم مقاليد الأمور في بعض النواحي، وكان من سوء حظ مصر أن بلغ هذا الخداع حدَّه في مسائل التعليم.

وإليك مثلًا من ذلك: إن برامج التعليم الأدبية - وهي أداة الثقافة والقومية- لا نرى فيها أثرًا للشخصية المصرية، فواضع برامج التاريخ هو بعض الجُوف ممن تعلموا تاريخ أوربا، فنقلوا من هذا ما ظنوه خيرًا، وجعلوه منهاجًا لتلاميذ المدارس الثانوية المصرية، فكانت النتيجة أنك إذا نظرت في برامج القسم الأدبي في التاريخ خيل إليك أنك تنظر في بعض برامج فرنسا أو إنجلترة، أو خليطًا من هذا وذاك. وأما مصر، فلا شأن لها في ذلك واحسرتاه. وكذلك الحال في سائر المواد الأدبية، حتى لقد حسبتُ وأنا معلم أننا إنما نسعى لإعداد أبنائنا ليكونوا أجانب في عواطفهم وعقليتهم وثقافتهم..

أليس هذا من العبث يا سيدي الأستاذ؟ أرجو أن تتناول هذا المعنى بقلمك القويّ، ولك من أبناء البلاد الثناء الجميل».

وصديقي الأستاذ بخبرته الطويلة وعقيدته النبيلة أولى بمعالجة هذا الموضوع، ولكنه اختار له هذا الأسلوب الصحفي لتتناوله الأقلام المختلفة بالبحث والجدل، فيكون الرأيُ أجمَعَ والحُكمُ أَقْطَعَ والبلاغُ أعمّ.

شَكاةُ الأستاذ شكاةُ الشرق الإسلامي كلِّه، فإنه منذ غفا غفوته الثقيلة الطويلة فانقطع عن صدر الزمن، لم يرد أن يبصر بعينيه، ولا أن يسير على قدميه، ولا أن يعلم أن له تاريخًا ممتازًا، ووجودًا مستقلًا، وطابعًا خاصًّا، ووحدة كاملة، ومدينة أصلية؛ وإنما ذهب يتحسّس مِن طريقه على نداء الصائد، ويتوكأ في سَيره على عمود الشرك، ويطمس على شخصه بالفناء في الغرب، كأنّ أهله لم يكفهم أن يكونوا عبيدًا لأوربا بالجسم عن قوة وقهر، فرضوا أن يكونوا عبيدًا لها بالروح عن رضًا وطواعية.

فهم يتكلَّمون بلغتها، ويتأدّبون بأدبها، ويتّسِمون بسَمْتِها، ويتخلقون بخلقها، ويطبعون أذواقهم بالكره على غرار ذوقها، ويغالطون طباعهم في أصل الفطرة، فيزعمون لعقولهم أن النفس المتمدِّنة لا يلائمها إلا ما يلائم الأوربي من أدبه ورقصه وغنائه وموسيقاه، كأن المسافة بين الشرق والغرب لا تُحْدِث فرقًا ولا تغيّر خلقًا ولا تبدِّل طبيعة.

إن الاستعباد الماديّ دهمنا أمس على يد الآباء، وإن الاستعباد الأدبي يدهمنا اليوم على يد الأبناء. وشتان بين استعباد كان عن اضطرار وجهل، واستعباد يكون عن اختيار وعلم.

والعبودية العقلية أشدُّ خطرًا وأسوأ أثرًا من العبودية الجسمية، لأن هذه لا تتعدى الأجسام والحطام والعرَض، ومثلها مثل الجسم يُرجى شفاؤه متى عُرِف داؤه؛ أما تلك فحكمها حكم العقل إذا ذهب، والروح إذا زهق. وهيهات أن يُرجى لمخبولٍ شفاء، أو ينتظر لمقتول رجعة.

إن أكثر نشئنا الذين وردوا مناهلَ الثقافة العلمية في أوربا إنما ذهبوا إليها وشخصياتهم هلاهل من تمزُّق الأسرة، وتفكك البيئة، وفساد التعليم، وضعف التربية، فكوَّنوا عقولَهم على منطق الإِعجاب، وميولهم على هوى التبعية، ثم عادوا وفي حوافظهم تاريخ غير تاريخ مصر، وعلى ألسنتهم أدب غير أدب العرب، وفوق غرائزهم خَلْق غير خلق الشرق، فتصرفوا تصرُّف المقلِّد، وتعسّفوا تعسُّف الحائر، فلم يستطيعوا أن يكونوا غربيين لعصيان الطبيعة وإباء الفطرة، ولم يريدوا أن يعودوا شرقيين لقوة الفتنة وضعف الإرادة.

إن العلم لا وطن له، لأنه يتعلّق باستخدام القُوى واستثمار المادة في العالم كلّه لخير الناس كله. أما الآداب والفنون والأذواق والأخلاق والتقاليد، فهي قوام الأمم، ولا تنزل أمة عنها إلا إذا نزلت عن ذاتها وزلت عن مستواها.

فخضوع الثقافة القومية للإنجليز في مصر وفلسطين، وللفرنسية في سورية والمغرب، وللأمريكي في العراق والمهجر، بلاء على هذه الأمم لا تسلم عليه وحدة ولا يستقل معه الوطن.

أما عبث هذه الثقافة المذبذبة بالبرامج فعِلّته أن التعليم عندنا ليست له سياسة مرسومة ولا غاية معينة. قُل لواضع البرنامج مهما يكن: أريد أن أصل بالتعليم إلى هذه الغاية، تجد الغايةَ نفسَها هي التي تعيِّن السبيلَ وتحدّد الوجهة.

أما إذا كانت سياستنا في التعليم أن ننشئ المدارس ونهيء المدرسين ونقيم الامتحانات، فإن جماع الأمر في وزارة المعارف إذن أن تكون حقولًا للتجارب فيها لكل سياسة أثر، ولكل ثقافة ثمرة، ولكل أمة غير أمتها نصيب.






خواطر عن القراءة والكتب[1]

للأستاذ علي أدهم

تعويد الأفراد عادة القراءة وحبّ الاطلاع من المسائل الهامة التي تُعنى بها الأممُ الآخذةُ بالنظام الديمقراطي؛ وذلك لأن الحكم في الأمم الديموقراطية الحقة يقوم على إشراك جميع أفراد الأمة في احتمال تَبِعاتِه وتوجيه سياسة الدولة، ولن يتمّ ذلك على وجهه الصحيح إلا إذا كان هؤلاء الأفراد جديرين بهذه المشاركة، مُلِمِّين بحقيقة الأحوال، ولهم خبرة واسعة، ومعرفة مستفيضة، ولن يتيسر لهم ذلك إلا إذا أُوتوا بسطةً في العلم، وإحاطة بأطراف المسائل تُمكِّنهم من إبداء الرأي الصحيح، وتقدير وجهة النظر الصائبة. والسبيلُ الوحيد لذلك هو موالاة الاطلاع، والقدرة على الإحاطة بمختلف الموضوعات، سياسية كانت أو اقتصادية أو علمية أو أدبية أو اجتماعية.

ومن أجل ذلك تُعنى الأممُ الديموقراطية المتقدِّمة بتعميم عادة القراءة وتوسيع نطاقها، عن طريق الاستكثار من المكتبات، وترغيب أفراد الأمة في الاطلاع وتيسيره لهم، وتقريب أسبابه للجميع. وتبدأ هذه العملية من تنشئة الفرد في دور الطفولة حتى يكتسب عادة القراءة، وينشأ ميّالًا بطبيعته إلى موالاة الاطلاع، والاستزادة من المعرفة والاستنارة.

وكلما اتسع نطاق التعليم وتكاثرت المدارس والجامعات على اختلاف أنواعها اشتدّ الإقبالُ بطبيعة الحال على القراءة وذاعت الكتب والصحف والمجلات.

---

(١) مجلة الكتاب العربي، العدد الثالث، سنة ١٣٨٤هـ، ص ٢-٤.

ومن الفروق الملحوظة بين العصور التي يسود فيها النظام الارستقراطي والعصور التي تسود فيها الديمقراطية: مسألة تيسير المعرفة والعناية بها، فالنظام الأرستقراطي في جوهره يتجه عادةً إلى حصر المعرفة في طبقة خاصة، أما النظام الديمقراطي فإنه يرمي إلى مشاركة طبقات الأمة جميعها في المعرفة، لأن المعرفة قوة، ومن الخطر حصر هذه القوة في حيازة طبقة خاصة. وكانت الطبقة الأرستقراطية تستأثر بالحكم وتنفرد به، فلم يكن هناك موجب في زعمها لتثقيف أفراد الشعب ورفع مستواهم الفكري.

ومن أقوال الناقد هازلت: إن أعظم متعة في الحياة هي متعة القراءة والاطلاع. والقراءة عند هازلت وأمثاله من الولوعين بها ليست واجبًا مفروضًا، ولا تكليفًا مُملًّا، وإنما هي نزهة جميلة ورياضة مستحبة، والكتاب باب يفضي إلى الفردوس الذي لا يسمع فيه لغو ولا سخف إذا أُحْسِن اختياره، وقُدِّرت قيمته.

ويختلف موقف الناس من القراءة، فمنهم من يرون في القراءة سبيلًا لقتل الوقت ودفع الملل، ومنهم من يرى فيها طريقًا لتكوين الشخصية وبناء الأخلاق وتقوية التفكير، على أن الفرد قد يقرأ للاستفادة وتحصيل المعلومات، وقد يقرأ للتسامي والتحليق في الأجواء العالية والاقتراب من ذوي العقول الراجحة.

ومهما أوتي الإنسان من القدرة على التحصيل فإن صقل جانب كبير من تفكيره، وتوطيد ثقافته، واستكمال عناصر شخصيته متوقف على نوع الكتب التي يقرؤها. ولا نزاع في أن الكتب المتهافتة التأليف تنهب الوقتَ الذي كان يحسن أن يُقضى في أغراض أنبل وأشياء أنفع.

وكلما تكاثرت الكتب والمؤلفات في موضوعات شتى أصبح اختيار ما نقرأ أصعب وأعقد، وأصبحت القدرة على التمييز والمفاضلة أخطر وألزم،



وكلما ازدادت الكتب زيادة مطردة ازدادت معها صعوبة الاختيار. والواقع أن صعوبة اختيار الكتب التي يقرؤها الإنسان ويخصّها بعنايته وتقديره مسألة قديمة واجهت الإنسان قبل عهد الطباعة، وطالما رددت الناس أن الكتب كثيرة فماذا نصنع وكيف نختار؟

ولا نزاع في أن الكتب كثيرة ومتفاوتة القيمة، ولكن مما يهوِّن مشكلة الاختيار أن الكتب القيمة الممتازة الجديرة بالعناية والدرس دائمًا قليلة، وفي بعض الأحيان تكون نادرة، وحتى في هذا العصر الذي كثر فيه في أنحاء العالم تدفُّق الكتب في مختلف الموضوعات، وإعادة طبع الكتب القديمة؛ فإن الكتب الممتازة الجيدة ليست بالكثرة الرهيبة التي تَرُوع وتَهُول، وسائر الكتب العادية لا صعوبة في الاختيار بينها؛ لأن القارئ الذي يُعنَى بها إنما يقصد تزجية الوقت، والذي يقصد أن يتسلى بقراءة قصة غرامية أو رواية بوليسية سيقنع بما يصادفه ويقع في يده، ولا يطيل التدقيق في المراجعة والاختيار، لأن غرضه قَتْل الوقت لا الفائدة، وأمثال هذه الكتب يلتهمها الناس كما يلتهم الأطفال الحلوى، وليس هذا اللون من ألوان القراءة من قبيل المتعة التي تسمو بالنفس وتغذو القلبَ.

وكثير من الناس يقرؤون، وتتناول قراءتهم موضوعات منوَّعة، ولكن القليلين هم الذين يحسنون فنّ القراءة، ولعل السبب في ذلك أن أكثر من يقرؤون يشرعون في قراءة الكتب وفي أدمغتهم فكرة سابقة عما يجب أن يكون عليه الكتاب، فإذا اتجه المؤلف اتجاهًا يخالف ما رسموه له مقدّمًا ونهج نهجًا آخر ضاقوا به ذرعًا، وأبوا متابعتَه أو تابعوه في شيء من التكلف والتحامل، وإقبالنا على قراءة كتاب من الكتب ونحن نحمل معيارًا خاصًّا قد يمنعنا من

أن نضع أنفسنا موضع المؤلف، ولذلك قد تغيب عنا وجهة نظره ونُسيء فهمه، والكاتب مثل المتحدِّث، فإننا لا نفهم وجهة نظر محدثنا إلا إذا أصغينا إليه وأعطيناه الفرصة ليقول ما عنده ويوضح رأيه دون أن نعترضه أو نثيره.

وأكثر الناس لا يصبرون على الكتاب ولا يصابرون، والقراءة الصحيحة في رأيي تحتاج على كثير من الموضوعية أو التجرُّد إلى حدٍّ كبير من الأهواء والميول والنزعات، وهو أمر ليس بالسهل، ولكنه فيما أقدِّر السبيل الوحيد للحكم الصادق على ما نقرأ، ولا بد لذلك من رياضة وتدريب ومِران، لأن مطاوعة الأهواء أغلب والتأثر بالأحكام السابقة شديد الاستيلاء على النفوس، وفي عصور النزعات السياسية الغلَّابة والاعتقادات السائدة تصبح الحاجة إلى ذلك أمسّ لتتسع آفاق التفكير وتكثر وجهات النظر ويتجنب خطر الضيق والتعصب والتحزب.

وعالم الكتب في العصر الحاضر بوجه خاص حافل زاخر، ففي كل منحى من مناحي المعرفة وفي كل مادة من مواد العلوم وفرع من فروعها مؤلفات جليلة الشأن عظيمة النفع، ملأى بطريف المعلومات ومستحدث الآراء وناضج البحوث وقيِّم الفصول، ولكي يساير الإنسان عصره ويرتفع إلى مستواه ويتعرض تياراته الفكرية واتجاهاته الثقافية لا محيص له عن الإمعان في الاطلاع وإدامة التلفت إلى الآفاق الجديدة والكشوف والابتكارات المستحدثة.

وظواهر الحال تدلُّ على أن أقلّ تواكل وأيسر إهمال في تتبع هذه الحركات مما يجعل الإنسان متخلفًا عن عصره عائشًا في غير زمنه، فسعة الاطلاع والإلمام بمختلف الثقافات من مستلزمات هذا العصر وأوجب واجباته.

ولكن إدمان القراءة ومتابعة الاطلاع وإطالة المكث بين الكتب، قد تكون

عقبةً في سبيل التفكير الحرّ المستقل، وقد ترهق الذهنَ وتُضعفه وتشل حركتَه وتقضي على استقلاله، ويصبح بذلك ضررُها أكثر وأخطر من نفعها.

والحقائق والمعلومات التي نتلقاها من الكتب قد تُثقلُ رؤوسَنا وتزحمها وتشيع فيها الفوضى والاضطراب. والرجل الذي يقرأ كثيرًا تلتقي في عقله ضروب مختلفة من الأفكار والآراء، وقد تظل هذه الأفكار والآراء غرائب وضرائر لا تربطها بعضها ببعض رابطة ولا توحّدها جامعة ولا ينظمها سلك.

والإنسان في أثناء القراءة يترك لغيره التفكير ويصاحبه، وقد ينساق معه ويندفع في تيّاره ويُستأسر له ويُستعبد لأفكاره. وهذا هو خطر القراءة التي لا يصحبها التفكير ولا تتلوها المراجعة وإرسال النظر فيما قرأه الإنسان، وتقليبه على جوانبه= لتتبين فيه الطيبَ من الخبيث والصالحَ من الفاسد.

وإذا غفلت الفكرةُ الناقدة وضعفتْ قوةُ التمييز اطمأن العقل إلى الخضوع والاستسلام وتقبّل الآراء المتناقضة والمعلومات الزائفة، وعجَز عن التوفيق بين الآراء المختلفة وتوحيدها والملائمة بينها، وضلّ في تيهها، وأفلت من يده زمامُها، وعجَز عن السيطرة عليها وتسخيرها والإفادة منها.

والعقل الذي يضلّ طريقَه وتثقله معلوماته= تجد صعوبة كبيرة في تحديد غايته، وإذا عرف غايته وهدفه عجز عن بلوغهما؛ ولذا قد تجد في بعض مدمني القراءة تهافتًا في المنطق وانحرافًا في الآراء وسخفًا في التفكير لا نرى له نظيرًا في العامة أو أشباه العامة من أصحاب المعرفة القليلة. والذين يعيشون في آفاق جدّ محصورة قد يحسنون الاستفادة من التجارب، ويفطنون لعبر الحوادث واحتكاكهم بأهل الرأي والراسخين في العلم، فتصقل عقولُهم وترقَى مدارُكهم. وقلّة العلم يمكن إصلاحها والإضافة إليها والمحافظة عليها فينمو

العلم، والعلم الكثير مثل المال الكثير قد يغري بالإهمال والتطبيع ويُساء الانتفاعُ به.

ولا خير في الاطلاع وإدمان القراءة إذا لم يصحبهما التفكير المستقل الحرّ. وحقيقة إن المشتغل بالمسائل العلمية والأدبية في حاجة ماسّة إلى اطلاع واسع وقراءة منوّعة، ولكنه مع ذلك إذا لم يستطع السيطرة على ما يقرأ وإجادة هضمه واعتصاره والانتفاع به واستثماره وإضافته إلى محصوله الخاص، وطَبْعه بطابعه= كانت القراءة من أسباب التقصير ودواعي التخلّف، لا من حوافز السبق والتبريز والتقدّم.





كلام في القراءة والقراءآت[1]



للدكتور أحمد فريد رفاعي

...وهكذا أبى صديقنا الدكتور أحمد فريد رفاعي، الذي ذهبنا إليه لنحدثه في موضوع من موضوعاته الممتعة، إلا أن يضنّ علينا بموضوع معيَّن، ولكنا أبينا إلا أن نستخلص منه آراء لها قيمتها ونفاستها... وإن قال عنها الدكتور في آخر حديثه الممتع: إنها «كلام»...! وإنها لكلام حقًّا، ولكن له معناه وله مرماه. [المحرر].

قال الدكتور:

صدِّقني يا صديقي أني في حيرة ما بعدها حيرة، وفي ارتباك ما بعده ارتباك، فلستُ أدري فيم أحدِّثك اليومَ؛ فإن حالة مصر - التي تعلمها كما يعلمها سواك، والتي ينبض لها عرقك، ويدق لها ناقوس قلبك، كما يقول زملاؤكم الشعراء - تقتطع مِنّا جميعًا، في مغداتنا ومراحتنا، جِماعَ تفكيرنا... فهل أحدِّثك عنها؟... طبعًا: لا! وأنت آسف حزين، لأن مجلَّتك، وإن كانت سياسية، إلا أنك قد وقَفْتها على العلم، وخدمة البحوث العلمية، وفيها متسع وأيّ متسع في ميدانها المراح الطلق، لكل تجوال ولكل ميدان.

ولكنك، وأنت الدقيق الملاحظة، الثاقب البصيرة، لا تشكّ في أنا -معشر المشتغلين بالتاريخ والأدب، وما إلى التاريخ والأدب- لا نستطيع أن نكون مكتوفي الأيدي إزاء البلد وحقوق البلد... ولكنك ستقول لي مقالة **(مازيني)** -**أحد الأقطاب الثلاثة في تحرير إيطاليا**- في موقف كموقفنا، وقد حَزَبهم الأمرُ،

---

(١) مجلة المعرفة، السنة الثانية، الجزء الأول، ص ١٧-٢٢. والكاتب أديب مصري له اشتغال بالأدب والتاريخ، له عدة مصنفات (ت ١٣٧٦). الأعلام: ١/ ١٦٥.

واستحكمت الحلقات، واشتدت بهم حُلْكة الجوّ السياسي اكفهرارًا... وصاح به الجميع: «**لقد أهمل ولاةُ أمورنا ما عليهم من تبعات قدسية للوطن المفدَّى**»؛ فهتف بهم (مازيني) بلهجته الحارة الأنفاس، الملتهبة الحماس: «مواطني! مالي أملي عليكم بواجباتكم، ولا أملي عليكم بحقوقكم... أفمن رعاية للحقوق؟ ألا فلتعيشوا اليوم في كنف القيام بالواجب...!

أفهم أنك ستقول: ليقم كلٌّ مِنّا بواجبه، ليقم الزارع بالسهر على إنماء تربته، وليقم الصانع بالإتقان في صناعته، وليقم التاجر بترعية ماله، وليقم المهندس بإتقان فنه، وليقم الطبيب بالإخلاص في معالجته، وليقم المدره بالدفاع عن قضيته... وليقم الكاتب بإرشاد أمته، وليقَم الخطيب بإمتاعها ببلاغته، وليقم الزعيم بإحيائها بقيادته...

ولست أزعم أنك أخطأت المرمى، ولكنني أزعم أنك لم تصب سدرة الصواب ولباب الحق... فقاطَعْنا صديقَنا الدكتور... **وقلنا**: ولكنك مع هذا كله -وأنت في وسط آلاف مجلداتك، وكلها نِعْم المحدِّث والسمير- لا تبخل علينا بالتحدُّث عن رأيك في القراءة، وبماذا تنصح فيها، وعن خير المؤلفات والمؤلفين. ولعل هذا موضوع طريف قد ترتاح إليه، ولاسيما وقد رضيْتَ لنفسك في هذه الأيام، أن تعتزل بهؤلاء المحدثين الأمناء عن الإخوان والأصدقاء... فقال هازئًا:

وهل من الميسور يا صاحبي أن تجد جوَّ الهدوء الفلسفي الكامل، والنَّصَفة العلمية الهادئة في الكتب وعند أصحاب الكتب، وأنت بالكتب وأصحابها جِدُّ خبير؟ وهل تظن أن الألفة الحقة البريئة ضاربة بجرانها بين جهابذة الأقلام، وشيوخ العلوم، وقادة الأفكار -**قديمًا وحديثًا**- أيضًا؟ ألا يجوز أن تقول، وأنت غير مغرق ولا مبالغ: إنهم في حرب ضروس هم الآخرون؛ فهذا يعيب ذلك

وينعى عليه جمودَه وجدبَه، والآخر يهاجم زميله وينكر عليه بيانَه وفضلَه، حتى إنك لتتوهّم أن العلم وقف واحتكار... صدقني يا صديقي! لقد صعب عليَّ كثيرًا - وأنا آخذ بوضع كتابي «**عصر المأمون**» - أن أستخلص الحقَّ الصُّراح عن الوزن الصحيح في كل ناحية من نواحيه، فللمؤرخ الشيعي منهجه، وللأموي رأيه، وللمعتزلي تصويره، وللعباسي نظره، وهكذا دواليك... لكلٍّ وجهةٌ هو مولّيها... فالتطاحن بين المؤلفين والكاتبين، وبين الشعراء والخطباء، هو هو بعينه كالتطاحن بين الأحزاب السياسية، وصحافتها، ووزرائها.

ولا يقعنَّ بخَلَدِك يا صاحبي أن العرب وحدهم قد وقعوا في ذلك الشراك: شراك الجلاد والطِّعان، والسخيمة والاضطغان، بل شراك اللدد والخصومة، شراك الحرب والكفاح، فإني قد لاقيت نفس الصعوبة وأنا آخذ بكتابة «**الشخصيات البارزة**»، بل لماذا أذهب بك بعيدًا، فإنني بالأمس فقط كنت أقرأ في (**أميل لودويج**) عن (**جيته**) نابغة الألمان، لمناسبة العيد المئيني لوفاته، وأنا من أنصار (جيته)، ومن المنتفعين بأدبه الذي لا يبارى، وأنا من المعجبين بعقله الفذّ الجبّار، ومع إكباري لمساعدته الأدباء جميعًا، فقد ألفيته أحيانًا في مُصانعةٍ كاذبة الودّ، شديدة النفاس مع (شيلر) مثلًا، وهو زميله في العبقرية والنبوغ، وشريكه في القيادة العقلية، وصِنوه في الثروة الأدبية، وتِرْبه في الزعامة الإنتاجية في الأدب الألماني...!

وكم يذكّرني ذلك كله بالحديث الممتع الذي حدثنا به عمر بن يوسف، وقد حضر مجلس أبي عبادة ثابت بن يحيى يومًا في منزله وعنده جماعة من الكُتّاب، فذكر ما عليه من ملائم الأخلاق، ومدانس الأفعال، فوصف تقاطعهم عند الاحتياج، وعدم تعاطفهم عند الاختلال، وزهدهم في المواصلة فقال: «معاشر

الكُتّاب! لا أعلم أهل صناعة مَلأً لقلوب العامة منكم، ولا النِّعَم على قومٍ أظهر منها عليكم، ثم إنكم في غاية التقاطع عند الاحتياج، وفي ذروة الزهد في التعاطف عند الاختلال، وإنه ليبلغني أن رجلًا من القصّابين يكون في سوقه؛ فيتلف ما في يديه، فيخلي له القصابون سوقهم يومًا، ويجعلون له أرباحهم فيكون بربحها منفردًا، وبالبيع منفردًا، فيسدُّون بذلك خَلَّته، ويجبرون منه كسرته... وإنكم لتتناكرون عند الاجتماع والتعارف تناكُر الضِّباب والسلاحف، مع استحواذكم على صناعتكم، وقلة ملابسة أهل الصناعات لها معكم. ولم أر صناعة من الصنائع إلا وقد يجمع أهلها غيرها إليها فيعاونونها جميعًا، وينزلون لضروب التجارات معًا، إلا صناعتكم هذه، فإن المتعاطي لها منكم، والمتسمِّي بها من نُظرائكم، لا يليق به ملابسة سواها، ولا ينساغ له التشاغل بغيرها، ثم كأنكم أولاد علّات وضرائر أُمّهات في عداوة بعضكم بعضًا، وحَنَق بعضكم على بعض، أُفٍّ لكم ولأخلاقكم!»

«إن للكتاب طبائع لئيمة، ولولا ذلك لم يكن سائر أهل التجارات والمكاسب بنظرائهم بَرَرَة، ومِن ورائهم لهم حَفَظة، وأنتم لأشكالكم مذلون، ولأهل صناعتكم قالون؛ قبَّح الله الذي يقول: قضينا في الأمر بالأغلب، وعرفنا علل الناس في تكاسبهم وتعاملهم، فمن كانت علته أكرم، كان كرم فعاله أعمّ، ولستُ أعلم علة في مكتسبٍ أنبل عند الخاصَّة من مكسبكم... اهـ».

ليس معنى هذا يا صديقي أني لا أشدو بمنتجات العقليات الخصبة في الثقافة الإنسانية العامة، ولست بمنكرٍ أثرها في الحضارات والمدنيات، ولكني سائلك فقط: ما قولك -دام فضلك- في زراية الكُتّاب بعضهم بعضًا؟ وما قولك في هذا التصوير الصادق، وأيّ كاتب أفضل لك، وأيّ مؤلف أختار؟ وما قولك في أخلاق العصر إذا كان هذا إجماع من تقدم فيما تقدم كما تقدم؟!

فقلنا للدكتور: الحقُّ أنه تُعْجِبنا منك تلك الروح اللاذعة أحيانًا، مع إعجابنا بهذا السحر الحلال، ولا نزال ننتظر رأيك في القراءة والقراءات، ووجهة نظرك فيما يفيد وينفع؛ فقال:

إن أردت الثقافة العامة فنحن -بحمد الله- فقراء فيها، ولا يحمد على المكروه سواه. وإن أردت القراءة من حيث هي، فلعلها تابعة لأصناف الكتب وأوضاعها؛ والكتب -كما تعلم- ثلاثة أنواع: للدرس، وللفلسفة، وللزينة؛ ولا تقل إن نفسيتي الآن هائجة، أو متمردة غاضبة، أو أنها متبرِّمة ساخطة، فلذلك أصور لك بالمنظار الأسود، ولا تقل إني أتهكَّمُ أو أتَهانَفُ[1]! كلا يا سيدي... وإنما هكذا يسميها النقّاد من جهابذة الغرب، وهكذا يسميها الدكتور (**ليمان أبوت**) في سلسلة القراءة البديعة التي أصدرتها دار (**نلسون وبلوداي بنيويورك**).

ولعلك سائلي عن ماهية تلك السلسلة، فأقول لك في إيجاز واختصار: إنها الصورة المصغَّرة الكاملة لنوع الثقافة العامة التي يُعْنَى بها الغربيون عامة والأمريكيون خاصة في سواع فراغهم، ولك أن تعتبرها في النوع الثاني من القراءات الخاصة بالتسلية؛ ولكنك إذا أحببت أن تكون منصفًا في مقاييسك العلمية، ومقتصدًا في تعابيرك اللفظية، فإنك - لا محالة - معتبر ذلك النوع الثاني من قراءات التسلية، بالنسبة للغرب وعلم الغرب، في مرتبة النوع الأول من القراءات بالنسبة لمصر وعلم مصر، وإذا قلتُ: مصر، قلت: الشرق، لأن مصر في طليعة الشرق.

ما علينا من التحدُّث في النسبة والتناسب، وما علينا من اختلاف المقاييس والمعايير والموازين لمعدات الأمم، وقابلية معدات الأمم، وضرورة التمشي مع

(١) أي: أتضاحك وأتلاعب بك.

نظام التدرُّج الطبيعي في العلوم والمعارف وفي التغذية والنماء؛ ولنتحدث هُنَيهةً عن تلك السلسلة المطبوعة بشكل كتب جيبية، والتي كانت نيتي -قبل حادث الجامعة الأخير- أن أستعين بالجهبذ النقَّادة المثقف صديق الحياة (**الدكتور طه حسين**) في إخراج نوع من القراءات السهلة التناول لعشرة من قادة الأدب القديم من كتاب وشعراء: كالجاحظ، وابن المقفَّع، وعبدالحميد الكاتب، وجرير، والفرزدق، والأخطل، وابن أبي ربيعة، وأبي نُوَاس، وهلم جرًّا؛ وكانت النية متوجهة أن نعتبر هذه العشرة كتب كنواة للثقافة العامة، ونطبعها بشكل جيبي للتسلية إن شئت، وللدرس إن شئت؛ ولكن ماذا أقول في مشجّعات مصر، وجوّ مصر، وتأييد المسؤولين عن الحركة العلمية في مصر...؟!

وخير لنا أن نرجع بحديثنا إلى تلك السلسلة الأمريكية فأقول لك: إنها بمثابة مختارات يومية منتظمة القدر لقراءات متنوعة وضرورية للثقافة العامة بالنسبة للآداب الغربية؛ ولنذكر لك قراءة أسبوع واحد... وليكن الأسبوع الأول من شهر يناير مثلا:

- **ففي اليوم الأول من هذه المختارات**: قواعد للسلوك لفرانكلن، وقطعة من «**لنجفلو**»، وأخرى لبريانت، ورابعة من «**لاول**».
- **وفي اليوم الثاني**: باب الاعتماد على النفس لأرنولد، وثانية لآدمس، وثالثة لتوماس.
- **وفي اليوم الثالث**: قطعة لتوماس سالفيني، وثانية له أيضًا، وثالثة للروائي الإنجليزي النابه «**ثاكري**».
- **وفي اليوم الرابع**: لثاكري.
- **وفي اليوم الخامس**: لرسكن، وسنت مارك.

◈ **وفي اليوم السادس**: شاكسبير، ومسنجر، وامرسن، وثاكري.

◈ **وفي اليوم السابع**: لادسن، وسبنسر... الخ.

ولعلك تلاحظ أنه بينما يختار لقراءة اليوم الرابع كاتبًا فقط، إذ به يختار أربعة في اليوم السادس، وهذا يفسر لك أن للقدر ومتانتُه، واتصالُ معناه ومبناه، وروحُه وفكرُه، الحكمَ الأول، وذلك تحاشيًا للاقتضاب المخلّ بالمعنى، أو الإكثار الممل بنفسية القارئ.

فهل لك يا سيدي أن تروِّج لهذا النوع من القراءة؟! وليس معنى هذا أنني عدوّ للروايات أو غيرها، أو خصم لقصة: عنتر، وأبي زيد الهلالي، أو سيدنا يوسف، أو قصص جحا؛ ونوادر أبي نواس... الخ، كلا! ولكني من دعاة القراءة التي ترفع مستوى الشعب، وذوقه، وتفكيره، ونظره إلى الحياة، وتكاليفها، ومسؤولياتها، ومهمة المرء فيها؛ وأظنني لا أعدو الحقَّ الذي يعلمه المطلعون على تاريخ تلك القصص إذا قلت: إنها أُلِّفت لتلهية الشعب وقتئذٍ بما يشغله، دون النظر في الأمور الجسام في الدولة... وإنه لتراث لا يفخر به كثيرًا، فيما أعتقد؛ وأظنني لا أعدو الحق أيضًا، إذا ما زعمت أنها ليست من نوع (الميثلوجيات) والأساطير، ولا من نوع الروايات المثقّفة، العالية الأدب، والأسلوب، والمعنى، والغاية التي وضعها: شكسبير، أو دانتي، أو ملتون، أو ثاكري، أو فيكتور هيجو، أو جيته، أو شلر، أو دكنس، أو غيرهم من شيوخ الأدب الغربي قديمًا وحديثًا.

ستقول لي: عندنا **(مجاني الأدب)**، فأقول لك: لا بأس به، ولا بأس بمختارات القوم في **(المثالث والمثاني)**، ولا بأس بمجهودهم القيم في الدواوين التي أخرجوها، وكتب المطالعة التي وضعوها؛ ولكن القوم يعلمون جيدًا أنها خطوة في البداية، بل إنهم في الخطوة الأولى من البداية، وأن البداية لم توضع بعد.

على أنني أَوَدّ أن أسألك أنا الآخر، وأود منك الصراحة والجرأة، وقد عهدناهما فيك. فقلنا: تفضل يا دكتور؛ على أن لا نجيب نحن، لأنا نريد الوقوف على رأيك في هذا الموضوع الجليل الشأن، والذي له أهميته وخطورته، فقال:

لا خطورة ولا أهمية لشيء الآن، فكل شيء تافه في الميدان المصري...!

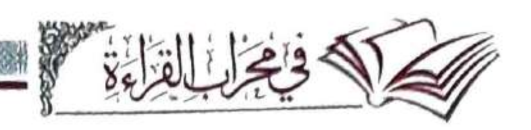
سؤالي يا مولانا هو: ماذا قرأتَ من الكتب المدرسية العربية أثناء دراستك الثانوية مثلًا، ودعنا من الدراسة الأولية والابتدائية...؟ ولستُ بسائلك عن الجامعة وقراءاتك في الجامعة ولا عن قراءاتك الخاصة.

قلنا: قرأنا كتاب «**كليلة ودمنة**» و«**أدب الدنيا والدين**»، هذا إلى كتاب (**أدبيات اللغة العربية**).

قال: ولست بسائلك إن كنت قد رسبت عامًا أو لم ترسب، لأنك - كما أعرف - من العصاميين بكل ما في الكلمة من معنى، ومن النبهاء الأذكياء، وإن كان النبهاء الأذكياء هم الذين يرسبون في العادة في مدارس مصر، ونظام تعليم مصر...! ثم ماذا قرأتَ من الكتب الأجنبية؟

فقلنا: كثيرًا، وفي كل سنة كتابين أو ثلاثة، عدا الروايات؛ وهذه الكتب تختلف سنة بعد سنة؛ يعني مر في أيدينا فوق الثلاثين كتابًا لثلاثين مؤلفًا من خيرة المؤلفين.

فقال: أي أنك في دراستك هذه قد علمت شيئًا كثيرًا عن: شكسبير، وثاكري، ودكنيس، وهاجرد، وجيبون، وماكولي، ودايسون، وباكون، وبزول، والعشرات غيرهم الذين هم في هذه المرتبة العالية... وبعبارة أدق: إنك قد كوَّنت لنفسك عن الأدب الإنجليزي مثلًا صورة، إن لم تكن صحيحة تمامًا، فإنها قريبة من الصحة والكمال.



حسن جدًا يا صديقي، لقد قلت الحق تمامًا، وكنت نعم الأمين في الرواية عن تاريخك الدراسي القديم، ولكن تعال يا صديقي، قارن بين ما قرأت في لغتك الأصلية، لغة الآباء والأجداد، وبين ما قرأت في لغة من اللغات الأجنبية، ثم حدِّثني بالموازنة وأثرها من نفسك، وبالمقارنة ونتيجتها من عقلك...!

وهنالك وجهة أخرى خاصة بطريقة القوم في نشر الكتب، وأنواع دور الكتب، والمكتبات المتنقلة، ومئات دور النشر، والإذاعة، والتوزيع، وعدد القراء، وحظ العلماء، وعدم عوز الأدباء؛ وهذه موضوعات يتطلب كل منها بحثًا وتحليلًا.

ثم إن عندك مناهج التعليم هنا وهناك، والمباراة التأليفية هنا وهناك، وعدم استقرار السياسة التعليمية من استقرارها هنا وهناك، وصلة المدارس بالحكومة وعدم صلتها، والتدخل الحكومي في التعليم من عدمه، ومبلغ تقدم فنون التربية والبيداجوجيا والبسيكلوجيا، والأخلاق أو عدمه هنا وهناك، بل لعلك تذكر أن هنالك جماعة متصلة بجمعية الأمم مهمتها: إذاعة أسماء أشهر المؤلفات العالمية ذات الخطر والقيمة، والنفع والإفادة، التي تصدر كل سنة، فكأنها بمثابة لجنة اختبار أو جماعة دعاية أدبية علمية عالمية، ثم هنالك المنتديات العلمية للبحوث الفلسفية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتاريخية والجغرافية، ولها نشراتها وكتبها ومحاضراتها، ومؤلفات جهابذتها. ولا تنس المبرّات التي تنالها تلك المعاهد من أصحاب الأموال، ولا تنس أنك تستطيع أن تشتري بلا شيء ولا ثمن، مجلدًا جميل الشكل، أخّاذ المنظر والورق، للكتاب المقدس أو لبعض الكتب الدينية والأخلاقية وغيرها، بفضل إمدادات الجمعيات لأصحاب تلك المشاريع.

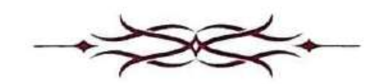
وما لنا نذهب بعيدًا، وها هو ذا مشروعك القيم الذي تمخَّض عن «المعرفة»

التي ساهمت بأكبر نصيب في الثقافة، وشهد بتفوقها: العلماء، والأدباء، فخبِّرْني عن نصيب اشتراك وزارة المعارف فيها...! وقد اشتركت جمهرة من المعاهد والجامعات الشرقية والغربية، وأولاها الجامعة المصرية فيها؟

لم تشترك وزارة المعارف في مجلتك، وإن كان أكثر الكُتّاب فيها من مفتشي الوزارة، وكبار أساتذتها ومدرسيها، أليس ذلك كافيًا للدلالة على عدم التشجيع في مصر؟ ومع ذلك كله؛ فنحن لا نطمع في كل هذا؛ وإنما أطماعنا في غاية التواضع...

فقاطَعْنا الدكتورَ وقلنا له: لعل للوزارة عذرًا وأنت تلوم، ويا حبذا لو تفضلت بالإفضاء بتلك الأطماع، في العدد القادم، وليكن موضوعنا: ماذا تفعل لو كنت وزيرًا للمعارف!

فقال صديقنا الدكتور: هذا كلام يا صديق، كذلك حديثي معك الآن عن القراءة والقراءات، فهو في نظري ونظر إخواننا المشتغلين بالعلوم والآداب كلام في كلام، ولعلنا في عصر الكلام، والسلام...






الشخصيات التي أقدّرها... والكتب التي أتوفّر عليها[1]

الدكتور أحمد ضيف

[قدّم المحرّر كلمةً عرّف فيها بالكاتب وأثنى عليه، وأنه سأله عن الشخصيات التي يقدّرها والكتب التي يُعنى بدراستها، فكان جوابه:]

أحبُّ أن أقرأ كل شيء لأكون من أهل الثقافة، ولأحيط بتاريخ الفكر الإنساني، فأقرأ التاريخ العام والأدب، والاجتماع والفلسفة، وتاريخ العلوم والفنون، وأحب أن أقرأ كل شيء به مسحة من الجمال، أو ما نسميه بلغة اليوم: «الفن» وأنت جِدّ عارف أن الفن لا يطلق على التصوير والنحت والموسيقى والشعر لا غير، بل يطلق على كل شيء من: قول أو فعل يتمشّى فيه الجمال.

وأنا من الذين لا يتقيَّدون بكتاب واحد، ولا بكاتب واحد، ولا بموضوع واحد، ولكنّي لا أحبّ أن أقرأ ما يثير في النفس ضعفًا أو حقدًا، أو دعرًا أو خوفًا، أو قسوة أو ظلمًا، لأني ضعيف الفؤاد، مبتئس النفس، أحب الهدوء والسكينة، والشفقة والرحمة، ثم أحب أن أجد فيها أقرأ صورَ الحياة والإنسان... لذلك أميل إلى قراءة التاريخ.

وأحبّ أن أرى فيها أقرأ صور النفوس الإنسانية، وما بها من أخلاق وعادات، وضعف وقوّة، وطيش وحزم، وحب وبغض، ولهذا أحبّ الشعر

---

(١) مجلة المعرفة، سنة (١٩٣٣)، مجلد ٣ ص١٠٤١-١٠٤٢، ١٠٤٧ . وللكاتب ترجمة في الأعلام للزركلي: ١/ ١٨٣-١٨٤.

والقَصص وأنواع الكتابة الأدبية، ثم أحبّ أن يصل المعنى الخفي إلى نفسي، لا أن أدفع نفسي إلى فهمه، ولذلك أحب قراءة الفنانين، أو البلغاء الذين يقذفون بمعانيهم إلى الأفئدة...

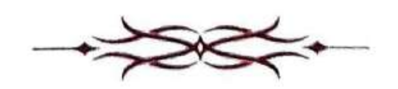
ولا أذكر أني أخذت عن أستاذ واحد رأيًا قاد فكري، ولا أني قرأت كتابًا معينًا أو كاتبًا خاصًّا وسِرْتُ وراء أسلوبه في البحث، أو تقويم الفكر، أو نظم الكلام... على أن أستاذًا واحدًا صبغني بصبغته، وسيرني بإرادته، ذلك هو فكري القَلِق الذي لا يهدأ له رَوع، ولا يسكن له جأش، والذي يثب بي في ظلمات الحياة ليكشف عن سرٍّ من أسرارها، ولكنه كثيرًا ما يعود بالخسران! غير أنه دائم الوثوب، لعله يرجع ظافرًا، فهو وحده أستاذي ومعلمي، ولا أعرف لغيره أثرًا في نفسي، وهو الذي دفع بي إلى حبّ الاستطلاع، وإلى الاستفادة من القراءة أيًا كان نوعها، وعلمني أن الفكر الإنساني كسلسلة متصل أولها بآخرها، كلما انتهيت منها رجعت إلى أولها، وأن الجديد صورة أخرى للقديم، وأن الأفكار والمعاني كالإنسان، وُجِدت منذ وجد الكون، تعاد وتتكرر، ولكن بغير أزيائها، لهذا لا تكاد تجد للبراعة أو الابتكار أثرًا في غير الأساليب والافتنان في التعبير، لأن حوادث الإنسانية لم تتغير، فمنذ وجد الإنسان وهو يعشق ويهجر، ويسعد ويشقى، ويشكو ويشكر، ولكن الذي يتغير هو: كيف يعبِّر عن عشقه، وكيف يشعر بالشقاء والسعادة، وكيف يكون خيالًا؟ لذلك كان للأسلوب البليغ منزلة، وأي منزلة....

مع هذا، فلبعض الكتب والكُتّاب منزلة خاصة في نفسي... ففي لغتنا العربية أهوى قراءة كتاب «**الأغاني**» لأنه بحر عباب لا يقطعه الخليل بأسباب ولا أوتاد، في كلّ ناحية من نواحيه صورة من صور العرب في البادية والحاضرة،

وفي كل صفحة من صفحاته فكرة مبثوثة، أو مثل مضروب، أو كلمة بليغة، أو قصة طريفة، أو عبارة ظريفة، أو بيت شِعر تجول فيه النفس جَوَلان البستانيّ بين الأزاهير، فهو موسوعة أدبية، ودائرة معارف لا نظير لها في آداب الأمم الأخرى على ما وصل إليه علمي... هذا إلى أسلوبه السلس الطليّ وعباراته الخالصة من شائبة العُجمة، وإلى ما به من الحوادث المتنوعة؛ في التاريخ، والأدب، والمجون، وتراجم الشعراء والأمراء والملوك والخلفاء. فهو في نظري من أفضل وأمتع ما كتب في الأدب العربي.

ويعجبني من كُتّاب الفِرنجة الذين أعرفهم «أناتول فرانس» ذلك الكاتب الفرنسي المعروف باطلاعه الواسع الذي ملأ صوتُه عالمَ الأدب، وملأ كتبَه بفلسفة الحياة، وصور العقول الإنسانية في جميع أحوالها، والنفوس على اختلاف نزعاتها، وذكر فيها: العالم والجاهل، والمؤمن والملحد والصالح، والرجل العفيف والمرأة البغي، وعلم الأوائل والأواخر؛ كلّ ذلك في نوع من الفكاهة العلمية، والتهكّم الأدبيّ!، الذي هو ميزة من مزاياه... هذا إلى رقة أسلوبه، وسبك عباراته، وبلوغه الذروة القصوى في الافتنان.

ولقد يكفي الأديب الجشع أن يقرأ ما كتب «**أناتول فرانس**» ليسدّ أطماعَه الأدبية كلها.





الكِتَـاب والقــرّاء[1]

للدكتور طاهر خميري

- متى ترجع إليّ كتابَ ... فإني لم أقرأه بعد؟
- آتيك به غدًا صباحا، أو أتركُه عند البوّاب.
- هل فرغتَ من قراءته؟
- نعم.
- ما رأيك فيه؟
- لم أقرأ منه إلا الفصل الأول، ولا أراه يستحق القراءة! الواقع أني ليس لي وقت لقراءة الكتب العربية الحديثة، الحياةُ أقصر من ذلك!
- إني لأستغرب منك هذا الاعتراف، منك أنت خصوصًا! كيف توفق بين ذلك وبين اعتزازك بالعروبة ودعوتك إلى القومية العربية؟ كتّابنا يشكون قلّة الإقبال وعدم التقدير، وأنت تعترف هذا الاعتراف!
- وماذا تريدني أن أصنع؟ أقرأ كلَّ شيء، وأقدّرُ كل شيء لأنه عربي ولأني عربي؟ إن ذلك لكثير، وإن الحياة لأقصر من ذلك! ألم نقدّر «**زينب**»، و «**الأيام**»، و «**ضحى الإسلام**»، و «**عودة الروح**»، و «**سندباد عصري**»، و «**مصـر بين الاحتلال والثورة**»، وغيرها من الكتب التي تستحق التقدير؟

---

(١) مجلة الثقافة، العدد ٢٦، السنة الأولى، ص ٢٥-٢٦. وكاتب المقال دكتور في الأدب، تونسي (ت ١٣٩٣). ترجمته في الأعلام: ٣/ ٢٢١.

أنت تعلم أني أتتبّع منذ سنين ما ينشر من المقالات للعقاد والمازني وعنان وغيرهم في الجرائد المختلفة، وإني أقضي حظًّا صالحًا من الوقت في قصها وتبويبها وإلصاقها في دفاتر خاصة. لا أظن أن أكبر الكُتّاب الغربيين يظفر من قرائه بأكثر من هذا التقدير. المسألة في الحقيقة واضحة بسيطة – أنا أحد أولئك القراء الذين يحتاجون إلى كتابين كبيرين في الأسبوع، والمطابع العربية لا تخرِج مما يستحق القراءة أكثر من كتابين صغيرين في السنة. فأنا مضطر إلى أن أعتمد فيما أحتاج إليه من المطالعة على الكتب الأجنبية، وأن أضنَّ بوقتي على ما لا يستحق القراءة من الكتب العربية. وهذا ما أريدُ بقولي أن ليس لي وقت لقراءة الكتب العربية.

- إن ما نأخذه على كُتّابنا هو إذًا قلة الإنتاج.

- لا ، لأني أعلم أن الإنتاج الأدبي لا ينبغي أن يخضع لقوانين العرض والطلب. وإنما أشكو قلة المنتجين، قلة الأسماء الجديدة، قلة المفاجآت في عالم التأليف العربي.

- ولا بدّ أن تكون هذه المفاجآت في صورة مجلدين ضخمين تختارهما كل أسبوع من بين عشرات الكتب الجديدة؟

- نعم. ولِـمَ لا؟

- لأن ذلك مستحيل من الوجهة الاقتصادية، لقلة القرَّاء الذين يحتاجون إلى كتابين كبيرين كل أسبوع في الدنيا عمومًا وفي البلاد العربية خصوصًا. ولأن الأدب العربي الحديث قد ا تخذ طريقًا غير هذا الطريق؛ هو أدب جرائد ومجلات، وهناك تجد الأسماء الجديدة والمفاجآت كل يوم.

- لعلك تريد أدباء الجرائد اليومية! هؤلاء يستحقون العقاب، إنهم يستخِفّون

بالقرّاء ويستجهلونهم. يسموننا «الجمهور» ويظنون أن هذا «الجمهور غبي» فيملأون أعمدة الجرائد بالبديهيات والسخافات والسرقات، ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا. إذا كان هذا ما تريد بالمفاجآت فعسى!

بالأمس قرأت في عدد قديم من مجلة...[1] الإنكليزية تعريفًا بكتاب عن الشرق العربي، ولما فتحت جريدة... هذا الصباح وابتدأت بصحيفة... على عادتي، إذا بعنوان الكتاب المذكور مترجم إلى العربية وتحته تعريف بالكتاب ذكرني بما قرأته بالأمس... ولما قابلت التعريفين وجدت الأخير مترجمًا عن الأول بحذف ثلاث جمل مهمة، يظهر أن «**الكاتب**» قد وجد في ترجمتها شيئًا من الصعوبة. هذا ولا ذِكْر للمجلة الإنكليزية، ولا إشارة إلى أن التعريف مترجم.

أليس هذا منتهى الاستخفاف بالقراء!؟ ألا يعلم هؤلاء «**الأدباء**» أن القراء أيضًا يقرؤون المجلات الأوربية؟ بل لقد حدث لي ما هو أغرب من ذلك: قرأت مرة في إحدى الجرائد اليومية قصة عنوانها... وتحته «**قصة مصرية**» فوجدتها قصة... الفرنسية المعروفة قد غير عنوانها وأسماء أشخاصها وحذف منها ببراعة فائقة كل ما قد يشتم منه رائحة الصبغة المحلية. ما قولك في هذا؟ أَمِن الإنصاف والحالةُ هذه أن تتهمني في وطنيتي ومبدئي لأني قلت: إني ليس لي وقت لقراءة الكتب العربية؟

❖ أراك قد خرجت عن الحوار الجميل ودخلت في العناد والمكابرة، وإلا فما هذا التعميم المقصود والاستشهاد بالشواذ. إني أوافقك كل الموافقة على أن «**المكتبة العربية الحديثة**» فيها نقص كبير، ولا أظن أحدًا يخالفك في ذلك. وأوافقك أيضًا على أن ثقافة أكثر القراء أعلى من ثقافة أكثر الكُتّاب عندنا

(١) كذا في الأصل هنا وما بعده، لم يسمّ الجرائد عمدًا.



(We have out grown most for our writers) تلك حقيقة لا ريب فيها. ولكني لا أرى أن الصحافة العربية تستحقّ كل هذا الانتقاص. أنت نفسك قد قلت لي غير مرة: إنك تفضِّل «**المصوّر**» و «**الرسالة**» على أكثر المجلات الأسبوعية الأوربية والأمريكية. وعدد «**الهلال**» الممتاز - أَنَسِيَت ما أبديته من السرور والإعجاب بذلك العدد يوم أطلعتك عليه؟ لقد هممتَ بتقبيله لولا أن ذكّرتك بأنه ليس بمصحف!

ثم عملية القص والإلصاق التي أشرتَ إليها منذ لحظة، تلك أكبر حجة عليك، ولكنك قد غلبك الجوع الآن، فجعلك تنكر بعض ما تعرف!

- نعم. الجوع. تلك أيضًا حقيقة لا ريب فيها حقيقة «**محسوسة**» أين نتغدّى اليوم؟
- في مطعم دار الطلبة؟
- ذاك هو خير المطاعم في العشرة الأواخر...
- للذين ينفقون أموالهم في اقتناء «**الضخم**» من الكتب الأجنبية ويجادلون بغير الحق في الصحافة العربية.
- أتريد أن تستأنف الحديث؟ ما أكثر حبك للجدال!
- وما أقل صبري على الجوع! هيا بنا إلى المطعم قبل أن تصير «**الحقيقة المحسوسة**» حقيقة مؤلمة.

(هامبرج)





الكُتّاب والقرّاء[1]

للدكتور طه حسين

القرّاء كل شيء بالقياس إلى الكُتّاب، ويوشك ألا يكون الكتّابُ شيئًا بالقياس إلى القرّاء...

متى يُتاح للكُتّاب أن يثأروا من القرّاء، وأن يقدّموا أنفسهم عليهم، وأن يؤثروها من دونهم بالعناية؟...

وتستطيع أن تعكس العنوان فإني لم أرد تقديمًا ولا تأخيرًا. ومن أوّليات النحو أن الواو لا تفيد ترتيبًا ولا تعقيبًا، فينبغي ألا يغضب القرّاء إذن لأن المصادفة أرادت لعنوانهم أن يتأخر في اللفظ، فأنا أؤكّد لهم أن أشخاصهم مقدّمون في المعنى أو مقدّمون في حقيقة الأمر، بل أستطيع أن أؤكد لهم أنهم فوق التقديم لأنهم كل شيء، وليس الكُتّاب بالقياس إليهم شيئًا، أو لا يكادون يكونون بالقياس إليهم شيئًا.

وآيةُ ذلك أن الكُتّاب لا يعيشون إلا للقراء وأن القرّاء يستطيعون أن يعيشوا، بل هم يعيشون لغير الكُتّاب، يعيشون لأنفسهم كما يعيشون لغيرهم، ولكن «**غيرهم**» هذا ليس كاتبًا أو يجب ألا يكون كاتبًا.

وآية ذلك أيضًا أن الكُتّاب يفكرون في القراء حين يُقدِمون على الكتابة وحين يُمضون فيها وحين يَفرغون منها. فأما القرّاء فلا يفكرون في الكُتّاب إلا حين يقرأونهم. ومن يدري؟ لعلهم يفكرون فيما يقرأون دون أن يفكّروا فيمن

(١) مجلة الهلال، سنة ١٩٣٤م، العدد التاسع، ص١٠٤٧ - ١٠٥٠.

كتبوه! ومَن يدري؟ لعلهم يقرأون فلا يفكرون فيما يقرأون ولا فيمن كتب لهم ما يقرأون إنما يُمرّون أبصارهم على هذه الحروف والسطور يتبينون ما فيها من الألفاظ ويلمون بما تدل عليه من المعاني إلمامًا خفيفا جدّا، ويقفون أو لا يقفون عند هذه المعاني لأنهم يريدون أن ينفقوا الوقتَ أو أن يتسلوا عن شيء بشيء أو أن يدعوا النومَ إلى جفونٍ يستعصي عليها النوم!!

القرّاء إذن كل شيء بالقياس إلى الكُتّاب، ويوشك الكتّاب ألا يكونوا شيئًا بالقياس إلى القرّاء. ولو أن القارئ استطاع أن يدخل بين الكاتب وبين نفسه وأن يشهده حين يهمّ بالكتابة ثم حين يهجم عليها ويمضي فيها، لرأى شيئًا عجبًا، لرأى أن الكاتب يصارع خصمَين عنيدين، أحدهما الموضوع الذي يريد أن يكتب فيه، والثاني القارئ الذي يريد أن يكتب له، ولرأى أن الموضوع في أكثر الأحيان ليس أشدّ الخصمَين عنادًا ولا أثقلهما خصومة، وإنما الخصم العنيف المخيف حقًّا هو هذا القارئ الذي لا يعرفه الكاتب ولا يستطيع أن يحصي ميوله وأهواءه وعواطفه، ولا أن يتبيّن ذوقه، ولا أن يستيقن بما يلائمه وما يخالفه، وإنما هو خطر محقق واقع، ولكن مبهم غامض شائع مختلف متناقض متفاوت لا سبيل إلى حصره ولا إلى تحديده ولا إلى العلم بالطريق التي يجب أن تُسلك إليه!

ومن هنا ينبغي للكاتب المصري أن يسأل نفسه: متى يتاح للكتّاب أن يثأروا من القرّاء، وأن يقدّموا أنفسهم عليهم، وأن يؤثروها من دونهم بالعناية؟ ولا أقول: متى يتاح للكتّاب أن يثأروا من القرّاء ومن أنفسهم وألا يفكروا إلا في الفن وحده ولا يعنَوا إلا بالفن وحده، فقد يظهر أن هذا الأمد ما زال بعيدًا أبعد من أن نطمح إليه أو نطمع فيه.

ولكن السؤال الأول قريب المنال يمكن أن نقف عنده بعضَ الشيء وأن

نلتمس له جوابًا، فهل في مصر هؤلاء الكُتّاب الذين لا يفكّرون في القرّاء أو الذين لا يسرفون في العناية بالقرّاء واستحضار أشخاصهم الخطرة دائمًا حين يكتبون؟

والغريب أن كثرة القراء تظن بل تؤمن بغير هذا، تؤمن بأن الكُتّاب لا يفكرون فيها ولا يحفلون بها ولا يرجون لها وقارًا، وإنما يقدمون إليها ما يخطر لهم في غير عناية ولا إطالة تفكير. وقد يكون هذا شأن جماعة من الناس لا أعرفهم، ولكن الشيء الذي لا أشكّ فيه، هو أني لم أستطع في يوم من الأيام أن أقْدِم على الكتابة إلا وأنا أحسب للقرّاء أشدّ الحساب وأعسرَه، والشيء الذي لا أشكّ فيه أيضًا أني لا أعرف كاتبًا مصريًّا خليقًا بهذا لاسم تحدّثت إليه إلا رأيته يخاف من القرّاء مثل ما أخاف، ويخصهم من العناية والتفكير بمثل ما أخصهم به أو بأكثر مما أخصهم به.

ولكنّ القرّاء في حقيقة الأمر صعاب ليس إلى إرضائهم من سبيل، فهم ينكرون بعض ما يقرأون لا يكتفون بالإنكار ولكنهم يضيفون إليه شيئًا من الغضب والنقمة يظنون أن الكاتب لم يحفل بهم، ولم يؤبه لهم ، ولم يجمع كل ما يملك من الجهد، ولم يبذل كل ما يملك من القوة ليرضيهم، ويقدم إليهم ما ينتظرون كأنه يعرف ما يرضيهم، أو كأنه يعرف ما ينتظرون.

ولا يخطر للقراء أن الكاتب قد يعطيهم كل ما يستطيع أن يعطيهم، وقد يبذل لهم جهد المقل على أنه كل ما يملك.

والغريب أن القراء يعرفون لأنفسهم الحقّ في أن تنشط للقراءة حين تواتيها الظروف أو يفتر عن القراءة حين لا تواتيها الظروف، وهم لا يعرفون للكتاب مثل هذا الحق، ولا يقدرون أن نفوس الكُتّاب كنفوسهم تنشط حين تتهيأ لها أسباب النشاط، وتفتر حين تجتمع عليها أسباب الفتور. والقراء معذورون فهم

لا يضربون على أيديهم ولا يكرهونهم على الكتابة إكراهًا، وإنما يعرض الكتاب عليهم آثارهم، فمن حقهم أن تكون هذه الآثار التي تعرض عليهم والتي يغرون بها ويرغبون فيها ، وقد يكرهون بالإعلان إكراهًا على شرائها وقراءتها ملائمة لما كانوا ينتظرون، مكافئة أو كالمكافئة لما يبذلون من نقد ولما ينفقون من جهد، ولما يريدون أن يضيعوا من وقت ... وإذا كان الكتاب معذورين لأنهم لا يستطيعون أن يأخذوا على أنفسهم عهدا بالإجادة دائما، وإذا كان القراء معذورين لأنهم لا يستطيعون أن ينفقوا مالهم وجهودهم ووقتهم في غير غناء، فمن يكون الملوم وعلى من تكون التبِعَة؟ فقد يجب أن يكون هناك ملوم يحتمل التبعة ويتم على حسابه الصلح بين الكتاب المظلومين والقراء المعذورين.

هذا الملوم موجود من غير شك، ولعله يكون واحداً، ولعله ليس اثنين، ولعل إحصاءه ليس بالشيء اليسير، فالقراء في مصر قليلون، هذا شيء لاشك فيه، ولكن الكتاب أقل منهم ألف مرة ومرة، فإحصاء القراء يرقى إلى الألوف بل إلى عشرات الألوف، وإحصاء الكتاب لا يكاد يرقى إلى العشرات، وهؤلاء القراء القليلون بالقياس إلى مصر، القليلون بالقياس إلى حاجات الكتاب والناشرين الكثرون مع ذلك القياس إلى طاقة الكتاب، هؤلاء القراء يختلفون فيما بينهم اختلافاً شديداً، موجبًا لليأس من إرضائهم حقًّا، منهم المثقفون الذين لايعجبون إلا بمقدار، ومنهم أنصاف المثقفين الذين يعجبون حين لا يوجد ما يعجب ويسخطون حين يجب أن يرضوا، ومنهم الذين لا حظ لهم أو ليس لهم إلا حظٌ يسير من الثقافة، ولكنهم كغيرهم يحتاجون إلى أن يقرأوا قادرون على أن يشتروا الصحف والكتب والمجلات. وكل فريق من هؤلاء ينقسم في نفسه إلى طوائف، هؤلاء تثقفوا في المدارس المدنية العالية المصرية، وهؤلاء تثقفوا في الجامعات الأوربية ، وهؤلاء خرجوا من الأزهر بعد أن أتموا الدرس فيه، وهؤلاء ظفروا بالشهادة الثانوية المدنية أو هم يطلبونها، وأخرون

ظفروا بالشهادة الثانوية الأزهرية أو هم يطلبونها، وقوم وقفوا عند الشهادة الابتدائية، وقوم لم يجاوزوا ما تعلموا في الكتاب. وكل أولئك على ما بينهم من الاختلاف والتفاوت يريدون أن يقرأوا ويريدون أن يرضوا، وليس في مصر إلا عدد يسير من الكتاب لا يبلغ العشرات متقارب الثقافة، وهو مكلف أن يقدم لهؤلاء جميعاً ما يلائم طباعهم وأذاقهم وطاقاتهم ومثلهم العليا.

وشيء آخر يمكن أن يكون ملومًا وهو انقطاع هذا العدد اليسير من الكُتّاب إلى الصحف على اختلافها، وعجز أكثر هؤلاء الكتاب عن أن يفرغوا لما يحبون من ضروب الآداب وفنون الإنشاء.

ومن ذكر الصحف فقد ذكر النظام والاطراد، ومن ذكر النظامَ والاطراد فقد ضيّق على الفن أشدّ التضييق، وقال للإجادة والإتقان اذهبا فليست مصر لكما بدار. وذلك أن الفن في حاجة إلى الحرية الواسعة، وأن الإجادة والإتقان في حاجة إلى راحة النفس وفراغ البال.

أستغفر الله فلستُ أريد من راحة النفس وفراغ البال هذا المعنى الواضح الذي يفهمه الناسُ جميعًا والذي لا يُتاح للأدباء، ولو أتيح لهم لما صنعوا شيئًا، وإنما أريد راحة النفس وفراغ البال من هذا النظام والاطراد، وهذا الإلحاح الذي يخضع له الكاتب حين ينقطع لصحيفة يومية أو أسبوعية أو شهرية، فكيف إذا انقطع الكاتب لهذه الصحف جميعًا؟! وكيف إذا الحّت عليه المطبعة في كل يوم وفي كل أسبوع وفي كل شهر؟ وكيف إذا اجتمعت عليه هذه الضروب الثلاثة من الإلحاح في يومٍ واحد؟ فقيل له: اكتب ليقرأ الناس إذا أصبحوا أو أمسوا. واكتب ليقرأ الناس إذا كان يوم كذا، فإن المطبعة لا تستطيع أن تنتظر. واكتب ليقرأ الناس إذا كان أول الشهر، فإن صدور المجلة لا بدّ من أن يكون منتظمًا مطّردًا.

هذا النظام الذي يهدر حريّة الفن والذي يقطع الأسباب بين الكاتب وبين الإجادة والإتقان= هو الملوم الأول حين ... الكتاب ولا يبلغون من إرضاء القرّاء ما يريدون؛ لأنه يدفع الكتاب إلى الإسراع والعجلة.

ومن ذكر الإسراع والعجلة فينبغي له ألا يذكر معهما الفنّ، ولا أن ينتظر منهما إجادةً أو إتقانًا.

وأمر النظام والاطراد لا يقف عند هذا الحد، فلو أنه يحول بين الكتاب وبين الإجادة فيما يقدمون إلى الصحف من المقالات والفصول التي لم يُقدّر لها النضج؛ لهان احتمالُه، ولقيل للقراء: لوموا الكتّاب إن شئتم في هذه الفصول وأعرضوا عن قراءتها إن أحببتم، وتعزوا عنها بهذه الكتب القيمة التي تقدّم إليكم من حينٍ إلى حين. ولكن الأمر أعسر من هذا كله وأشدّ حرجا. فمن للكُتّاب بالوقت الذي يفكّرون فيه، ومَن لهم بالقوة التي ينفقونها في الدرس، ومن لهم بالجهد الذي ينفقونه في الإنشاء، ومن لهم بفراغ البال الذي يستعينون به على الإجادة؟ ومن لهم بهذا كله والمطبعة من ورائهم تُلهبهم إلهابًا ليقدموا لها من الفصول اليومية والأسبوعية والشهرية ما ينبغي أن يصدر في نظام ودقة واطراد؟

فالصحف المنتظمة المطردة لا تمنع الكُتّاب من الإجادة فيما يكتبون لها فحسب، ولكنها تمنعهم من الإجادة فيما يكتبون لأنفسهم وللناس! أستغفر الله بل هي تمنعهم الكتابة لأنفسهم وللناس.

صدّقني أيها القارئ العزيز أن الكُتّاب الذين تضيق بهم وتقسو عليهم أبطال في مصر حقًّا يحتملون من العناء مالا تستطيع أنت أن تحتمل بعضه، وأي عناء يمكن أن يقاس إلى هذا الحزن العميق الذي يجده الكتاب حين يخطر له الموضوع الطريف فيود لو يفرغ لدرسه والكتابة فيه ثم يصرف عن ذلك أشد الصرف

وأعنفه لأن المطبعة تريد منه الفصل الذي يجب أن يظهر في نظام واطراد.

خطرت لي هذه الخواطر منذ ساعة حين فرغت من قراءة فصل في النوفيل ليترير حول تحقيق يشتغل به بعض الناس في فرنسا وموضوعه هذه المسألة: «**أيستطيع الكُتّاب أن يكونوا صحفيين**» وصاحب هذا الفصل يجيب: «**نعم**» في شيء من الاحتياط. أما أنا فأحبّ أن أعكس المسألة: «**أيستطيع الصحفيون في مصر أن يكونوا كُـتّابًا؟**» ففي مصر صحفيون، فأما الكتاب بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة فأخشى أن أقول إنهم سيوجدون أن شاء الله بعد زمن طويل أو قصير، ولكنهم سيوجدون.






الكتب والكتّاب والقرّاء[1] في جمهوريات روسيا

ما تنشره المطابع وما يطالعه القرّاء

هل تصدق أيها القارئ الكريم أنه طبع في روسيا في سنة ١٣٩١ ترجمة كل مؤلفات العلامة دارون فبيع منها في خلال سنة واحدة عشرة آلاف مجموعة وأن خمسة آلاف نسخة من منطق هجل نفدت في خمسة أيام. وأن مجموع النسخ التي بيعت في سنة ١٩٣٢ في جمهورية روسيا وحدها من الكتب والرسائل الجديدة بلغ ستمائة مليون نسخة؟ اقرأ إذن ما يقوله اللورد باسفيلد (سدني وب) وهو من أحرص الكتّاب على توخّي الحقيقة وإيرادها.

كان لنين يرى أن الكتب والرسائل والمجلات؛ ناحية خطيرة الشأن من بيئة الإنسان الاجتماعية. فيجب ألا تترك للصدفة تتصرَّف فيها، ولا لشركات المتموّلين يستغلّونها لفائدتهم الخاصة، ويضللون بما ينشرونه من المؤلفات أذهان الشعوب السوفيتية. لذلك جعل الحكومة السوفيتية المشرفة العليا على كلّ ما يُطبع وينشر في روسيا من الكتب والرسائل وجعل دور النشر ملكًا للأمة كغيرها من المرافق العامة، يضاف ما تجنيه من الربح في تجارتها إلى ربح الدولة.

وقد خطت الحكومة في هذه الناحية خطوات الجبابرة، في خلال ٣١ سنة من يوم أنشئت دار النشر الخاصة بالدولة في موسكو (**وتعرف بالأوجيس**) سنة ١٩١٩ إلى آخر السنة الماضية. ففي سنة ١٩١٤ كان مجموع النسخ التي تباع في

(١) مجلة المقتطف، الجزء الأول، سنة ١٩٣٣م- ١٣٥٢هـ، ص ٥٣٤-٥٣٩.

روسيا من الكتب والرسائل الجديدة لا يزيد على ١٣٠ مليون نسخة. وظلَّ التقدم بطيئًا خلال السنوات العشر الأولى بعد الانقلاب (١٩١٧-١٩٢٨) ولكنه زاد زيادة كبيرة جدًّا في خلال السنوات الأربع الأخيرة ففي سنة ١٩٣٢ بيع من هذه النسخ الثلاثة أضعاف ما بيع سنة ١٩٢٨، ويقدّر ما ينتظر بيعه هذه السنة بثمانية أضعاف ما بيع سنة ١٩٢٨، وقد ذكر اللورد باسفيلد في مقالة له في مجلة التاريخ الجاري (مارس ١٩٣٣ ص٧٩٧) إن دور الطبع والنشر في جمهورية روسيا (دون غيرها من الجمهوريات السوفيتية كأوقرانيا، التي يتألف منها اتحاد الجمهوريات السوفيتية) أخرجت وباعت في سنة ١٩٣٢ أكثر من ٦٠٠ مليون نسخة من الكتب والرسائل الجديدة البالغ عددها نحو ٤٠ ألفًا، وأن متوسط عدد الملازم (الملزمة ١٦ صفحة) في كل نسخة منها بلغ خمس ملازم أي أن مجموع الصفحات التي اشتملت عليها الكتب والرسائل الجديدة بلغ ٤٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠ صفحة. وأن مجموع الكتب والرسائل الجديدة التي نشرت في اتحاد الجمهوريات السوفيتية بلغ ٥٠ ألفًا وعدد ما بيع منها من النسخ ٩٠٠ مليون. يضاف إلى ذلك أن في هذا الاتحاد نحو ستة آلاف جريدة ومجلة مجموع النسخ التي توزع منها (يوميًّا أو أسبوعيًّا أو شهريًّا) أربعين مليون نسخة. فحركة النشر في اتحاد الجمهوريات السوفيتية تعدل بحسب تقدير اللورد باسفيلد ما يقابلها في الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وألمانيا معًا.

والحكومة (أوجيس) سنة ١٩٣٢ أكثر من ٢٥٠ مليون روبل (٢٥ مليون جنيه ذهب) ولكن هذا المبلغ يشمل ما بيع في فروع الدار من الورق وأدوات الكتابة ومطبوعات الدور الأخرى كذلك. وأما ثمن ما بيع من مطبوعات الدار نفسها فنحو نصف ذلك. وبلغ الربح الصافي الذي جنته الحكومة الروسية من هذه الدار في السنة الماضية نحو ثلاثة ملايين جنيه.

على أن سعة انتشار الكتب، ووفرة ربح الحكومة، لا يهمّاننا في هذا المقام، بقدر ما تهمّنا معرفة الموضوعات التي تعالجها هذه الكتب، وكيف يعامل كتَّابها، ووسائل طبعها ونشرها ومراقبتها، فإذا صرفنا النظر عن الصحف الدورية، وجدنا أن الكتب والرسائل التي تخرجها مطابع السوفيت تتباين من كرَّاس صغير، لا يزيد على أربع صفحات، ويحتوي على خطبة للرفيق ستالين (**يطبع من كراس كهذا عادة نحو مليوني نسخة**) إلى ترجمة كاملة لكل مؤلفات دارون التي طبعت ونشرت سنة ١٩٣١ في ثمانية مجلدات. وقد طبع منها ١٠ آلاف نسخة كاملة فنفدت كلها قبل مايو سنة ١٩٣٢. ثم أعيد طبعها في عشرة مجلدات وعشرة آلاف نسخة ولا يبعد أن تنفد قريبًا. ولا ريب في أن الجانب الأكبر من المطبوعات الجديدة مؤلف من رسائل صغيرة، ليس لها رونق خاص. ولكنك تجد كذلك مجلدات ضخمة مطبوعة على ورق من أجود أصناف الورق تحتوي على صور ملوّنة لأشهر الآثار المعلقة في دور السوفيت الفنية، بل إن كثيرًا من المطبوعات في المقام الأول من ناحية الفن والصناعة. والكتب تطبع في نحو خمسين لغة مختلفة من اللغات المستعملة في طول الاتحاد الروسي وعرضه من لبلندا على شواطئ المحيط المتجمد الشمالي إلى مضيق بيرنغ الفاصل بين آسيا وأميركا الشمالية.

وتجد إلى جنب مؤلفات الكتّاب الروسيين والأوقرانيين، مؤلفات الألمان والانكليز والفرنسيين والإيطاليين والأسبان والتشكيين، ومؤلفات الأجانب في الغالب علمية أو صناعية. ولا تخلو من روايات وشعر وتاريخ. أما المطبوعات الموسيقية فكثيرة جدًّا ولا تقتصر على مؤلفات أمة دون أخرى.

وليس بالأمر اليسير معرفة مقام المؤلفات الأدبية معرفة مضبوطةً، ولكنها إذا

قيست بسائر المطبوعات لا تقلُّ نسبتها الآن عنها في أيام الحكومات القيصرية. فهي ثمانية أضعاف ما كانت عليه قبل الثورة. فتجد في قائمة المطبوعات الأدبية: آثار الروائيين الروس القدماء والمحدَثين على سواءٍ محاذية لآثار الروائيين الانكليز والأميركيين والألمان والفرنسيين، وقد تُرجمت كلها وطبع منها ألوف بل عشرات الألوف من النسخ. وقد أعلن عن إخراج جميع مؤلفات فلوبير وبلزاك الفرنسيين في سنة ١٩٣٢ فليس من الصواب أن يقال: إن الأدب الروسي أو الأدب المطبوع في روسيا كله أدب دعاية للنظام السوفيتي.

ولعلَّ الأمر الذي يدهش له الزائر عدد النسخ التي تطبع من كل كتاب. فيسترعي نظرهُ أولًا: عدد الرسائل الصغيرة التي يطبع منها عشرات الألوف فيحسب أن الرقم ٦٠٠ ألف نسخة ـ وهو عدد النسخ التي بيعت من الكتب والرسائل الجديدة من دار موسكو ـ رقم مضلّل، لأن معظم ما يباع إنما هو هذه الرسائل القصيرة ٦٠٠ مليون نسخة فيها نحو ٣٠٠٠ مليون ملزمة- وأن الرسائل الصغيرة تتراوح بين نصف ملزمة أو ربع ملزمة وملزمتين – أدركت لا بدّ أن يكون بين هذه الكتب مجلّدات ضخمة. والواقع أن مؤلفات ماركس وجوته ودارون ولنين، تطبع وتنشر في مجموعات كل مجموعة منها تختلف من ثمانية مجلدات أو عشرة إلى عشرين مجلدًا. ومتوسط الطبعة الأولى منكل المطبوعات الجديدة في ١٩٢٩ سواء أكانت كتبًا أو رسائل أو مجموعات كتب، كان ١٠٧٠٠ نسخة فبلغ سنة ١٩٣١ خمسة وعشرين ألف نسخة. فإذا فرقنا بين مؤلفات العامة – كالرسائل والموجزات وكتب الأطفال- ومؤلفات الخاصة، وجدنا أن متوسط الطبعة الأولى من الطائفة الأولى كانت ١٦٥٠٠ نسخة سنة ١٩٢٩ فبلغت ٥٤٠٠٠ نسخة سنة ١٩٣١ أما المؤلفات الخاصة فكان متوسط طبعتها الأولى سنة ١٩٢٩ نحو ٤٠٠٠ نسخة فبلغت ١١٦٠٠ نسخة سنة ١٩٣١، وأما كتب الأطفال فليس من النادر أن تكون الطبعة الأولى ٢٠٠ ألف

نسخة من كل كتاب، كتبه ماركس أو لنين، قديمًا كان أو جديدًا، مطبوعًا من قبل أو مخطوطًا يطبع منه ١٠٠ ألف نسخة في البدء.

وقد يهم علماءُ الاقتصاد في مصر، بل في دول الغرب أن يعلموا أن كتابًا في الاقتصاد لعالم اقتصادي روسي غير مشهور في أوربا وأميركا، طبع منه في سنة ١٩٣٢ مائة ألف نسخة وأن رسالة علمية عويصة أخرجت في طبعة من خمسة آلاف نسخة، وأن العالِم بافلوف لما أخرج كتابه الجديد في «**الأفعال العكسية المحوّلة**» طبع منه في دار موسكو عشرين ألف نسخة وجعل ثمنه نحو ٧٠ قرشًا فنفدت الطبعة كلها في الحال.

بل هناك ما هو أغرب من ذلك وأبعث على الدهشة، ففي سنة ١٩٣٢ أخرج أول جزءٍ من دائرة معارف الفيلسوف هجل، وهو كتاب عويص في المنطق، وكان المطبوع منه ٥٠٠٠ نسخة فنفدت في خلال خمسة أيام، فطبع منه ثانية عشرة آلاف نسخة نفدت في شهر فطبع منه ثالثة ٥١ ألف نسخة وبعد ثلاثة أشهر من صدورها جاءت الأنباء بأن الطلب عليها ما يزال متواليًا. والراجح أنها تنفد نهاية السنة.

والظاهر مما تقدَّم أن ما يطبع من هذه الكتب على كثرتهِ لا يكفي لسدِّ الطلب فلما قيل لدار «**الأوجيس**» في ذلك قال مديرها: إنه لا يستطيع الحصول على المقدار الكافي من الورق مع أن المصانع الروسية تخرج مقادير كبيرة منه. فلما طُلِب إلى اللجنة التي تدير مشروع السنوات الخمس أن تزيد مقدار الورق المصنوع قالت: إنها لا تستطيع الآن أن تزيد عدد العمال في مصانع الورق لأنها تحتاج إليهم في الأعمال الأخرى التي لا بدَّ من إنتاجها للتصدير تسديدًا لثمن واردات لا ندحة لروسيا عنها.

أما توزيع هذا العدد الكبير من الكتب والرسائل فقد أصبح عملًا دقيقًا

واسع النطاق، ودار النشر في موسكو التي تخرج نحو ثلاثة أرباع الكتب التي تُنشَر وتباع في جمهورية روسيا لها الآن نحو سبعة آلاف فرع في طول البلاد وعرضها، يديرها رجال ونساء يتناولون مرتبًا معينًا مع مبلغ إضافي يختلف باختلاف الكميات التي يبيعونها من الكتب. وتكاد الدار لا تنشر أي إعلان عن كتبها مكتفية بالمراجعات التي تنشرها الصحف. ولكنها تنشر قوائم تحتوي على عناوين المطبوعات وتفصيلات عن حجمها وثمنها وترسلها إلى المكتبات والأندية في موسكو وجوارها.

ثم إن كتاب «**تجارة الكتب السوفيتية**» وهو عبارة عن كاتالوج وبيان للمطبوعات الجديدة يصدر مرة كل ١٥ يومًا ويطبع منه نحو ١٥ ألف نسخة ترسل إلى الذين تعرف عنهم رغبتهم في شراءِ الكتب. وهذا هو النظام الذي تجري عليه دور النشر في الجمهوريات السوفيتية الأخرى. ومما يبعث على الدهشة سرعة نفاد الكتب الغالية والعويصة من دون إعلان عنها. وتعليل ذلك إقبال الجماعات المنظمة على شرائها، كالمكتبات والمعاهد والأندية والنقابات. فكل من هذه المنشآت تملك مجموعة من الكتب ولا تغفل إضافة المؤلفات الحديثة إليها. فلا يكاد يظهر ذكر كتاب في القائمة التي توزعها دار النشر حتى تنهال الطلبات عليه من هذه الجماعات المنظمة. وهذا يعلل لك سرعة نفاد مجموعات الكتب العويصة أو الغالية، كمجموعة مؤلفات دارون، أو مجموعة مؤلفات بلزاك. ويشكو الأساتذة في «**جامعة كييف**» أنهم إذا تأخروا أيامًا في طلب كتاب جديد، في موضوعهم الخاص، تعذّر عليهم اقتناؤه. يضاف إلى ذلك نحو ١٠ آلاف أستاذ ومحاضر في الجامعات ومعاهد التعليم العالي، ونحو ٥٠٠ ألف من المدرسين وملايين من الطلّاب، كلهم عطاش ظماءٌ للمطالعة. ومن وراء هؤلاء الصناع والعمال والفلاحون المنتظمون في دروس ليلية يقبلون

على الكتب الجديدة التي تصلهم إقبال الظماءِ على عذب الماء. والاقتصاد في توزيع الكتب يفسر لك كثرة الطلب عليها ورخص ثمنها. يضاف إلى ذلك انفجار الرغبة في المطالعة في نفوس الروسيين. فإن الجانب الأكبر من خمسين أو ستين مليونًا من السكان، الذين تتباين أعمارهم من ١٠ سنوات إلى خمسين سنة قد أحسوا فجأة برغبة شديدة في المطالعة، ولستَ تجد في التاريخ ما هو شبيه بذلك.

وقد يهمّ المشتغلين بصناعة القلم أن يعلموا أن صناعة المؤلف في روسيا، هي أجدى الأعمال من الناحية المالية. ويقال: إن مؤلِّفًا في روسيا يجني من مؤلفاته نحو سبعة آلاف جنيه كل سنة. والغالب أن يتعاقد المؤلف مع دار النشر على مبلغ معيّن يُدفع لقاء طبع عدد معين من النسخ من كتاب له. ويعين هذا المبلغ بالاتفاق مع المؤلف بعد النظر في مقامه وشهرته، ومقدار العمل الذي اقتضاه تأليف الكتاب، وعدد النسخ التي يتفق على طبعها منه. فإذا زيدت النسخ المطبوعة عن العدد المقرر في العقد، أو إذا أرادت دار النشر إخراج طبعة جديدة منه زيدت المكافأة التي ينالها المؤلف. فإذا اقتضت الطبعة الجديدة جانبًا كبيرًا من التعديل والتنقيح، عومل المؤلف كأنه يقدم كتابًا جديدًا للطبع. وأقل ما يدفع لمؤلف، على ما قيل للورد باسفيلد ٣٠ جنيهًا للملزمة الواحدة من رواية أو كتاب مدرسي ابتدائي، وسبعة جنيهات إلى عشرة جنيهات عن كل ملزمة من كتاب أجنبي ترجمة وتصحيحًا وثلاثين جنيهًا إلى ٤٠ جنيهًا عن كل ملزمة من كتاب علمي.

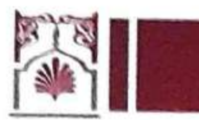
أما مؤلفو الروايات التمثيلية فدخلهم أكبر من دخل المؤلفين، لأنهم يتقاضون نصيبهم من دار النشر ومن المسارح التي تُمثّل فيها رواياتهم.

تُقدَّم الكتب الجديدة على اختلاف موضوعاتها إلى دور النشر فيُقبل بعضها

ويُهمَل البعض الآخر، فإذا قُبل إحداها دُعي المؤلف إلى التعاقد مع الدار. وغالبًا ما تختار الدار بعض الكتَّاب المجهولين، فتشجعهم على العمل وتعهد إليهم في وضع كتب معينة، وتدفع لهم مقدمًا ٢٥ في المائة من الأتعاب، وعند تقديم الكتاب يدفع للمؤلف ٤٠ في المائة من المبلغ المتفق عليه إنما يشترط عليه أن يصحح الكتاب وينقحه في خلال الطبع وعند نشره يدفع له الباقي.

والمطبوعات كلها خاضعة لرقابة الحكومة. فلجنة المراقبة في موسكو **(جلاتفي)** لها ممثل في دار من دور النشر، هو في الغالب مدير الدار. وعليه أن يمنع طبع أي كتاب أو رسالة قبل أن تنال الفوز بموافقة لجنة المراقبة. فإذا سألت عن الكتب التي تحظرها لجنة المراقبة قيل لك: الكتب الفاسدة، والتي تحتوي على قذف في الناس، أو تدعو إلى اضطهاد الأقليات الشعبية أو الدينية، أو ما تشتمّ منه رائحة المقاومة لنظام السوفييت. فإذا رفض طبع الكتاب مرة كان ذلك في الغالب قاضيًا عليه، ولكن قد يستطيع المؤلف أن يسترعي العناية له لإعادة النظر فيه بواسطة نقابته أو بطلب يقدّم إلى ولاة الأمر. ولا يندر أن تسفر إعادة النظر عن إقرار الكتاب وطبعه.





مكتبتي[1]



للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

مكتبتي شيء عظيم جدًّا - ولست أعني أنها كبيرة ضخمة، وأن في خزاناتي آلافًا مؤلفة من المطبوع والمخطوط، فما عندي مخطوط واحد، ولا ولوع لي بجمع هذا الضرب من الكتب، وما يمكن أن تبلغ كتبي الآلاف بعد أن احتجت أن أبيع منها مرات، وإني لمجنون بالكتب، ولكن جنوني بما فيها لا بأشكالها وألوانها على رفوفها. وقد اعتدت ألا أبالي أن يبقى الكتاب عندي بعد أن أقرأه أو أن يذهب، ولم أكن كذلك، ولكن المرء مما تعود. وعلى أنه سيان أن أحتفظ بالكتاب وأن أبيعه كما اشتريته، أو أهبه، فما إلى الوصول إليه سبيل في هذه الخزانات، ولأهون عليّ أن أشتري منه نسخة أخرى من أن أهتدي إلى موضعه وأعرف أين اختبأ. ومتى كان هذا هكذا، فما حرصي على كتاب يجاورني ويهرب مني وأنا أدور بعيني على الرفوف؟

وليس أثقل عليّ، ولا أشق على نفسي من الإقامة في بيت واحد زمنًا طويلًا، ولو وكل الأمر لاختياري لاتخذت كل يوم بيتًا، ولكن الكتب راضتني على السكون وردتني على مكروهي، فأنا الآن كالمقعد لا أكاد أتحول، إلا أن أُحمل على الانتقال حملًا؛ ذلك أني كلما سكنت بيتًا، أروح أتخير للكتب أوسع الحجرات وأكثرها شمسًا وهواء، ثم أقول: دعوا الصناديق والغرارات حتى أفتحها وأخرج ما فيها وأرتبه بنفسي، فترك شهورًا، تنقلب الحجرة من خلالها مزبلة، فيتبرم أهلي ويلحون عليّ أن أفرغ الصناديق.

---

(١) مجلة الرسالة، مجلد ٦، عدد ١٠٣، سنة ١٩٣٥م، ص ١٠١٤- ١٠١٥.

فأقول: «لا بأس. موافق»

فتسألني زوجتي: «ومتى تفعل؟»

فأعدها خيرًا، فتلح عليّ، فأؤكد لها أني فاعل ذلك غدًا إن شاء الله.

فتقول: «إن شاء الله معناها عند أنك لن تفعل أبدًا».

فأقول: «استغفري الله يا امرأة! إن شاء الله يعني إن شاء الله، أليس كذلك؟»

فتقول: «ولكني أريد تنظيف الغرفة! ألا ترى هذا التراب؟»

فأقول: «صحيح! كثير»

لأني أحب أن أقرأ بالحق وأكره المكابرة، فتهمل الثناء على ذلك وتقول:

«وهذه الصراصير؟ والفئران؟ لا. لم يعد هذا بيتًا يُسكن».

فأقول: «ألا أقول لك وأريحك؟»

فتقبل علي مسرورة وتسألني: «ماذا؟»

فأقول: «أفرغي أنت الصناديق، ورصي الكتب على الرفوف -على أي ترتيب- وارفعي التراب، واقتلي الصراصير، وطاردي الفئران -وعلى الجملة، نظفي الغرفة- هيه؟ ما قولك؟»

فتوافق، وأعود من عملي فألقى المكان نظيفًا، فلا فيران ولا صراصير ولا تراب، ولا صناديق، ولكني أحتاج أن أرجع إلى كتاب، فأفتح خزانة بعد أخرى وأنظر إلى ما تكدس على رفوفها فأرتد يائسًا وأصيح بزوجتي:

«يا امرأة! أين وضعت ابن الرومي؟» مثلا!

فتقول: «عندك بالطبع»

فأسألها: «أواثقة أنك لم تضعيه في المطبخ؟»

فتقول محتجة: «المطبخ؟ كيف تقول هذا؟ أهذا جزائي على تعبي؟»

فأقول: «معذرة، ولكني لا أراه هنا»

فتقول: «ابحث عنه»

فأبحث -أعني أني أروح أخرج من الخزانة صفًا بعد صف، وأضع ما أخرج على الأرض هنا وههنا، حتى تخور قواي، وينفد صبري، ويهي جلدي، وأنظر إلى ما فرشت به الأرض فأجزع، وأغافلها -أعني زوجتي- وأتسلل خارجًا، وأرد الباب ورائي حتى لا ترى شيئًا.

وأعود في الليل، وفي ظني أنها نائمة، وفي عزمي أن أعيد الكتب إلى الرفوف، فأفتح الباب برفق، فإذا لكتب قد وثبت بقدرة ربك، وصفت نفسها على الرفوف، وتزاحمت، ودخل بعضها في بعض - خوفًا من الفيران ولا شك! فأتنفس الصعداء وأفرك كفيّ، وأقول: «الحمد لله! يا ما أكرمك يا رب!» وإذا بزوجتي تقول: «وآخرتها معك! ألا يمكن أن تعيد كتابًا إلى موضعه بعد إخراجه؟ ألا بد أن ينشف ريقي كل يوم بسبب هذه الكتب؟ شيء غريب والله! كيف ومتى يمكن أن أفرغ للبيت إذا كانت هذه الغرفة همًا لا ينقضي؟»

وأحب أن أقرأ مرة أخرى في كتاب، فأدخل الغرفة، فتدخل ورائي تجري، وتتناول ذراعي وتشدني فأستغرب وأسألها «ماذا؟»

فتقول بحدة: «ماذا أنت؟»

فيزيد عجبي وأقول: «ماذا أنا؟ ألا تعرفين ماذا أنا؟ سيدك يا ستي!»

فتقول: وهي تجاهد أن تعبس، والضحك يغالبها: »دع المزاح الآن! ماذا تريد أن تصنع؟«

فأقول: «شيء جميل! وكيف يعنيك هذا يا امرأة؟»

فتقول: «يعنيني مصير الغرفة -هذا ما يعنيني يا سيدي- ولست أنوي أن أدعك تقلبها مزبلة فقد ورمت كفاي من العمل فيها»

فأقول: «وماذا تصنع هذه العجوز؟ تأكل وتشرب فقط وتقبض أجرها آخر الشهر؛ وهذه الفتاة الخفيفة لماذا لا أراها تعمل شيئًا غير اللعب مع الأولاد؟ وتلك الثالثة... أهو بيت أم دكان مخدم؟ أريد أن أعرف هذا أولًا»

فتقول: «لا تحاور. إن الكتب لا يمسها غيري، فإني أخاف عليها التمزيق..»

فأشكرها، فتقول: «العفو! ولكني أخاف منك على الغرفة، فاصنع معروفًا وارجع عنها»

فأسألها: «ولكن كيف أرجع وأنا أريد كتابًا؟»

فتقول: «لا تتعبني... من فضلك... أرجوك»

فأشعر لها برقة وأقول: «يا امرأة! هل استطعت قط أن أرفض لك رجاء!؟»

وأتبعها، وأنصرف عن الكتب والقراءة، وأعزي نفسي بأني كنت سأنصرف لا محالة عن ذلك مرغمًا، فما أطمع أن أجد كتابًا أطلبه.

من هنا صار المعقول أني إذا اشتهيت أن أقرأ كتابًا أو أردت أن أراجعه أن أشتريه، وقد أشتريه، وأضعه على المكتب إلى المساء، فتراه زوجتي فتفتح خزانة وتدسه في صف، وأعرف ما صنعت به، فأشتري نسخة أخرى، ومن أجل هذا

أيضا صار عندي من بعض الكتب ثلاث نسخ أو أكثر.

وقال لي أخي مرة: «يحسن أن ترتب هذه الكتب»

قلت: «يا أخي، كيف أصنع؟»

قال: «أجيئك ببطاقات، تكتب فيها أسماء الكتب مرتبة على حروف المعجم، فإذا طلبت كتابًا، راجعت البطاقات، فسهل عليك إخراجه»

قلت: «رأي سديد - هات البطاقات»

فجائني ببعض مئات منها، ودفع بها إلي، فنظرت إليها وشكرته ثم قلت له: «أما البطاقات فجائت، وأما الكتابة فيها فأحسبها تقتضي أن أخرج الكتب واحدًا واحدًا، وأقيد أسمائها، ثم...»

فصاحت زوجتي: «لا لا لا! أرجوا... أرجوا... ألا تفعل...»

فلتفت إليها وقلت: «يا امرأة! كيف ترضين عن هذه الفوضى؟ بل لابد من الترتيب»

فقالت: «أنا واثقة أن الكتب لن ترتب. وكلما يحصل هو أن تخرجها وتكومها على الأرض وتتركها، فيغطيها التراب، وتجتمع عليها الصراصير، فأعود إلى نفض التراب وطرد الصراصير... لا يا سيدي! لن أسمح بهذا أبدًا!»

فنظرت إلى أخي وقلت: «أتسمع؟ إنها لا تسمح! فما رأيك؟»

قال: «الحق معها. ولو كنت أنا مكانها...»

فلم أدعه يتم الجملة وصحت به: «أعوذ بالله!»

فشكرني، وقال: «إنما أعني...»

فعدت إلى مقاطعته وقلت: «دع ما تعنيه، من فضلك، وحسبك أنك نغصت علي حياتي!»

فدهش وقال: «كيف؟»

قلت: «سأرى وجهك بعد الآن كل ما نظرت إلى امرأتي... أعوذ بالله... يا ساتر يا رب. لطفك اللهم!»

وقد حرصت على البطاقات، لأقيد فيها أسماء الكتب مرتبة على حروف المعجم، فما من هذا مفر، ولكن العقدة أن زوجتي تؤثر الترتيب الحالي، وقد بلغ من رضاها عنه وخوفها عليه أن يضطرب أو يفسد، إنها أخفت مفاتيح الخزانات لا أدري أين؟ بارك الله فيها - أعني زوجتي لا الخزانات.






السيف والكتب[1]

للأستاذ عباس محمود العقاد

جاء نبأ برقي من نيويورك أن الجماعة البريطانية المؤلفة للترفيه عن الجنود أعلنت أن ستين ألف كتاب ومجلة تجتاز الآن طريقها إلى الجيش الإمبراطوري في الشرق الأوسط؛ وهي أول ثمرة من ثمرات الدعوة التي بدئت في الولايات المتحدة قبل ذلك بأسبوع واحد لجمع مائتين وخمسين ألفًا من الكتب والمجلات لرجال الجنرال «**أوفنلك**» بمصر وجاراتها.

وهذا في الولايات المتحدة.

وهناك جماعات أخرى مبثوثة في أنحاء العالم -وبعضها في القاهرة والإسكندرية- تجمع الكتب بالألوف ومئات الألوف للترفيه عن المقاتلين أو المتحفزين للقتال.

وهذه كتب ترسل إلى الجنود بغير ثمن، ولكن الجنود أنفسهم يشترون الكتب والمجلات حيث وجدوها بأثمان مضاعفة تُربي على أثمانها المكتوبة عليها، ولا يكتفون بما يصل إليهم من طريق التبرع والمساعدة.

ومن راقب المكتبات التي تبيع الكتب الأجنبية في العواصم المصرية عرف أن حركة البيع فيها مقرونة بحركة الجنود في نواحيها، فلا يكثر الجنود في عاصمة إلا كثر فيها بيع الكتب والمطبوعات على اختلاف موضوعاتها.

وليست هذه الكتب والمطبوعات جميعها قصصًا أو من قبيل القصص كما

(١) مجلة الرسالة، مجلد ١٧، العدد ٤٢٧ سنة ١٣٦٠هـ، ص ١١٠٩-١١١١.

يتبادر إلى الخاطر لأول وهلة؛ فإن الموضوعات القصصية تغلب عليها، إلا أنها تقترن بموضوعات شتى لها نصيب من إقبال الجنود غير مبخوس، ومن هذه الموضوعات: الرحلات والملاحظات الحربية، والكلام على مستقبل العالم الاجتماعي والسياسي بعد الحرب الحاضرة، ومنها الدراسات الأدبية والفلسفة للقدماء والمحدَثين من المؤلفين!

واتفق كثيرًا أن المكتبات التي تعرف ما عندي من الكتب التي انقطع ورودها كانت تسألني عما أستغني عنه منها، لأنها تطلب من تلك المكتبات ولا تستطيع جلبها من الخارج في أيام معدودات، وكنت أسأل أصحاب المكتبات أحيانًا عمن يطلبونها فيدهشني أن أسمع أنهم في بعض الأحايين من طبقة الجنود الصغار، وهم مع ذلك حريصون على استطلاع أحوال البلاد وتواريخها، أو أحوال العالم وقضاياه ومشكلاته، كأنهم سيدبرون أمر تلك القضايا والمشكلات، أو سيصنفون فيها الكتب والمقالات. ولا شيء من هذا وذاك يشغلهم في الحقيقة وإنما هو العقل المتفتح لما حوله لا يستطيع أن يحتجب عنه أو يحجبه عن الوصول إليه، ولو كان في ميدان القتال!

نعم ولو كان في ميدان القتال!

وينبغي أن نذكر هذا الاستدراك وأن نعيد ذكره ولا ننساه، فإن الجندي في ميدان القتال إما مشغول بحركة العمل الحربي، أو بحركة الرياضة والمرانة والاستعداد، أو هو إن فرغ من هذه وتلك منصرف إلى اللهو والتزود من متعة الحياة؛ فليس في وقته متسع للقراءة كائنًا ما كان موضوعها من السهولة والتشويق، وأحرى ألا يبلغ من اتساع وقته لها أن يحتاج الجيش كله إلى كتب ومجلات تعد بمئات الألوف.

ولكن الحاصل هو هذا.



الحاصل أن الجنود المقاتلين أو المتأهبين للقتال يقرأون ويدرسون، ويشترون الكتب ولا يقنعون بمئات الألوف التي يتبرع لهم بها المتبرعون.

وينبغي أن نعيد هنا توكيد ميدان القتال والقراءة على أهبة من دخول الميدان.

فإن طوائف من الشبان المصريين -والشرقيين عامة- كنتُ إذا لمتهم في الإعراض عن القراءة والمعرفة قالوا لك: إن العصر عصر رياضة ولعب وركوب ومسابقات، وليس بعصر قعود ودراسة وقبوع في المكتبات! فهم يعتذرون من خمود الذهن بما ينتحلونه من نشاط الجسد... وليس من النشاط أن يصاب الذهن الإنسانيّ بالخمود ولو صحبته ألوف من الأذرع والسيقان لا ينقطع لها حراك.

فهذه الطوائف من الشبان خليقة أن تعلم أيّة رياضة هي رياضة الجندي على أهبة القتال. فهو في رياضة لا انتهاء لها في صباح ولا مساء، بل في رياضة تبلغ من العنف أن تستنفد جهود الأعضاء والأفهام.

ومع هذا هم يطّلِعون ويستطلعون، وتظفر منهم المطالعة والاستطلاع بحصة من الوقت لا تظفران بعُشْر معشارها من أوقات شباننا في إبّان البطالة والسلام.

قال لي أديب يحب أن يتحذلق بالغريب من الآراء: أترى أن القراءة شاغل من شواغل الطبيعة؟ أليست هذه الكتب وهذه الأوراق بدعة من بدع الصناعة التي لا أساس لها في تكوين البنية، ولا حرج إذن على الشاب «**المطبوع**» أن يصدف عنها بفطرته وينصرف إلى ما تصرفه إليه طبيعة التكوين؟

وأديبنا هذا يحسب الكتب أوراقًا وحروفًا من صنع الحدّاد وابتداع المختَرِع الحديث؟

ولهذا هي عنده متاع «**مصنوع**» وليست بالمتاع المطبوع الذي له في البنية

أساس كأساس الجوع والظمأ وسائر الشهوات، أما معاني الكتب وما تبعثه من شعور فلا تدخل له في حساب. ومعاني الكتب مع هذا شيء حيوي عضوي يمتزج بالتكوين الإنساني كما يمتزج به الغذاء واللهو والرياضة، لأنها من وظائف الوعي الذي هو خلاصة الشعور والإدراك. وهل للحياة الإنسانية بغير «**الوعي**» وجود؟ وهل لوجودها بغيره قيمة؟ وهل تختلف قيمة الإنسان الذي ينحصر وعيه في المطالب الحيوانية من قيمة الحيوان؟

فالقراءة ليست هي الورق المصنوع من الخِرَق والعيدان، وليست هي الحروف المسبوكة من المعدن، وليست هي المطبعة التي تدار بالبخار والكهرباء، وتدخل من أجل ذلك في عداد البدع والمستحدثات.

كلا؛ بل القراءة هي اتساع الواعية بما يضاف إليها من التجارب والأحاسيس والمعارف والمعقولات، وهي امتداد الحياة إلى آفاق لم يكن يبلغها الفرد في عمره القصير، وهي بديل من السياحة، ومن البحث عن المجهول، ومن الإصغاء إلى النوادر والحكايات، ومن تحصيل التجارب التي يتحدث بها المجربون، ومن كل تشوُّف مطبوع في أساس التكوين، لأنه امتداد لحواس النظر والسمع والإدراك على تعدد وسائله وأدواته. وليس يصح قول القائلين: إن الكتاب لذة مصنوعة لأنه يُطبَع بالبخار والكهرباء إلا إذا صح أن يقال: إن الرغيف لذة مصنوعة لأن البخار والكهرباء مما يصنع عليه الخبز في العصر الحديث، فالوعي هو الحاسة الكبرى التي تطلب القراءة.

والوعي هو الحياة في أصدق معانيها وفي أوسعها وأرفعها على السواء.

وهذا مناط الامتياز والتفرقة بين أجناس بني آدم، فأيهم كان أكثر وعيًا فهو أكثر استطلاعًا بمختلف الأساليب، والقراءة أعم هذه الأساليب.



ويبدو لنا على نحوٍ يشبه اليقين أن الفرق بين الآدميين في مسألة «الوعي» كالفرق بين سلالة وسلالة أو عنصر وعنصر من عناصر الأحياء. ونعني أنه فرق لا يفسره اختلاف البيئة واختلاف التعليم واختلاف المصادفات العارضة، لأنه أعمق من ذلك وأعرق وأشد إيغالًا في الطبائع على مثال لا نراه إلا في اختلاف وظائف الأعضاء.

ويجب أن يكون هذا الفرق قد تجمّع في أجيال بعد أجيال، وفي موروثات بعد موروثات، حتى أصبح وشيكًا أن يفصل بين الآدمي والآدمي كما ينفصل الحيان المتبانيان. ومناط ذلك فيما نعتقد الأعصاب ثم الخلايا التي يتألف منها نسيج الأجسام، لأن الأعصاب والخلايا هي أجزاء الجسم التي تتسع لتخزين المَلَكات والطبائع في العصور بعد العصور، والسلالات وراء السلالات.

فما أبعد الفارق بين إنسان تَـمْلأه المطالب التي تملأ الحيوان الأعجم حتى لا تبقى في بقية للمزيد، وبين إنسان يستوعب الأحاسيسَ والأفكارَ، ويستكْنَه المجهولات والأسرار، ولا يزال بعد ذلك كأنه في حاجة إلى أكوان وراء هذا الكون تملأ ما في نفسه من آفاق لا تمتلئ ولا تزال مُشْرئبّة متشوّفة إلى المزيد.

هنا نفهم معنى الشوق إلى المعرفة ومنه الشوق إلى المطالعة، فإنه على هذا التفسير وظيفة حيوية في أصل البنية وليس بالبدعة الحديثة التي ظهرت بظهور الورق والمداد أو بظهور المطبعة والكهرباء، وهنا نعرف لماذا تضيق حياةُ الفرد في بعض الأمم حتى يوسعها بالفُرْجة والاستطلاع والرياضة واستيعاب الأخبار ومشاهدة الآثار والأقطار، ثم يكتفي الفرد في أمم أخرى بما يشغل الحيوان فلا يتعدّاه باختياره إلى أمد بعيد. وغاية ما نرجوه ألا يكون بين أمم الشرق وأمم الحضارة الحاضرة فارق كالذي نحسبه فيصلًا متغلغلًا في أصول التكوين. فكل ما عدا ذلك فهو قابل للإصلاح والعلاج.

إذ الحقيقة أن القراءة لم تزل عندنا صخرة يُساق إليها الأكثرون طلبًا لوظيفة أو منفعة، ولم تزل عند أمم الحضارة الحاضرة حركة نفسية كحركة العضو الذي لا يطيق الجمود. وربما تغيرت موضوعات الكتب وأثمانها وأساليب تداولها عندهم في الفترة بعد الفترة وفي العهد بعد العهد وفاقًا لتغير الأحوال. أما أن تنقطع الكتب أو ينقطع الاطلاع فذلك عندهم أقرب شيء إلى المستحيل. ولو شئنا لأحصينا هنا عشرات الموضوعات التي أثارتها الحرب ونشطت لها أقلامُ الكُتّاب في زمن يخاله بعضنا صارفًا عن كلّ كتابة وكلّ قراءة، ولكننا في غنًى بالمشاهدة عن الإحصاء.





القراءة في زمن الحرب[1]

للأستاذ عباس محمود العقّاد

هل للإقبال على القراءة في زمن الحرب أسباب حقيقية؟ وإن كانت لها أسباب حقيقية فما هي؟ وكيف يستفاد من هذا الإقبال خير فائدة؟

تلك بعض الأسئلة التي استخلصتُها من خطاب مطوَّل في هذا الموضوع، وأحسبه مِن أحقّ الموضوعات بالدراسة في الوقت الحاضر، لأنه موضوع القراءة الذي تنطوي فيه سائر الدراسات، فأما أن الإقبال على القراءة له أسباب حقيقية فذلك ما ليس فيه شك ولا يحتاج إلى بينة.

إذ كلّ شيء حاصل فله لا محالة أسبابه الحقيقية، وإلا لم يحصل ولم يكن له وجود، وإنما يجوز الخلافُ في دوام هذه الأسباب وزوالها، أو في قوَّتها وضعفها، أو في خلوصها وما قد يشوبها من العوارض الغريبة عنها.

فأما أنها حقيقية فذلك أمر لا محلّ فيه لخلاف، والأسباب التي تدعو إلى الإقبال على القراءة في هذه الفترة كثيرة لا تنحصر في ناحية واحدة، وقد تنحصر في جملة الأسباب التالية:

فمنها أن البريد الأوربي لا يحمل إلى مصر كلَّ ما كان يحمله إليها من الكتب والصحف والمجلات من معظم البلدان.

فقد كان يَرِد إلى مصر بريد حافل بهذه المطبوعات في كلِّ أسبوع، وكان له

(١) مجلة الرسالة، مجلد ٢٠، العدد ٥١١ سنة ١٣٦٢هـ، ص ٣٠١-٣٠٣.

قراء مثابرون على مطالعته كلما وصلت رسالة من رسالاته. فانقطع بعض الذي كان يصل من فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وألمانيا، وقلّ وصولُ بعض الذي كان يصل من انجلترا وأمريكا، وتحوَّل قرَّاؤه إلى مراجع أخرى يشغلون بها وقتَ القراءة، ومعظمها من المراجع العربية الحديثة أو القديمة.

ومن تلك الأسباب: أن الصحف اليومية كانت منها صحف تصدر في أربع وعشرين صفحة أو عشرين، وصحف تصدر في ست عشر صفحة ولا تقل عنها، وكانت إلى جانبها صحف أسبوعية تصدر في أربعين صفحة وتزيد عليها في بعض الأسابيع، فنقص كلُّ ذلك نقصانًا بيّنًا بغير تدريج طويل، وأصبح الحدّ الأقصى للصحيفة اليومية في أكثر الأيام أربع صفحات، وعمَّ النقصُ سائر الصحف والمجلات، فأوشكت أن تصدر في ثلث عدد صفحاتها قبل الحرب الحاضرة.

وكلّ هذا النقص تقابله زيادة في وقت القراءة عند من تعوّدوا مطالعة الصحف والمجلات في حجمها الأول، ولا بدّ لهذا الوقت من شاغل يناسبه ويجري في مجراه.

وإلى جانب النقص في الصفحات أَلِفَ الناسُ الأخبار التي لا يعرض لها كثير من التنويع والمفاجأة، وندرت المناقشات السياسية التي يشتدّ فيها الجذب والدفع والتأييد والتفنيد، وينشط القراء إلى متابعتها بحماسة التشيع تارة إلى هذا وتارة إلى ذاك، فأصاب القرّاء شيء من الفتور إلى جانب النقص في المادة المقروءة لو أنهم نشطوا إليها.

ومع هذا كله كثر الوقت الذي يتسع للقراءة لانصراف الناس عن السهر في خارج البيوت، إما لتقييد الإضاءة أو لقلة الجديد في دور الصور المتحركة ودور التمثيل.

ومع هذا وذاك كثرت النقود بين الأيدي وتيسر شراء الكتب بالأثمان التي أوجبها غلاء الورق وغلاء تكاليف الطباعة، وقال الخبراء بشؤون الاقتصاد: إن كثرة النقود في الآونة الحاضرة دليل على رخاء صحيح وليست من عوارض التضخم التي تنشأ أحيانًا من شيوع العملة الورقية؛ إذ الناس يبيعون محصولاتهم وتبقى أثمانها في داخل البلاد، خلافًا لما كان يحدث قبل سنوات من تصريف هذه الأثمان إلى خارج القُطْر بالسفر أو باستجلاب البضائع الأجنبية. فهذه الأثمان المحفوظة في البلاد وهي ثروة حقيقية مكسوبة من موارد حقيقية، وليست بالثروة المصطنعة التي تنشأ من شيوع الوَرَق النقدي بغير مقابل معروف.

وخلاصة ما تقدّم أن الإقبال على قراءة الكتب العربية يرجع إلى تحوّل بعض القراء من مادة إلى مادة، وإلى اتساع وقت القراءة، وإلى تيسّر الشراء، ويدوم ما دامت هذه الأسباب. فإذا ضعفت طاقةُ الشراء، أو ضاق وقتُ القراءة، أو توافرت المادة الأولى التي كانت متوافرة قبل سنوات، فقد يتغير هذا الإقبال، وقد تثوبُ الحالُ إلى ما كانت عليه من قبل، أو تتمخّض عن حالٍ جديد لم نعهده حتى الآن.

هذا الحال الجديد الذي لم نعهده حتى الآن قد يأتي من ناحية واحدة معلَّقة على تيسر الورق وتيسر الطباعة.

فإذا تيسر الورق تيسرت الطباعة بقية أيام الحرب ثبتت في البلاد العربية عادة يصعب تغييرها، وإن عاد البريد الأوربي إلى نظامه السابق، وعادت الصحف اليومية والأسبوعية إلى نطاقها الأول:

تلك عادة القراءة في الكتب وحسبانها في حاجات الحياة العصرية ومطالب المجتمع المهذب، فإنها عادة قد تتأصل في مصر كما تأصلت في البلدان الأوربية على كثرة الصحف فيها واتساع صفحاتها وتنوع موضوعاتها.

ويزيد هذه العادة تمكينًا أن يتيسر ورق الطباعة من مصانع وطنية توالي مصر وبلاد الشرق القريب بما هي في حاجة إليه؛ فإنَّ رُخْص الورق يغري بطبع الكتب الرخيصة التي تقبل عليها جميع الطبقات، ولاسيما إذا اجتمع لها إغراء الرخص وإغراء الموضوعات.

أما الاستفادة من الإقبال على القراءة في زمن الحرب خير فائدة مستطاعة، فذلك موقوف على معنى الفائدة التي نرمي إليها، فإن كانت فائدة الربح، فسبيلها أن تعطي **«جمهور القراء»** ما يشتهيه من الموضوعات التي يحسبها جديرة بالقراءة ثمينة بالفائدة؛ وإن كانت فائدة الثقافة فسبيلها أن تعطي جمهور القراء ما هو في الواقع محتاج إلى علمه، وإن لم يخطر له ذلك.

ومما لا شكّ فيه أن جمهور القُرَّاء يحتاج إلى كثير، وإن كثيرًا مما يقرأه لا حاجة به ولا غناء فيه، وإن الوقت قد حان لتزويده بما يحتاج إلى عرفانه من أحوال العالم اليوم، وأحوال العالم بعد نهاية الحرب، إلى زمن طويل.

فبين الموضوعات التي كانت مهملة أكبر إهمال يُعاب على أبناء الحضارة في العصر الحاضر: موضوع المشاكل الاجتماعية والسياسية في قارة أوربا، وفي البلاد الغربية على الإجمال.

فقلَّ جدًّا في مصر وبلاد الشرق القريب من كان يتابع هذا الموضوع ويعرف ما ينبغي عرفانه من أطوار الفكر وصراع الدخائل الاجتماعية في كل أمة من الأمم، وارتباط ذلك جميعه بمقاصد الحكومات ومقاصد الزعماء الذين يقبضون على أَعِنَّة تلك الحكومات أو على أعنة الهيئات السياسية.

فكم من المصريين المثقفين **-ولا نقول الجهلاء-** كان يعرف ما ينبغي أن يعرف عن مسألة «التقسيم الجديد» في الولايات المتحدة؟

وكم منهم كان يعلم حقيقة العناصر التي أيدت هتلر في ميدان السياسة الألمانية؟ أو حقيقة العناصر التي أيدت فرانكو في ميدان السياسة الإسبانية؟ أو حقيقة الخلاف بين ستالين وتروتسكي وما يتصل به من خطط روسيا وعلاقاتها بالشرقين الأقصى والأدنى؟

كم منهم يعلم ما وراء البضائع اليابانية المنشورة في أسواقنا من حبائل الاستعمار ومطامع الاستغلال؟

كم منهم كان يعرف زعماء الأمم على ما فطروا عليه فيعرف ما يصنعونه وما يريدونه وما ليس خليقًا أن يصنعوه أو يريدوه؟

إن الذين عرفوا ذلك لجدُّ قليلين.

وإن الذي أصابنا من جهل ذلك لجدُّ عظيم.

لأننا أُخذنا بالحرب ولما تبين من تياراتها كيف تتجه سفينة النجاة، وكيف تهبّ رياح الأخطار.

فإذا أحببنا ألا تفاجئنا السلم مثل هذه المفاجأة، فعلى الذين بأيديهم أمر القراءة والطباعة أن يملأوا الأذهان بالمعارف والمعلومات التي تغني في استطلاع الأحوال والمقاصد بعد الحرب الحاضرة، إلى زمن طويل.

ما الذي تريده هذه الأمة أو تلك؟

ما الذي يريده هذا الزعيم أو ذاك؟

وما الذي يُخْلِص فيه؟ وما الذي يُماذِق فيه؟ وما الذي تواتيه عليه الأسباب الحاضرة؟ وما الذي يخشى أن يعرقله من الأسباب المنظورة؟

بعض ذلك غيب لا سبيل إلى استطلاعه.

وبعض ذلك عيان مشهود أو في حكم العيان المشهود، من أخبار الأمم ودراسات المفكرين، وسوابق التاريخ، وضرورات الاجتماع و «**الاقتصاد**».

ولا يزال في الوقت متسع لاستدراك ما فات، ولا يزال الباب مفتوحًا لمن يلج فيه، ولا تزال الحاجة كلّ يوم في إلحاح ومزيد من الإلحاح.

ومهما يكن من قِصَر الوقت الباقي من زمن الحرب، فانقضاء هذا الوقت في معرفة الحقائق والتأهب للطوارق خير من قضائه في الإهمال والتسويف، وليكن إقبال الناس على القراءة حافزًا لمن يعنيهم أن يقرأوا ما يصلح للفهم في كل زمن وما يصلح للفهم في الزمن الأخير من الحرب على التخصيص.

وليس الكُتّاب وحدهم أصحاب الشأن في الكتابة لأنهم لا يملكون زمام الأمر إلا القليل. فلو كنا على ما نوَدّ مِن توافر الأداة الثقافية لنهض بالأمر جمعٌ قادر أُولو جاهٍ ومالٍ، يقررون الموضوعات، ويوزّعون الأبواب، وينفقون على ثقةٍ من الكسب، وعلى توقّعٍ للخسارة في وقت واحد، أو يراوحون بين ما يُرْبِح وما يحتمل الخسارة، فلا يهمهم أن يربحوا مِن كل شيء ما داموا لا يخسرون مِن كلّ شيء.

إننا لقادرون على ذلك لو أردناه.

وإننا لمريدوه لو أدركنا دواعيه، وأدركنا عُقباه، فهل ندركها؟

إن قلنا: «**فيها قولان**» وكفى، فنحن متفائلون.







طـلاقُ الكتـب[1]

للأستاذ أحمد عبدالغفور عطّار

بَرِمَت نفسي بالكتب فلم أُطِق النظرَ إليها لأنها كانت أقوى الأسباب في شقائي ونكدي، وضقت بها ذرعًا وصمّمت العزمَ على بيعها، وألا أقرأ كتابًا، وكتبت قائمةً ومضيتُ بها على الورّاقين لعلهم يبتاعونها مني فأتخلص منها وأبقى حرًّا طليقًا لا يقيدني كتاب ولا ديوان، وأتصل بالناس! بدنيا الأحياء الذين يمرحون فيها، وأشاهد أعمالهم وتجاربَهم عن كثب، فآخذ العبرة وأنتزع العِظَة وأحصل على التجربة من الأحياء الذين أراهم كلّ يوم يروحون ويغدون. وفي غدوّهم ورواحهم معنى الحركة، والحركة هي رمز الحياة المتجددة تظهر معانيها المستورة بأوضح الصور وأبرز الأشكال، لا عن تلك الكتب وما توحي وتملي، وما تقرّر وما تقول.

إنها أشقتني، فهي التي قادتني إلى السجن مرتين، وهي التي جعلتني أهتف للفضيلة وأعرج إلى السماء. ولكنني انحدرت لأن الناس -**إلا قليل**- في دنيانا الحاضرة لا يرضون بالنّبْل والفضيلة وينكرونهما بلسان أعمالهم، وهي تفصح أكثر مما تنطق الأفكار وتؤدي من معاني.

إنها تنصح لي بالفضيلة حتى أصبحت فاضلا. ولكن الواقع يصدمني فيفجعني في عواطفي وأحلامي، فإذا أنا مرضوض أعاني الألم المبرح.

الواقع مملوء بالرذائل فكيف أكون فيه ذا فضيلة أدعو إليها وأحارب من أجلها، وأنا أرْسُف في القيد.

---

(١) المقالات ص ٣٦-٣٨.

تعلمت منها ما لم ينفعني وإنما خذلني وآذاني!

أفلا تستحقّ مني الجحودَ والإنكارَ وإعلان الحرب جزاء وفاقًا لآثامها وشرورها، أو لما جلَبَت عليّ من شرور وآثام ومكائد.

ربحت هُزْءَ القومِ وسخريتهم -**إن عُدّ ذلك ربحًا**- وبقيت شاذًّا منكورًا؛ هذا يتهمني بالخيال والتعلق بالأوهام، وذلك ينعتني بالإلحاد، وفيهم من يتهمني بالخيانة أو التجرُّؤ على الحاكمين.

سخر بي القوم لأني لا أكاد أُرى بدون كتاب أينما كنت، فهو ضروري لي كثوبي أو عباءتي أو قلنسوتي، وأنا أحوج إليه مني إلى الطعام، ولأني أنتصح بما في الأسفار وأبدو فاضلًا.

أرى التناقض بين ما في الكتب وما في الواقع فأحار في أيهما الأحقّ والأولى بالإتباع، ولكن صوت الواقع أشدّ جهارةً بحيث تخفي في طياته همسات الكتب الخافتة، ولكن الواقع أكثر أتباعًا بل كلهم أتباعه فلِمَ أكون شاذًّا فيه.

لأسلك الطريق مع القافلة، فالمساواة في الشر خيرٌ من التفرّد على الحقّ.

عاشرتُها طويلًا، فلعلي ضقتُ بها لأن من طبيعتي الملل والسأم، لا أستطيع الصبرَ على غذاء واحد أو لونٍ واحد أو حياة رتيبة.

كان لها سحر أصبحت أمقته الآن وأحرّمه. استعبدتني وأنا من شيمتي الانطلاق والتحرّر، حَرَمتني لذة الحياة الدنيا بمتعة يلتذُّ بها الخيال ويرضي بهذه القسمة ولا يشعر بالغبن، وإنما يحسب أنه الرابح المقرور: أخذت مني ضوء عيني ونضارتي وبُلَهْنِيَة عمري، وألقت بي بين براثن المرض والسهر، أتململ وأهتف بالأماني والأحلام الذهبية.



قد تلاشى ذلك السحر والجو الحالم واصطدمت بالواقع، فإذا الكتب تشق طريقًا آخر، أفلا أتهمها بامتطاء الفِرْية وتزيين الكذب وسوقه في ثوب قشيب؟!

أنا لم أعد أطيق هذه الجماجم النخرة تتكلم فهي تفزعني بعد أن كنت أجد فيها السلوان إنها -**كالشيطان**- تزيّن للمرء الشرّ الذي هو في نظر مؤلفيها خير فيدعو إليه فإذا هو ملقى في غيابة السجن لا يُقبَل دفاعه ولا أقوال الكتب لأن الواقع يتهمه بالدعوة إلى الشر فينال عقابه سَجْنًا ونفيًا وضربًا.

فوداعًا أيتها الكتب.

لستُ أدري إذا[1] رجعت إليها مرة أخرى فأنكبُّ عليها كما ينكبّ المفارق المعمودُ على وجه معشوقه لَثْمًا وتقبيلًا؟

إني مصمم على طلاقها البائن، ولكنني أخشى أن تهدأ عاطفتي الثائرة يومًا ما، وأرى الواقع يدعو إلى الفضيلة ولا تصطدم حقائقه بحقائق الكتب المثالية العليا، فأدعو إليها مطمئن النفس مرتاح البال!



(١) في الأصل (ألى)! ولعلها: ما أثبتّ.



وأنا بقربك كل يوم عيدي[1]



لأسعد خليل داغر

بـــكَ يـا كـتابُ أهيـــمُ لا بالغيــدِ
والله يعلــمُ والأنــــامُ شـــهودي

إيـــاك أشـــتاقُ اشـــتياقَ مـــتيَّم
وإليـــكَ ألتـــاحُ ألتيـــاحَ عمـــيدِ

وهـــــواي مـــقصورٌ عليـــكَ لأنَّ لي
عَـــوَزًا إليــك كـــما إلى الممـــدود

أشـــدوا وأنشِـــدُ في جمـــالكَ أنـــه
مِـــدعاةُ شـــدوي بل مَـدار نشـيدي

فـــإذا نـــثرتُ ففي امتداحكَ ساجعٌ
وإذا نظمـــتُ فـأنتَ بيـت قصـيدي

يـــا مـــؤنسي في وَحشـــتي ومحـــدِّثي
عـــن كـــلِّ أمـــرٍ نافـــع ومـــفيد

وجليـــسَ خـــيرٍ لا يخـافُ جليسُه
مـــن نـــزع نـــمّام وشـــرِّ حسـودِ

(١) قصيدة لأسعد خليل داغر، مجلة المقتطف، سنة ١٩١٥م-١٣٢٨هـ، ص ٦٧-٦٨. والكاتب أديب لبناني (ت ١٣٥٣). ينظر الأعلام للزركلي: ١/ ٣٠٠-٣٠١

وصديـق أمـنٍ ليس مع إخلاصِه

خـطرٌ يهـدّدني بنكـثِ عهـودِ

فـإذا سكتَّ فـأنتَ أبلغُ نـاطقٍ

كلـماتُـه تقصـارةٌ في جيـدي

وإذا عبستَ فعَـن وقـارٍ شـائقٍ

منكَ العبـوس وليس عـن تهديدِ

يـا قِبلتـي حيثُ اتجهتُ فمُـقلتي

ترنـو إليـك بشـوقها المـعهودِ

في العـام أعيـاد الـورى مـعدودةٌ

وأنـا بقربـك كـلّ يـومٍ عيـدي

الشمـسُ يَهـديني نهـارًا نـورُها

والبـدرُ في جُنـح الظـلام رشيدي

ودمـي يجـدّده الغـذاء فـيتّقي

جسـدي الدثـور بـذلك التجديـدِ

وضيـاءُ عقـلي عنـك يصدرُ مُظْفرًا

نفسـي بنيـل غذائـها المـنشود

ولـديّ طعـم جناك أطيب مـن جنى

نحـل ومـن رشـف ابنـة العنقـود

فيـــكَ العـــلومُ جمـــيعها مـــذخورَةٌ

فيفـــوزُ مـــن يقنـــوك بالمـــقصود

تغنيـــه عـــن أســـتاذِه فيقـــولُ إذ

يتلـــوك مـــالي حاجـــةٌ لمـــزيد

هـــذا علمْـــتُ بالاختِبـــارِ فقُلتُـــه

أفبعـــده أخشـــى مـــن التفـنيـــد

أخلقـــتَ جِـــدّةَ هـــذه الـدنيا ومـــا

تنفـــكّ مـــذّخرًا لـــكلّ جديـــد

وطويتَ في الأرض العصورَ ولم يزل

لـــك في الـــورى ذكـــرٌ كنشـــر العود

وعليـــكَ كـــان تقـــدّم الإنســـان مـن

عهـــدٍ كـــما علـم الجمـــيعُ بعيـــد

فـــلأنت مـــرآة الحضارة مـــعرض الـ

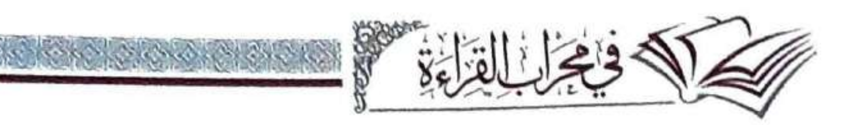
ـــعمـرانِ والتـــأسيس والتشـــييد

وبـــك ابـــنُ هـــذا اليـوم يحيا إن يشـا

في عصـــر آبـــاءٍ لـــه وجـــدودِ

مـــنك اجـتلى الإنسانُ أصل وجـوده

ودرى نهـــايةَ عمـــره المـــحدود



بـــل منـــك ســـرُّ الوحـــي ذاع مـبلغًا

للخلـــق أمـــرَ الخالـــق المـــعبود

لـــو أنصفَ الـــقرّاءُ كانـــوا كلهـــم

مـــن مـذهبي وجـروا عـلى تقليـدي

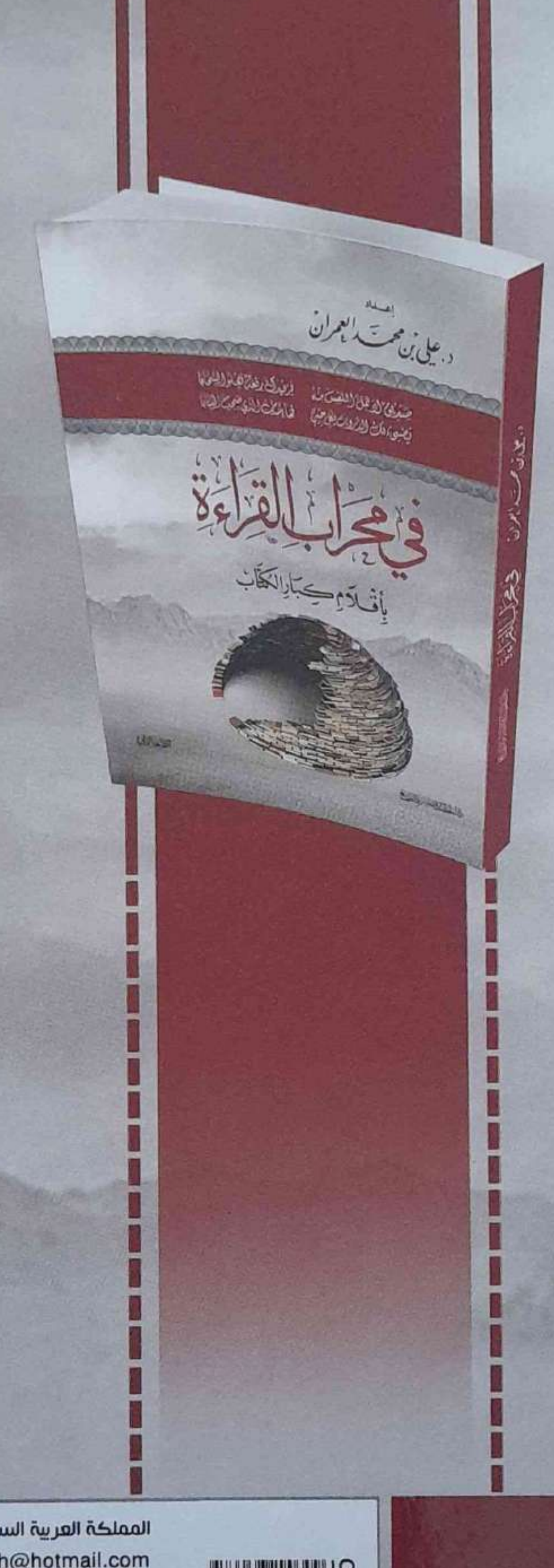
فبـك الهُيـــام لكـلّ ذي لـبٍّ هـــدًى

يحيـــــا ســـعيـدًا فيـــكَ أيَّ سـعيدِ





الفهـــرس



المملكة العربية السعودية - الرياض

daralhadarah@hotmail.com

الرقم الموحد : 920000908 الفاكس : 2702719 - 011

@daralhadarah 0551523173

زوروا متجر الحضارة : hadarah.store





9786038290309

SR: 35



